coptic-books.blogspot.com



دراسات لاهوتيّة

يسوع المسيح في تقليد الكنيسة

فاضل سيداروس

دار المشرق
بيروت


coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

طُبع بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقَّاد

coptic-books.blogspot.com



دراسات لاهوتيّة

فاضِل سيّداروس

يسُوع المسَيح في تقليدِ الكنيسة

محاضرات أُلقيت

في معهد الدراسات اللاهوتية - السكاكيني - القاهرة

طبعة ثالثة مزيدٌ عليها



دار المشرق
بيروت

coptic-books.blogspot.com

لا مانع من طبعه

بولس باسيم

النائب الرسولي للّاتين

بيروت، ١٩ آب (أوغسطس) ١٩٨٩

ISBN 2-7214-4882-X

© جميع الحقوق محفوظة، طبعة ثالثة ١٩٩٩

منشورات دار المشرق ش.م.م. - ص.ب. ٩٤٦، بيروت - لبنان

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**

جسر الواطي - سنّ الفيل

ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت، لبنان

تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٥/٤/٤٨٥٧٩٣ (٠١)

فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)

Email: libor@cyberia.net.lb

coptic-books.blogspot.com

مقدمة النـاشر

على مرّ الأجيال، أعلن المسيحيّون اعترافهم الإيمانيّ بأنّ «يسوع هو المسيح»، وهو الكلمة التي أفاض الله من خلالها حبّه وحياته على البشريّة. وإذا ما ردّدت الكنيسة هـذا الاعتراف، فـإنّها استندت إلى اعتراف الرسـل وعلى رأسهم بـطرس الذي هتف قـائلاً في قيصـريّة فيليبّس: «أنت هو المسيح ابن الله الحيّ» (١٦/١٦). فالاعتراف بأنّ يسوع المسيح، الذي «أقامه الله من بين الأموات» (١ تسالونيكي ١، ١٠)، هو الربّ والسيّد (أعمال ٢، ٣٦)، وهو «ابن الله» (رومة ١، ٤)، أتى نتيجة الصلة الحيّة التي أقامها يسوع بتلاميـذه قبل القيـامة وبعدها، ولأنه حقّق في ذاته وعد الله بخلاص البشريّة. وعلى حدّ قول صاحب الرسالة إلى العبرانيّين، إنّه «رأسُ إيماننا ومتمّمه» (١٢، ٢) أي إنه الدافع إلى الإيمان، وفي الوقت عينه، يقوم بما هو ضروريّ لإتمام مواعيد الله وإيصال الإيمان إلى كماله.

ولأنّ يسوع هو «رأس الإيمان ومتممه»، ولأنّه ابن الله الذي أخذ صورة البشر، يصبح يسوع المسيح قضيّة لاهوتيّة، لا بل إنّـه قضيّة اللاهوت الأساسيّة، وهذه تُختصر بكلمة «المسيحانيّة» (كـرستولـوجيا) (Christologie)، أي «الحديث عن المسيح»، ومعرفة مَنْ هـو المسيح

coptic-books.blogspot.com

بالنسبة إلى الله تعالى، وإلى المؤمن الذي يعترف به مخلّصاً، وبالنسبة إلى البشريّة التي تعيش في رجاء حياة متحرّرة من قوى الموت المتنوعة. فكيف نفهم من خلال قراءة العهدين القديم والجديد، والتقليد الكنسيّ (المجامع الكنسيّة وآباء الكنيسة) أنّ يسوع الناصريّ، الذي وُلد وعاش في عائلة فلسطينيّة من عندنا، هو ابن الله الوحيد، الذي فيه ومن خلاله كشف الله عن عزة ساعده في خلاص البشر؟ وكيف نفهم أيضاً أنّ يسوع هو «الكلمة»، كلمة المحبّة المطلقة والعطاء الذي لا حدّ له في قدرة لامتناهية، هذه الكلمة التي أصبحت واقعاً حيًّا ملموساً وحوّلت الإنسان الميّت إلى إنسان ينطق بتمجيد الله؟ وكيف نستطيع أن نفسّر أنّ يسوع المسيح ليس مجرّد بشر، ذي حكمة تفوق حكمة البشر، ومكانتُه عند الله تتجاوز مكانة الآخرين، وكيف نستطيع أن نفسِّر أيضاً أنّ يسوع المسيح أخذ بشريّتنا حقيقة لا شكلاً، أي أنّه عاش مثل أيّ بشر، وأنَّ من لمسه ورآه التلاميذُ والرسل كان حقاً الإله والإنسان في ذاتيّة واحدة، ذات يسوع المسيح؟ وماذا يعني لنا اليوم كما لغيرنا بالأمس أنّ يسوع، الإله والانسان، أتى رسولاً، لا كباقي الرسل، ليعلن أنّ ملكوت الله أصبح واقعاً وحياة، وأنّ هذا الملكوت أصبح ناجزًا وفعلاً في حياته ورسالته وصلبه وموته وقيامته وصعوده إلى السماء؟.

إن هذا الكتاب الذي صنّفه وأعدّه الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ، وكان ألقاه على شكل محاضرات في معهد الدراسات اللاهوتيّة بالقاهرة، يسعى إلى الإجابة عن هذه الأسئلة المشروعة من خلال دراسة متعمّقة للتقليد الكنسيّ، والعقائد التي أثبتها، وارتباطها الوثيق بالكتاب المقدس؛ فهو يدلنا على الإيمان العقائديّ ما قبل المجامع، ثمّ على ما أجمع عليه كل مجمع من المجامع المسكونية الأولى، من مجمع نيقية (٣٢٥) الذي أكد على لاهوت المسيح وردّ على أريوس وبولس الساموساطي وفوتيوس (المدَّعين أن يسوع ليس إلهاً) بأنّ الابن هو

coptic-books.blogspot.com

من جوهر الآب، إلى مجمع أفسس (٤٣١) الذي أظهر كيفيّة وحدة وعلاقة اللاهوت بالناسوت في ردّ مستفيض على نسطوريوس يشدّد على الوحدة في الشخص (كيرلس)، فالى مجمع خلقيدونيا (٤٥١) الذي تحدث عن خواصّ كلٍّ من الطبيعتين، اللاهوتيّة والناسوتيّة، في ردّ على أوطيخس، ويشدّد على التمييز بين الألوهيّة والإنسانيّة داخل وحدة الذات. أمّا مجمع القسطنطينيّة الثاني (٥٥٣) فإنّه جاء تفسيرًا لمجمع خلقيدونيا وشدّد كذلك على ناسوت الابن وعلى آلامه ذات الفعل الخلاصيّ. ويختم المؤلّف هذه النظرة التاريخيّة على تطوّر العقيدة المسيحانيّة بدراسة إشكاليّة مجمع القسطنطينيّة الثالث (٦٨٠ - ٦٨١) الذي تناول موضوع إرادة المسيح (هل هناك إرادة واحدة أم إرادتان؟). وبعد فصل يتناول اللاهوت المدرسيّ، يتوقّف الكتاب عند المفهوم المسيحانيّ المعاصر وهو يقول بوحدة شخص المسيح، وضرورة التمييز بين إنسانيّته وألوهيته والتشديد على قيامته وانتصاره على الموت (راجع الرسالة إلى أهل رومة ١/٣ - ٤)، وبكون يسوع «لأجله» و«لأجلنا»، ومكانته الأولى والأخيرة في التاريخ، والانفتاح على الثالوث الأقدس والكنيسة.

إنّ أيّ صياغة للمسيحانيّة اليوم (المسيحانيّة العربيّة مثلاً: من هو يسوع المسيح لكنيستنا) لا بدّ لها من أن تأخذ بعين الاعتبار عناصر المسيحانيّة الأساسيّة وأن تجد كيف أنّها تلتقي باهتمامات الشوط الأخير من القرن العشرين في بلادنا. فيسوع المسيح، الكلمة التي أعطت الحياة وكانت فعلاً في حياة الكثيرين، وكانت واحدة في مضمونها وأثرها، لا بدّ أنْ يتفاعل مع الذين يحفظون الكلمة ويقدّسونها ويسعون إلى أنْ تكون مصدر حياة لهم.

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

المقدمة العامة

الموضوع

يسمّى باللغات الأجنبية Christologia، أي «الحديث عن المسيح»، «علم المسيح»، وفي مصطلحنا العربي «المسيحانية»، فالغرض هو معرفة «مَن هو المسيح»، ما نستطيع أن نقول في «المسيح» من خلال التقليد الكنسي الذي يتكوّن من الكتاب المقدس أولاً، ثم من تاريخ اللاهوت الكنسيّ ولا سيّما العقائد الخاصّة بشخص المسيح، وكذلك من لاهوت اليوم.

المنطلق

إن منطلق حديثنا عن يسوع المسيح هو العهد الجديد، ولا سيّما التعابير الإيمانية القديمة القصيرة. وكلما كانت قصيرة، عنى ذلك أنّها قديمة، لأن المسيحيّين الأوّلين عبّروا عن إيمانهم بعبارات موجزة، ثم تطوّرت في ما بعد، إلى أن أصبحت تدريجيًا «قانون الإيمان» المعروف، الذي حدّده مجمعا نيقية والقسطنطينية.

من بين هذه الاعترافات الإيمانية القديمة:

١ . «يسوع هو الرب» (١ قور ١٢/١٣).

coptic-books.blogspot.com

٢ . «يسوع هو المسيح» (رسل ١٨/ ٥ و٢٨ وراجع ١ يو ٢/ ٢٢).
٣ . «الله جعله سيّدًا ومسيحًا، يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم» (رسل ٢/ ٣٦).
٤ . «أنت المسيح، ابن الله الحي» (متى ١٦/ ١٦).

فكل هذه النصوص وغيرها من العهد الجديد تُطلق على يسوع المسيح ألقابًا عديدة مثل: «السيّد»، «الديّان»، «الرب» «المعلّم»، «ابن الإنسان»... ولكن لقب «المسيح» حظي بأهمية بالغة، حتى إنه أصبح ملتصقًا باسم «يسوع»، بل أصبح خاصّته يحملون اسمه، خلافًا لما كان يحدث في العهد القديم. فالمسيحيون ينتمون إلى «المسيح»، إلى يسوع، إلى شخصه، لا إلى مذهب أو مدرسة أسّسها، لا إلى فئة دينيّة كجماعة قمران، أو الصدّوقيين، أو الفريسيّين... فهم ليسوا من «أهل الكتاب»، وإن كان عندهم كتاب هو الإنجيل، بل إنهم أهل «شخص» حيّ، وهو يسوع المسيح، ابن الله، المائت مصلوبًا، والقائم منتصرًا.

لندرس الآن اسم «يسوع» ولقب «المسيح».

يسوع

معنى الكلمة «الله يخلّص». يسوع هو اسم واحدٍ منّا. هو من أرضنا، من جنسنا البشري. يسوع هو اسمه الخاص، لا لقبه. إنّه اسم يعبّر عن كيانه («الله») وعن رسالته («يخلّص»). فهو اسم يعبّر عن شخصه.

وهذا الاسم يشير أيضاً إلى شخصية عاشت في التاريخ: فيسوع ليس شخصية أسطورية، بل هو رجل عاش في الزمان والمكان، في زمان معيّن ومكان معيّن، وُلد حوالى السنة ـ ٥ في بيت لحم. ثم عاش في الناصرة، وبعد ذلك في اليهوديّة... صُلب في أورشليم...).

coptic-books.blogspot.com

المسيح

الكلمة بالعبرية «المسيّا»، أو «المشيح»، تعني «الذي مسحه الله» (Oint).

في العهد القديم كانوا يمسحون الملك والنبي والكاهن. ثم أخذ لقب «الملك المسياني» يظهر تدريجيًا ويفرض نفسه على حساب النبي والكاهن. «فالملك المسياني»، في تصوّر الشعب اليهوديّ، هو الذي سيخلِّص شعب الله خلاصًا نهائيًا من الناحية السياسية والاجتماعية والدينيّة.

وفي العهد الجديد، أصبح «الملك المسياني» ذاك الذي كان اليهود ينتظرونه حينذاك. فبعد أوّل لقاء تمّ بين يسوع وأندراوس، قال هذا لأخيه سمعان: «وجدنا المسيّا» (يو ١/٤١)، وقال فيلبس لنتنائيل: «وجدنا الذي ذكره موسى في الشريعة وذكره الأنبياء» (يو ١/٤٥). ولقد سأل تلاميذ يوحنا المعمدان يسوع: «أأنتَ الآتي، أم ننتظر آخر؟» (متى ١١/٣). وبعد تكثير الخبز والسمك، أراد الشعب أن يجعل يسوع ملكًا (يو ٦/١٥). وعندما كان يسوع يُجري المعجزات كان الناس يعتبرونه «المسيح» بالمعنى الخاصّ، أي «الملك المسياني». ولذلك كان يسوع يرفض دائمًا هذا اللقب، خوفًا من أن يسيئوا فهم ملكه ومسيانيّته[1]. لذلك حين سأله بيلاطس: «أأنت ملك اليهود؟»، أجابه: «ليست مملكتي من هذا العالم» (يو ١٨/٣٤). ولمّا كان على الصليب، أرادوا أن ينزل عنه (متى ٢٧/٤٢). وقد كتب بيلاطس لافتة تنصّ على أنه «ملك اليهود» (يو ١٩/١٩). وبعد القيامة، نرى تلميذي عماوس ينتظران ملكًا مسيانيًا «يفتدي إسرائيل» (لو ٢٤/٢١). وعند الصعود، كان الرسل يتوقّعون إعادة «المُلك إلى إسرائيل» (رسل

(١) هذا هو «السرّ المسيحاني» (Secret messianique) في الأناجيل المتوازية، وفي إنجيل مرقس بوجه خاص.

coptic-books.blogspot.com

١/٦)... فكل هذه المفاهيم عن «المسيح» خاطئة في رأي يسوع.

واستخدمت الكنيسة الأولى لقب «المسيح»، لأنّ الروح القدس «مسح» حقًا يسوع وهو في أحشاء مريم العذراء، يوم البشارة، و«مسحه» للرسالة في المعمودية، و«مسحه» أخيرًا بالقيامة من بين الأموات. ونجد هنا الفرق الشاسع بين «المسيّا» المنتظَر في العهد القديم، و«المسيح» يسوع الذي هو «مسيح»، بمعنى أن الروح القدس نفسه مسحه. ولم يُمْسح بالزيت كما كان الأمر في العهد القديم. وتعني «مسحة» الروح هذه أنّ يسوع له علاقة خاصّة بروح الله، بروح الآب، أي أنه ابن الله، الله نفسه. وإذا تابعنا المقارنة بين العهد القديم والعهد الجديد، نرى أن يسوع المسيح هو ملك ونبي وكاهن، ولكن بمعنى آخر.

يسوع المسيح هو ملك، ولكنّه ليس ملكًا «مسيانيًّا» بالمعنى اليهوديّ، ذلك بأنّ مملكته ليست من هذا العالم. فهو مسيح ملك بمعنى أنّه يجمع شعب الله، لا جمعًا سياسيًا أو اجتماعيًا، بل جمعًا اسكاتولوجيًا (Eschatologie نهاية الأزمنة)، جمعًا نهائيًا داخل الكنيسة، وهي ملكوت الله على الأرض. وهذا الجمع الاسكاتولوجي، الذي يحقّقه المسيح الملك، هو جمع ينطلق من الماضي، وهو حدث موته وقيامته، إلاّ أنه يحقّقه في الحاضر داخل شعبه وهو الكنيسة، في سبيل مستقبل آخر الأزمنة وهو مجيئه الثاني، أي ملكوت الآب.

يسوع المسيح هو أيضًا نبي، بمعنى أنّه يعلن كلام الله للشعب، بل هو نفسه «كلمة الله»، هو ابن الله.

ويسوع المسيح هو أيضًا كاهن، ولكنه لا يقدّم الذبائح والمحرقات، كما كان يفعل الكهنة في العهد القديم، بل يقدّم ذاته ذبيحة، كما ورد ذلك مشروحًا شرحًا وافيًا في الرسالة إلى العبرانيين.

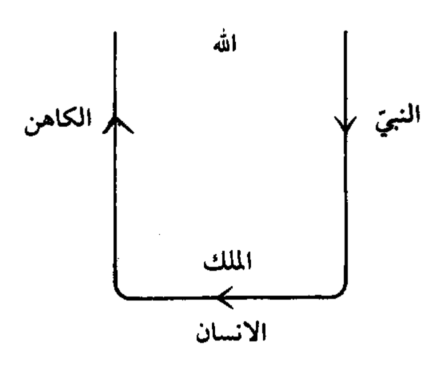
وخلاصة حديثنا أن كلمة «المسيح» تعني في الوقت نفسه:

coptic-books.blogspot.com

١) كينونة يسوع (être): له علاقة خاصة ومباشرة بالله، هو ابن الله الآب، هو الممسوح بالروح القدس.

٢) وظيفة يسوع (fonction): هو يخلّص العالم، لأنه «الله يخلّص».

٣) لقب يسوع (titre): هو الملك، النبي، الكاهن، وذلك بالمعنى الذي حدّدناه.



يسوع هو المسيح

إذا حاولنا أن نجمع بين «يسوع» و«المسيح»، طرحنا السؤال التالي: كيف يكون يسوع هذا الإنسان الخاص الفرد مخلصًا للعالم بأجمعه؟

كيف يؤثّر هذا الإنسان الفرد المحدود في الزمان والمكان في العالم كله تأثيرًا يشمل الأزمنة والأمكنة؟ ما هي العلاقة بين الخاص والشامل (Particulier/ Universel)، بين النسبي والمطلق (Relatif/ Absolu)؟ يجب الاعتراف بأنّ هذا هو «سر المسيحيّة»[٢]، ولا سيّما «سر التجسّد». فالوحي يكمن في هذا السر: المطلق يظهر في النسبي، الأزلي في الزمنيّ، اللانهائيّ في النهائي، الشامل في الخاص، أي، في نهاية الأمر، الله في الإنسان. وهذا السرّ هو عثار لليهود وحماقة لليونانيّين (١ قور ١). ولا يمكن إثباته أو برهنته بالعقل والمنطق، بل

(٢) يشرحه بولس في الرسالة إلى أهل رومة (خاصةً روم ١ ـ ٥).

coptic-books.blogspot.com

يُفهم بالإيمان كسرّ، كما انّه لغة حبّ، إذ إنّ الله أحبّ العالم حتى جاد بابنه الوحيد (يو ٣/١٦).

ولقد حاول العهد الجديد أن يعبّر عن هذا السر بطريقتين متكاملتين:

١ . اللاهوت التصاعدي (Théologie ascendante):

عندما يقول بطرس، معلنًا في خطبه: «يسوع هذا هو سيّد ومسيح»، فإنّه ينطلق من ناسوت يسوع، من هذا الإنسان الخاص المحدود في الزمان والمكان، ليؤكّد لاهوته، كونه ابن الله. وكان يسوع نفسه قد انطلق من إنسانيته (تعليمه، أعماله) ليعلن لتلاميذه إعلانًا تدريجيًا أنّه ابن الله. فلو صرّح لهم بذلك منذ البداية ودفعة واحدة، لما فهموه على الإطلاق. «فاللاهوت التصاعدي» - أو «اللاهوت من تحت» - هو لاهوت الأناجيل الازائية (مرقس، متى، لوقا) وخطب أعمال الرسل، وهو ينطلق من الناسوت حتى يصل إلى اللاهوت.

٢ . اللاهوت التنازلي (Théologie descendante): أمّا

يوحنا الإنجيلي، فمنطلقه مختلف، إذ إنّه ينطلق من لاهوت المسيح، من «الكلمة - الله»، ليصل إلى ناسوته، «الكلمة - المتجسّد»: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، والكلمة هو الله». هذا هو المنطلق، وأما نقطة الوصول فهي: «الكلمة صار بشرًا»، أي الله أصبح إنسانًا. وهذه المسيرة هي «لاهوت تنازلي»، أو «لاهوت من فوق».

لاهوت المسيح ↑ ناسوت يسوع	لاهوت المسيح ↑ ناسوت يسوع
لاهوت تصاعدي (الازائيات - أعمال الرسل)	لاهوت تنازلي (يوحنا - بولس)

coptic-books.blogspot.com

وهذان الحديثان، التنازلي والتصاعدي، متكاملان في العهد الجديد. وحقيقة يسوع تكمن في أنه إله وإنسان في آن واحد. ويجب التعبير عنها بصيغتَيْن متكاملتَيْن. فيجب تجنّب استخدام أحد القطبَيْن أو أحد الحديثَيْن دون الآخر. فالواحد لا يكفي للتعبير عن حقيقة يسوع المسيح المزدوجة، بل الاثنان ضروريان. إن اللاهوت الشرقي أكثر تشديدًا على اللاهوت التنازلي، وأمّا اللاهوت الغربي فعلى اللاهوت التصاعدي. فالشرق ينظر إلى الألوهية وينطلق منها فيصل إلى الناسوت، وأمّا الغرب فينظر إلى الناسوت ليصل إلى اللاهوت. والشرق والغرب متكاملان في هذا الصدد، لا يستغني الواحد عن الآخر[٣].

التصميم[٤]

١) بعد الحديث عن التقليد الكنسي ولا سيّما العقائد،
٢) نتطرق إلى المسيحانية التي قبل المجامع المسكونية،
٣) ثم إلى المجامع المسكونية،
٤) وأخيرًا إلى مسيحانية اليوم.

---

(٣) في «مدخل إلى الأسرار» تطبيق لهذين اللاهوتين على الأسرار السبعة. فالشرق يسمّيها «سرّ» (Mysterion)، أي أنّ سرّ الله (المنطلق هو الله) يظهر في الخبز والخمر والماء والزيت... وأمّا الغرب فيسمّيها «إشارة» (Sacramentum)، أي أنّ الخبز والماء والزيت... (المنطلق هو العناصر الطبيعيّة) عناصر تشير إلى الله (الجسد، الدم، الروح القدس...).

(٤) إنّ هذا الكتاب مقتبس من Bernard SESBOÜE sj, *Jésus-Christ dans la Tradition de l'Eglise*. Coll. Jésus et Jésus-Christ N° 17, Paris, Desclée, 1982.

coptic-books.blogspot.com

الجزء الأول

الفصل الأول

التقليد الكنسي

الشك في العقيدة

لا تتمتّع العقيدة في أيّامنا بالشعبية، بل كثيرًا ما يشك المؤمنون في وظيفتها وأهميتها. ويعود هذا الشك إلى سببين؟

١ . **البروتستانت**: يقولون: «الكتاب فقط»، لأن الكنيسة الكاثوليكية فيما قبل المجمع الفاتيكاني الثاني شدّدت على العقيدة على حساب الكتاب المقدس، فكان ردّ فعل البروتستانت التشديد على الكتاب المقدس على حساب العقيدة.

ونحن متأثرون بهذا التيار البروتستانتي.

٢ . **الفلسفة**: في أيّامنا فلسفة معيّنة وهي الفلسفة الوجودية، ولها مصطلحات معيّنة وعقلية معيّنة، بخلاف الفلسفة السابقة التي أثرت في صيغ كثير من العقائد، وهي الفلسفة اليونانية. فهناك تطوّر في الفلسفة، فلا بدّ من تطوّر في أسلوب العقيدة يلائم الفلسفة

coptic-books.blogspot.com

المعاصرة، لكي تصبح مقبولة ومفهومة من بني عصرنا.

ففي الفلسفة اليونانية مثلاً، حين نتحدّث عن المسيح، نقول: له طبيعتان (أو طبيعة واحدة)، وهذا تعبير أنطولوجي. ولكن هل كلمة «طبيعة» تناسب الفلسفة الحاضرة؟ تتحدّث فلسفة اليوم عن «الشخص» أو عن «الوضع البشري»، لا عن «الطبيعة». كذلك حين نتحدث عن عقيدة انتقال مريم «بالنفس والجسد»، نعلم بأنّ التعبير عن هذه العقيدة متأثّر بالفلسفة اليونانية الأنطولوجية، التي كانت تناسب فكر زمنها. أمّا الآن، بعد انتشار الوجودية والشخصانية، . . . فنعبّر عن انتقال مريم «بشخصها»، «بعلاقاتها». . . ، أكثر ممّا نعبّر عنه «بالنفس والجسد». فلا بدّ في العقيدة من استخدام ألفاظ وفلسفة تعبّر عن مفاهيم اليوم، لتصبح العقيدة تعبيرًا عصريًا عن الإيمان، يناسب فلسفة القرن العشرين وأسلوبه وغايته وحضارته.

للردّ على هذين الاعتراضَيْن، ولفهم وظيفة العقيدة وأهميتها بالنسبة إلى الإيمان، يجب التمييز بين الإيمان وهو ثابت، والعقائد وهي تعابير عن الإيمان قابلة للتغيير والتأقلم.

ونريد الآن أن نبحث في العلاقة القائمة بين العقيدة والكتاب المقدّس، وهما وجهان للتقليد الكنسي.

التقليد الكنسي بين الكتاب المقدس والعقيدة

١ . ضرورة الانطلاق من الكتاب المقدس: لا يمكن أن نبطلق في اللاهوت إلاّ من الكتاب المقدس، لأنه هو الذي يروي لنا حدث موت يسوع المسيح وقيامته والإعلان عن هذا الحدث من جهة، وما هي هوية يسوع المسيح من جهة أخرى. فكل حديث لاهوتي يجب أن ينطلق من الكتاب المقدس ويعتمد عليه. فلقد بشّر الرسل بيسوع المسيح ـ بهويته وبسر موته وقيامته ـ في الخطب والأناشيد الليتورجية

coptic-books.blogspot.com

والاعترافات الإيمانية، ثم في الأناجيل[1]. فنحن، إذا ما أردنا أن نتحدّث من الوجهة اللاهوتية عن يسوع المسيح، علينا أن ننطلق من الكتاب المقدس الذي هو تبشير بيسوع المسيح هذا، فنتحاشى هكذا ما وقع فيه اللاهوت الكاثوليكي في فترات من الزمن.

٢. **الكتاب المقدس والتقليد:** الكتاب المقدس نفسه هو ثمرة التقليد الكنسي. فليس يسوع هو الذي دوّنه (لم يكتب إلاّ مرة واحدة على الرمل)، بل هو ثمرة الجماعة المسيحية الأولى في «بيئاتها الحياتية» المختلفة (بالألمانية: Sitz im Leben):

- البيئة الإعلانية (تبشير اليهود والوثنيين بيسوع المسيح).
- البيئة الأسرارية (الاستعداد للعماد والافخارستيا).
- البيئة التعليمية (تعليم المسيحيّين أمور الحياة المسيحية)[2].

وهنا تكمن أهمية التقليد الكنسي. فالأناجيل نفسها قد بُنيت على التقليد، فهي مجموعة تقاليد جماعية جمعها الإنجيليون بحسب هدف لاهوتي خاص بكل واحد منهم. وفي ذلك اختلاف عن القرآن مثلاً، فليس هو ثمرة تقليد جماعي، بل هو، بالنسبة إلى المسلمين، كلام الله الذي أنزله من دون أن يكون للإنسان أي دور فيه، ويقتصر دور محمد على تبليغه فقط.

٣. **يسوع والتقليد:** نحن لا نعرف يسوع المسيح ولا نصل إليه إلا بوساطة التقليد الكنسي: الرسل في الكتاب ـ وخلفاؤهم في العقيدة، بل بوساطة الماضي: شعب إسرائيل، والحاضر: الـ ١٢ تلميذًا أو رسولاً، والمستقبل: الكنيسة. وكل ذلك مركّز على الإيمان والرجاء: الإيمان بحدث يسوع المسيح، والرجاء بما يأتي.

(١) راجع محاضراتنا في «إعلان سر موت وقيامة يسوع المسيح» ـ السكاكيني ١٩٨٠ ـ ١٩٨١.

(٢) راجع محاضراتنا في «تكوين الأناجيل» ـ السكاكيني ١٩٨١ ـ ١٩٨٢، صدر في سلسلة «دراسات في الكتاب المقدّس»، رقم ١٨، دار المشرق، بيروت.

coptic-books.blogspot.com

أ) **الماضي: شعب إسرائيل**: هناك نبوءات عن المسيح في المزامير وكتب الأنبياء، فالعهد القديم يتكلم على المسيح المنتظَر. وفي العهد القديم كتب «التثنية»، وهي ظاهرة عند الشعب الإسرائيلي الذي يجدّد قراءة كتبه المقدسة. إن «تثنية الاشتراع» مثلاً هي قراءة متأخرة للتشريع الأوّل الوارد ذكره في سفري الخروج والأحبار. وليس كتاب «الأمثال» إلاّ عبارة عن تجديد قراءة كتب الحكمة. وأشعيا الثاني والثالث هما كذلك قراءة جديدة للأوّل. وهذا ما يسمّى «ظاهرة التثنية» (Deutérose)، أي تجديد قراءة التاريخ والكتب المقدسة. وهذا التجديد في القراءة إنما هو ثمرة خبرة روحيّة وتعمّق روحي. وهذه الخبرة تساعد اليهود على تعميق رجائهم في المسيّا الذي تتّضح ملامح وجهه تدريجيًا ليصبح ملكًا وكاهنًا ونبيًّا، كما رأينا. ومن بعد الجلاء، يصبح في أقوال الأنبياء شخصية اسكاتولوجية، تأتي في آخر الأزمنة.

ب) **الحاضر: التلاميذ الرسل**: والأناجيل هي تجديد قراءة حياة يسوع المسيح، وقد عاشها التلاميذ، ثم حاولوا أن يعبّروا عنها في الأناجيل. فمعرفتنا ليسوع هي معرفة غير مباشرة، بل تأتينا عن طريق التلاميذ، بوساطة التقليد الكنسي.

الوحي المسيحي مرتبط ارتباطًا عضويًا بالجماعة، ولا سبيل إلى الإيمان بيسوع المسيح دون الاعتراف بدور الكنيسة التي بشّرت به. فلا يمكن فصل المسيح عن الكنيسة ولا فصل الكنيسة عن المسيح. وهنا تظهر مخاطرة المسيح وثقته في الإنسان، إذ إنّه يضع مستقبله كله بين يدي البشر فيكلّف رسله بالتبشير به والشهادة له والكتابة عنه، كما يخاطر بوضع جسده ودمه بين يدي الكنيسة لتوزّعهما. وهكذا فإنّ معرفتنا للمسيح إنّما أساسها الكنيسة، وإيماننا بالمسيح إنّما هو داخل الكنيسة. فكما جاد الآب بالابن ومثلما أعطى الابن نفسه وأعطى الروح القدس، كذلك وهب الروح القدس للكنيسة الأولى أو التقليد الرسولي أن يبشّر بيسوع شفهيًا وخطيًّا. فالروح القدس هو الذي ألهم

coptic-books.blogspot.com

الرسل عندما كانوا يبشّرون بيسوع في التقليد الشفهي والكتابي. والله الآب والابن أعطى الروح القدس للرسل ضمانًا لصحة التبشير بيسوع المسيح وسلامته (راجع يوحنا ١٤ - ١٦). وهكذا يكون الكتاب المقدس، بصفته ثمرة للتقليد الكنسي، تجديدًا لقراءة حياة يسوع المسيح.

جـ) المستقبل: التقليد الكنسي: افتراض مستحيل: نفترض أنه، في السنة ١٥٠ م، أي بعد الاعتراف بالأسفار المقدسة في العهد الجديد، وفي أيام الاضطهاد، قُضِيَ على جميع المسيحيين، وأنه في القرن العشرين عثر على الكتاب المقدس (كما عثر على وثائق قمران في الأربعينات). فهل كنّا نجد اليوم إيمانًا بيسوع المسيح؟ كلا، لأنّ الإيمان المسيحي إنّما هو إيمان شعب، إيمان كنيسة، تقليد في الإيمان، وليس هو إيمانًا بكتاب المسيحيّة نفسها (فالكتاب المقدس كما رأينا هو مجموعة تقاليد). وكما يقول بولس الرسول: «ما تسلّمته أسلّمه». فإيماننا هو إيمان بالله الذي يُظهر نفسه عن طريق التقليد، والمؤمنين، والكنيسة، في حين أنّه يمكن أن يندثر الإسلام أو يُقضى عليه وأن يعاد وجوده بعد عدة قرون، لأنّ إيمان المسلمين هو إيمان بكتاب. فالإيمان المسيحي هو عملية تسلُّم وتسليم. الإيمان المسيحي هو إيمان كنسيّ، لا فرديّ، لأننا نجد التقليد على كل المستويات. فيجب أن ننتبه إلى أهمية المزج بين الطرفين الكتاب/ التقليد، والكنيسة تقوم بحركة التسلّم والتسليم. فالكنيسة والمسيح واحد، وليس الكتاب والمسيح واحدًا.

والعقيدة هي «تثنية» للكتاب المقدس. فكما أن اليهود جدَّدوا قراءة تاريخهم وكتبهم، كذلك تجدّد الكنيسة قراءة كتبها في العقيدة. فليست العقيدة إلاّ قراءة الكتاب المقدس من منطلق العصر (هرطقات العصر، تساؤلات العصر. . . .) وبأسلوب العصر وعقليته وفلسفته.

ومن ناحية أخرى، فكما أنّ الروح القدس ألهم الرسل وضمن

coptic-books.blogspot.com

صحة قراءتهم لحياة يسوع المسيح وهويته وحدثه، كذلك يُلهم الكنيسة، كنيسة اليوم، عندما تجدّد قراءة الكتاب المقدس في العقيدة، والروح يضمن صحة قراءتها هذه، فتصبح قراءة مطابقة للكتاب المقدس الذي هو مطابق ليسوع المسيح. هناك إذًا امتداد عضوي بين يسوع المسيح/ التقليد الكنسي في الجماعة الكنسيّة الأولى (جماعة العهد الجديد)/ التقليد الكنسيّ في الجماعة الكنسية الآبائية/ (آباء الكنيسة)/ التقليد الكنسي في الجماعة الكنسية الحالية.

لذلك اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية أن باب العقيدة لا يزال مفتوحًا، ولم ينغلق في القرن الرابع أو الخامس. فالوحي لم ينتهِ، بل الروح القدس يعمل في الكنيسة الأولى. وسينتهي الوحي في آخر الأزمنة، عندما تكون كل الكنوز المخفية في الكتاب المقدس قد كُشفت.

الكنيسة بين الأمانة والتجديد

١ . **قبول التوتّر بينهما**: التوتّر بينهما أمر ضروري للكنيسة، لأنّها لو كانت أمينة للوحي فقط لأصبحت، في إيمانها، تردّد وتكرّر وتجترّ. ولو كانت مجدِّدة فقط، لوقعت في تطرّف التعصرن والتغيير لأجل التغيير. فيجب الوصول إلى اتّزان بين الأمانة/ التجديد، الأمانة للإيمان الذي لا يتغيَّر على مرّ العصور/ التجديد في تعابير الإيمان التي تتغيّر من جيل إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى.

٢ . **الأمانة (Fidélité)**: الأمانة هي أمانة للحدث التأسيسي (Evénement fondateur): موت/ قيامة المسيح، وأمانة لشخص المسيح: ألوهيته وإنسانيته. فالإيمان ثابت لا يتغيّر، لأن المسيح «كائن وكان ويأتي»، هو هو. وأمّا الذي يضمن الأمانة في الإيمان فهو الروح

coptic-books.blogspot.com

القدس، فإنّه يضمن أن يكون إيمان اليوم كإيمان الأمس وكإيمان الغد.

٣. **التجديد (Renouvellement)**: لا تفتأ الكنيسة تؤقلم وتعصرن: تفسّر وتترجم لأبناء اليوم «وديعة الإيمان» هذه (Dépôt de la foi) بلغة العصر وعقليته، بحضارة العصر وفلسفته، بحسب تساؤلات العصر ومتطلباته. فالإيمان لا يتغيّر، وأمّا التعبير عنه (في العقائد مثلاً، أو الطقوس، أو الأخلاقيات...) فقابل للتغيير. ونجد ذلك في معاملة يسوع نفسه، فإنه خاطب نيقودمس العلاّمة المثقّف بأسلوب يختلف عن أسلوبه في معاملة السامرية الجاهلة، وإن كان مضمون حديثه واحدًا: الروح القدس.

هذا هو الأسلوب الذي استخدمه المجمع الفاتيكاني الثاني، فلقد حافظ على «وديعة الإيمان» التي تسلّمها من الآباء، وعبّر عنها بطريقة تناسب حاجات القرن العشرين.

فلا يزال يسوع المسيح يطرح على كنيسته أسئلة من خلال تساؤلات العصر ومتطلباته وعلى الكنيسة أن تردّ عليها انطلاقًا من الوحي وبأسلوب عصري. وهو الروح القدس الذي يضمن صحّة تعبير اليوم وتطابقه مع مضمون الوحي. فكما أن الروح القدس ضمن مطابقة شهادة الرسل الشفهيّة والكتابيّة لحدث موت وقيامة المسيح ولهويته، فهو يضمن كذلك شهادة كنيسة اليوم عندما تحاول أن تعبِّر عن الإيمان الثابت غير المتغيّر تعبيرًا مناسبًا لحاجات العصر.

فبهذا المعنى، لم ينتهِ الوحي، بل سينتهي في نهاية الأزمنة، حيث لن يكون وجه للوحي، للكتاب المقدس.

coptic-books.blogspot.com

الجزء الثاني

النظرة التاريخية في التقليد الكنسي

بعد أن فهمنا ما هو التقليد الكنسي وما هو دور العقيدة في التراث الكنسي، بوسعنا أن ننظر نظرة تاريخية إلى مضمون العقيدة المسيحيّة، إلى محتوى الإيمان العقائدي، فيما يختصّ بشخص يسوع المسيح.

وتتم هذه النظرة التاريخية في التقليد الكنسي على ثلاث مراحل، نتوقّف عند الأولى والثانية في هذا الجزء وعند الثالثة في الجزء الثالث:

١ . **المرحلة الأولى**: تتضمن الإيمان العقائدي في كتابات آباء الكنيسة، بمعزل عن المجامع المسكونية.

٢ . **المرحلة الثانية**: تتضمن بعض المجامع المسكونية ولا سيّما نيقيا وأفسس وخلقيدونيا والقسطنطينية ٢ و٣، ومجامع العصور الوسطى والمجمع الفاتيكاني الثاني.

٣ . **المرحلة الثالثة**: تتضمن بعض تساؤلات القرن العشرين عن لاهوت/ ناسوت يسوع المسيح في ضوء تقليد الكنيسة.

coptic-books.blogspot.com

إيمان عقائدي بمعزل عن المجامع المسكونية

ساد القرون الأولى اضطهاد شديد حتى إن المؤرخين حفظوا عدد هذه الاضطهادات وهي عشرة. بدأ بها نيرون سنة ٦٤ م وختمها ديوقليتيانس نحو سنة ٢٨٤ م. في هذه الفترة لم يلتئم أي مجمع مسكوني يضم جميع الكنائس، بل عُقدت مجامع محلية. ومنذ أن أعطى الحاكم قسطنطين، الملك الحكيم، حرية للمسيحيّين ليقيموا طقوسهم وشعائرهم الدينيّة كما يريدون، وذلك بقرار ميلانو في سنة ٣١٢ م، دعا هو نفسه لعقد ثاني مجمع في الكنيسة سنة ٣٢٥، وهو مجمع نيقيا الذي أدان آريوس.

وأما المجامع المحلية، فكانت تبحث في مسائل يثيرها اليهود والوثنيون، عن الإله المتجسّد أو ابن الله.

وقد تولّى الإجابة عن هذه الأسئلة آباء الكنيسة في كتاباتهم. ومن خلالها يمكننا أن نستشف ثلاثة محاور في الإيمان العقائدي بمعزل عن المجامع المسكونية، نتوقف عندها بالتتالي:

١. **يسوع المسيح حقيقة الكتب** (الفصل الثاني): كلما

coptic-books.blogspot.com

اقـترب عصر الآبـاء من حـدث يسـوع النـاصري، وكلما واجهـوا تساؤلات، لا بل انتقادات اليهود، بيّنوا في كتاباتهم أنّ يسوع الناصريّ هذا قد تمّم الكتب وحقّق العهد.

٢ . حقيقة إنسانية يسوع (الفصل الثالث): وكلما بعـد عصر الآباء عن حدث يسوع الناصريّ، ظهرت تساؤلات عن إنسانية يسوع المسيح، فأكّد الآباء في كتاباتهم أنه إنسـان حق (كما أنّـه إله حق).

٣ . حقيقة الحبل بيسوع من عذراء (الفصل الرابع): بعد التأكيد على ناسوت يسـوع الناصري، ظهـرت تساؤلات أخـرى حول لاهوته، وقد تركزّت حول حقيقة الحبل بيسوع من عذراء.

coptic-books.blogspot.com

الجزء الثاني

الفصل الثاني

يسوع المسيح حقيقة الكتب

من ضمن اهتمامات القرنين الأولين إظهار يسوع المسيح كمتمّم للكتب، للعهد القديم. وسنتناول هذا الموضوع في هذه الحقبة من تاريخ الكنيسة:

في أسفار العهد الجديد

ان عبارة «بحسب الكتب»، الواردة في مثل ١ قور ١٥/٣ ـ ٤، تُظهر يسوع المسيح متمِّمًا للكتب ومحقِّقًا إيّاها ومكمِّلاً العهد القديم.

ويقول بولس إن على أعين اليهود حجابًا يمنعهم من اكتشاف يسوع المسيح من خلال الكتب: راجع مثلاً ٢ قور ٣/١٤ ـ ١٦.

ويقرأ بولس العهد القديم ليجد فيه صورًا وإشارات للمسيح، فهو الصخرة التي كان اليهود يشربون منها في البرّية (١ قور ١٠/٤)، وهو آدم الجديد (روم ٥ و١ قور ١٥/٤٥ + ١).

ويشير يسوع إلى أنّه محور الكتب (راجع مثلاً لو

coptic-books.blogspot.com

٤/٢١/٢٤/٢٧ ـ ٤٥ ويو ٥/٣٩ ـ ٤٦ و٨/٥٦...).

فبهذا المعنى يمكن القول بأنّ العهد القديم هو الوعد، وأن العهد الجديد هو تحقيق هذا الوعد، ولكنه تحقيق يفوق كل توقّعات العهد القديم وتصوّراته وانتظاراته. أو، بعبارة أخرى، بأن العهد الجديد هو مفتاح العهد القديم.

وهذا ما تعمّق فيه آباء الكنيسة.

الآباء الرسوليون (Pères Apostoliques)

على مثال اقليمندس الروماني (+ ٩٧) واغناطيوس الأنطاكي (+ ١٠٧)، وقد اعتمدا على ما جاء في أسفار العهد الجديد، فلم يجادلا في هذه الحقيقة لاقتناعهما بها، بل أبـرزا للمسيحيّين أنفسهم أنّ تحقيق الكتب تمّ في شخص يسوع المسيح.

الآباء المدافعون (Pères Apologètes)

أمثال يوستينوس (+ ١٦٠) وايريناوس (+ ١٨٥)، وقد دافعـا عن المسيحية (من هنا التسمية: «المدافعون») ردًّا على اليهود والوثنيّين.

١. **يوستينوس**: لـه حوار مشهـور مع اليهـودي تريفـون (Tryphon)، يُظهر له أنّ يسوع هو المسيّا المنتظَر، وأنه ابن الله. وفي حين أن تريفون يتكلم على عثار الصليب لليهود (راجع ١ قور ١ - ٢)، يردّ عليه يوستينوس أن آلام المسيـح أنبئ بها في المـزامير وفي أناشيد عبد يهوه. (أش ٤٩ ـ ٥٣). وأما المجيء الثاني ليسوع المسيح فيستند كتابيًا إلى المزامير وسفر دانيال (النبوءات عن «ابن الإنسان»).

٢. **إيريناوس (أسقف مدينة ليون)**: جادل الغنوسيّين

coptic-books.blogspot.com

كثيرًا (من Gnosis اليونانية، أي «المعرفة»)، ومنهم مارقيون (Marcion) والفالنتينيّون (Valentiniens)، الذين كانوا يدّعون أن الإنسان ينال الخلاص بـ«المعرفة». وأما إيريناس، فقد أظهر أن الخلاص هبة من الله أوّلاً، ثم إنّ على الإنسان أن يتقبّله، لا بعقله ومعرفته فحسب، بل بإرادته وحريته أيضًا.

ومن جهة أخرى، يُبرز إيريناس التناسق القائم بين العهدين، فالجديد يكمّل القديم ويُظهر أن الله هو أبو يسوع المسيح، والخلاص هو نفسه في العهدين: فإعلان الرسل وكلام يسوع نفسه مطابقان لشهادة أنبياء العهد القديم، والمسيح هو «الكنز المخفيّ في حقل الكتب»، في حين أن الأعداء كانوا يرفضون العهد القديم (الله مخفيّ فيه).

وتعمّق إيريناوس في نظرية «الجمع - الدمج» Récapitulation (أف ١/ ١٠). فيسوع المسيح قد «جمع - دمج» (Récapituler) في شخصه الممجَّد تاريخ البشرية الطويل، فلخّص في شخصه المجيد جميع البشر، ومسيرته مسيرة البشرية كلها.

عصر الآباء الذهبي (L'âge d'or des Pères)

ترتليانس (١٥٥ - ٢٢٠) - أوريجانوس (١٨٥ - ٢٥٣) أثَّرا في قراءة القرون الوسطى للكتاب المقدس) - كيرلس الأورشليمي (٣١٥ - ٣٨٦) - أوغسطينس (٣٥٤ - ٤٣٠)... وكثير غيرهم قد أظهروا حقيقة تحقيق العهد الجديد للعهد القديم، في شخص يسوع المسيح.

معنى «يسوع المسيح حقيقة الكتب»

الحق يقال إنّ ذلك لا يهم عصرنا كثيرًا، بل له أهميته في الحوار

coptic-books.blogspot.com

مع اليهود، يهود الماضي، وربما يهود الحاضر (للغرب) ويهود المستقبل (للشرق العربي). ثم إنّ تفسير الآباء لا يتمّ دائماً بـالروح العلميـة والنقدية التي يتميّز بها القرن العشرون. وأخيرًا فإن **الهاوية الثقافية** القائمة بيننا وبين العهد القديم لا تجعلنا نميل تلقائياً إلى دراسة مثل أقوال الآباء في هذا الصدد.

غير أننا نكتشف اليوم مرَّة أخرى أهمية العهد القديم في تاريخ الخلاص، فإن أولى خطوات الخلاص هي في العهد القديم، ويسوع المسيح قد خلّصنا من منطلق العهد القديم، وإن تعدّاه وأكمله. إن الخلاص هو مسيرة الله مع البشر، بدأت في شعب إسرائيل وتكلَّلت في المسيح، فالخلاص خلاص في شعب هو إسرائيل ثم الكنيسـة. بهذا المعنى، يمكننا أن نجد بعض أقوال مفيدة للآباء.

coptic-books.blogspot.com

حقيقة إنسانية يسوع المسيح

إن أوّل شك ظهر في المسيحيّة في شأن شخص يسوع المسيح كان يختص بناسوته، بإنسانيته، إذ لم يقبل بعض المسيحيّين عثار التجسّد: «الكلمة صار بشرًا» (يو ١ /١٤ : Logos sarx egeneto)[١].

فقد ظهرت بدعة «المظهرية» (Docétisme بالفرنسية، والكلمة أصلها يوناني بمعنى «ظهر»)، التي ادّعت أن الله «تظاهر» بأنّه إنسان، بأنه ذو جسد، ذو لحم[٢]. فكأن «المظهريين» (Docètes) يفسّرون بأن الله قام بتمثيلية، مثّل أنه إنسان، أخذ مظهر الإنسان فقط، ولم يكن إنسانًا حقًا.

وإذا تساءلنا عن سبب هذا الشك، رأينا أنه ردّ فعل طبيعيًا بالنسبة إلى الذين يعلنون سيادة المسيح وربوبيّته وألوهيته. فالعقل

(١) كلمة sarx اليونانية ترجمة للكلمة العبرية (basar) التي تعريبها هو «بشر» و«لحم»، لا «جسد» الذي هو تعريب للكلمة اليونانية (sôma).

(٢) العقلية اليهودية تميّز في الإنسان «اللحم»/ «الدم»، في حين أن اليونانية تميّز «الجسد» (sôma)/ «النفس» (psuchè)/ «الروح» (pneuma). وقد تأثّر اللاهوت المسيحي باليونانية، لا باليهودية، أي بنظرة فلسفية (يونانية) لا كتابية (يهودية).

coptic-books.blogspot.com

البشري لا يطيق أن تحلّ عظمة الله في إنسان: كيف يمكن أن يكون المسيح ـ الكلمة قد اتّخذ لحمًا بشريًا؟ كيف يمكنه أن يولد من امرأة، وهو الكائن مع الآب منذ الأزل؟ كيف يمكن الله المتعالي المتسامي (Transendant) أن يصبح إنسانًا؟ فالله منزّه عن كل ذلك، وخاصةً عن الجسد الذي هو مرادف للشر[٣].

لذلك، كثرت الأناجيل المنحولة (Apocryphes) التي كانت تصوّر يسوع بصورة إله «يتنزّه على الأرض»، لا يحيا حياة بشرية حقيقية. فالكلمة في نظرهم لم يتّخذ لحمًا، بل هو مجرّد «ظهور الله» (Théophanie)، كما كان يظهر الله في العهد القديم في العناصر الطبيعية أو في الملاك... وخلاصة القول انّ سبب الشك الحقيقي هو الهاوية التي تفصل بين الله والإنسان. تصوَّرت البدعة الله بعيدًا كل البعد عن الإنسان، فاستحال له أن يصبح إنسانًا، أن يتّخذ لحمًا ودمًا.

وقد ظهرت هذه البدعة منذ أيام يوحنا الإنجيلي، إذ إنّه يقول في بعض الناس إنهم «لا يؤمنون بمجيء يسوع المسيح في اللحم» (٢ يو ٧ و١ يو ٢/٢٢ و٤/٢ - ٣).

وأما ردّ الإيمان على هذه البدعة، فيتمثّل في أقوال الآباء. فإغناطيوس الأنطاكي مثلاً، وقد عاش في بداية القرن الثاني وتأثّر كثيرًا بالعهد الجديد لأنه عاصر تكوينه، يقول: إن المسيح هو من نسل داود وُلد من مريم حقًا، أكل وشرب حقًا، وتألم حقًا، وصُلب حقًا، وقام حقًا... فهو يركّز على عناصر ناسوت المسيح ليؤكّد أنه إنسان. وهو يضيف أن كلمة «حقًا» مهمة. وهناك إيريناوس وترتليانس اللذان قاوما مارقيون (Marcion) مؤسس بدعة المظهرية، والفالنتينيّين (Valentiniens)، ثم، من بعدهم، أوريجانوس، وكانت الكنيسة قد اعترضت على بعض تعاليمه على أنّها هرطقة. أمّا اليوم فقد اعترف

(٣) هذه هي عقلية اليهود والإسلام أيضًا.

coptic-books.blogspot.com

بأنها صحيحة، بل وكانت سابقة لعصره.

ومن خلال الآباء، نصل إلى حقيقة مزدوجة:

أولاً: حقيقة الوضع البشري الواقعي ليسوع: بحسب بدعة الفالنتينيّين ومارقيون، يكمن العثار في التجسّد. بما أن الله متسامٍ، فلا يمكن القبول بأن يتجسَّد هذا الإله المتعالي ويصبح إنسانًا، ويمرّ بكلّ ما يمرّ به أيّ إنسان من مراحل حياته.

وكان عثار التجسّد عقبة أكبر من عثار الصليب، مع أن بولس الرسول يقول لنا عكس ذلك. أمَّا في التجسّد فيقول بولس: «عظيم هو سرّ التقوى. لقد أُظهر في الجسد» (١ طيم).

فنظرته إلى التجسّد هي تسبيح لله أكثر ممَّا هي عثار. وأمّا الصليب فإنه عثار لليهود وحماقة للوثنيّين (١ قور ١/١٨). و«الإفراغ» (Kénosis) عند بولس هو «الموت على الصليب»: (نشيد فيلبي ٢/٦ +). أما في نظر مارقيون والفالنتينيّين، وكذلك اليهود والمسلمين، فإن العثار الحقيقي يكمن في أنّ الله يتجسّد، لأن تعاليه يتنافى والوضع البشري.

ويعتمد ترتليانس على بولس في إظهار عثار الصليب:

«ما الذي هو أقلّ مناسبة لله، وعليهم أن يزدادوا خجلاً منه؟
أن يولد أم أن يموت؟
أن يتَّخذ اللحم أم الصليب؟
أن يُختن أم أن يُصلب؟
أن يُلقى في مزود أم في قبر؟»

وما يمكن قوله في الهرطقات هو انه، في البداية، لم يشك أحد في ناسوت يسوع المسيح، لأن معظمهم أو آباءهم وأجدادهم كانوا قد شاهدوا يسوع فدار الشك حول الألوهية. لذلك شدَّد الآباء على

coptic-books.blogspot.com

الألوهية، اعتمادًا على حقيقة الكتب. ثم ظهرت الهرطقة الثانية التي نحن بصددها واستهدفت ناسوت يسوع المسيح. ذلك بأن الألوهية أصبحت راسخة بعد الهرطقة الأولى، فتمحور الشك حول حقيقة الإنسانية: هذا الإله الحقيقي، كيف يكون إنسانًا حقيقيًا؟ ليس هو إنسانًا حقيقيًا، بل «ظهر» بمظهر إنسان، اتّخذ مظهر الإنسان. لذلك ردّ الآباء بأنه إله حقيقي (المرحلة الأولى) وإنسان حقيقي (هذه المرحلة). وأما الخطوة الثالثة (القادمة)، فبناء على أنه إنسان حقيقي، فلقد ولد بطريقة طبيعية، ولم يولد من عذراء، لأن الولادة من عذراء تتنافى والإنسانية الطبيعية، وهذه هي الهرطقة الثالثة.

ثانيًا: حقيقة قيامة يسوع بالجسد: إن ردّ الآباء أظهر أيضًا حقيقة قيامة يسوع بالجسد، بجسده البشري، فهو، بالتالي، يُقيم أجسادنا نحن أيضًا.

فبما أن يسوع اتّخذ جسدنا البشري، فهذا يدل على أنه خلّص، لا أرواحنا ونفوسنا فقط، بل أجسادنا أيضًا، على مثاله. فالخلاص يشمل جميع أبعاد الإنسان، بما فيها الجسد وحتى الحياة الجنسية. فتضامن يسوع مع بشريتنا تضامن في كل أبعادها، وهذا ما يسمّيه بولس: «الجسد الروحاني»، أي الجسد الذي يقوم. إنه الجسد الأرضي نفسه، ولكنه جسد مختلف. ويشرح بولس هذا في قور ١٥ [٤].

غير أن هناك فرقًا بين بولس والآباء. ففي حين أن بولس ينسب هذا الخلاص الشامل إلى «قيامة» المسيح، يشدّد الآباء على «تجسّد» الكلمة: فالتجسّد هو الذي جعل المسيح يقدّس أجسادنا، ويقدّس طبيعتنا، ويعيد إلينا الصورة الإلهية التي شوّهتها الخطيئة.

فقد كان الآباء متأثرين بالفلسفة الأفلاطونية والأفلوطينية القائلة

(٤) راجع المحاضرات بالسكاكيني: «مدخل إلى رسائل بولس» ١٩٨٢ - ١٩٨٣. صدر في سلسلة «دراسات في الكتاب المقدس» رقم ١٧، دار المشرق، بيروت.

coptic-books.blogspot.com

بأن الخلاص يأتي بالمعرفة (Gnosis)، فأكّدوا، بخلاف ذلك، على دور التجسّد وعمله الخلاصي في خلاص الإنسان كله. فالتجسّد يجدّد الطبيعة البشرية والجسد البشري، لا بل إنه ألّه الإنسان. فهناك قول الآباء المأثور: «أصبح الله إنسانًا ليصبح الإنسان الله»، أو «أصبح الله حاملاً للجسد (Sarcophoros) لنصبح نحن حاملين للروح» (Pneumatophoros). ويقول العلاّمة ترتليانس إن تناول المسيح ودمه إنما يقدّس أجسادنا، ذلك بأن بشريّتنا أصبحت لله الآبَ «أختًا لمسيحه» (La sœur de son Christ)، فإن «الله يحب الجسد الذي هو قريبه» (son prochain).

التعليم من الهرطقات

١ . إن الهرطقات تقوّي وتعضد الإيمان، فهي تساعد المؤمن على فهم إيمانه بدقة وعمق ونظرة جديدة، وعلى الدخول في عمق السرّ الإلهي، واكتشاف أبعاد جديدة له. لذلك يحسن بنا ألا ننظر إليها وإلى الإلحاد والمادية واللاأخلاقية نظرة سلبية فقط، بل أن ننظر إليها نظرة إيجابية أيضًا لأنها فرصة تنتهزها الكنيسة لتؤكّد إيمانها بوضوح ونظرة مجدّدة.

٢ . إن تأكيد الآباء على التجسّد وعلى إنسانية يسوع المسيح يتجانس مع اهتمامنا اليوم بناسوت المسيح وتشديدنا على حياته الأرضية.

ولكن هناك فرقًا شاسعًا بيننا وبينهم. فعندما يؤكّدون على معنى التجسّد، فإنهم يُظهرون عظمة المبادرة الإلهية وقدسية هذا الحدث: «عظيم هو سرّ التقوى»، كما يهتف بولس. وهم يؤكّدون على نتيجة التجسّد أيضًا، أي على تقديس الإنسان وتأليهه. فنظرتهم إلى التجسّد مزدوجة: المصدر (المبادرة الإلهية) والثمرة (التقديس والتأليه). وأمّا

coptic-books.blogspot.com

نظرة الكثلكة المعاصرة، فإنها تشدّد على الإنسان - لا على الطبيعة البشرية - الذي أصبح إلهًا وتقدّس وعظم شأنه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب على المسيحي أن «يتجسّد» في عالمه واهتمامات عصره والتزامات حياته كما تجسّد الله الكلمة. وهذه النظرة الكاثوليكية صائبة، إلاّ أن فصلها عن مصدرها (المبادرة الإلهية) قد يؤدّي بها إلى تأليه الإنسان على حساب الله، في حين أن الإنسان أصبح إلهًا لأن الله ألّهه. ومن جهة أخرى، فالتشديد الأرثوذكسي على المصدر من ناحية، وعلى الثمرة في الطبيعة البشرية من ناحية أخرى (كما الأمر هو عند الآباء) وتناسيه بُعد التجسّد في المجتمع والحياة اليوميّة قد يؤدّيان إلى فقد الصلة بين الإيمان والحياة. لذلك على الكاثوليك والأرثوذكس أن يتكاملا في لاهوتها المعاصر، بالعودة إلى مصدر التأليه (الله) وواقعه (تجسّد الإنسان في المجتمع) ونتيجته (تأليه البشرية والمجتمع والعالم).

coptic-books.blogspot.com

حقيقة الحبل بيسوع من عذراء

أكّد الآباء على لاهوت يسوع (المرحلة الأولى)، ثم على ناسوته (المرحلة الثانية). والآن، بما أنه اتّضح للجميع أنه إنسان حقًا، ظهر تساؤل جديد: إن كان إنسانًا حقيقيًا، فكيف يكون قد حبلت به امرأة عذراء؟ لذلك أكّد أصحاب هذه البدعة: ولد يسوع بطريقة طبيعية من رجل وامرأة.

ومن الرافضين حقيقة الحبل من امرأة عذراء، اليهود اليونانيون. وأمّا اليونانيون، فعندهم أساطير عديدة تروي اقتران الآلهة بإلٰهات أو بنساء، وإنجابهم كائنات إلهية بشرية. لذلك رأى اليونانيون أن الحبل بيسوع من امرأة مجرّد أسطورة من تلك الأساطير، لذلك رفضوه واعتبروه خرافة[1]. ومن بين هؤلاء سلس (Celse) الذي ادّعى أن

(١) على خلاف الأساطير اليونانية، ليست قصة الحبل بيسوع من عذراء عبارة عن زواج إلٰه بامرأة، ولكن الروح القدس «ظلّل» مريم فحبلت بيسوع. ومن الجدير بالذكر أن الحبل من عذراء، ودون تدخّل رجل أو إله، غير وارد البتّة في أية آداب إنسانية ولا أية حضارة بشرية. لذلك ليس الحبل بيسوع من امرأة أسطورة أو خرافة، بل هو حدث فريد من نوعه بوجه مطلق ووحيد في تاريخ البشرية.

coptic-books.blogspot.com

مريم قد زُفَّت ووضعت يسوع بالخفية، ثم ذهبت إلى مصر حيث تعلّم يسوع السحر.

وفي بعض البيئات المسيحية، رفض بعض المسيحيّين فكرة الحبل من عذراء، معتبرين أن مريم قد تزوّجت من يوسف فأنجبا يسوع. منهم سيرنتس (Cérinthe) والابيونية (Ebionites)، وهي بدعة تميل إلى اليهودية.

وكل هذه النظريات، التي تشك في الحبل بيسوع من عذراء، إنما سببها هو تطرّف الأناجيل المنحولة في تبجيل الحبل من عذراء. فنشأت هذه البدع وتطرّفت بدورها في رفض الحبل من عذراء.

وأتى ردّ الآباء (أغناطيوس الأنطاكي - يوستينس - إيريناوس - ترتليانس - أوريجانس) واضحًا، متحاشيًا التطرفَيْن السابقَيْن. فلم يعتبروا الحبل من عذراء رمزًا، بل أخذوه بجدّية بالغة. وكذلك قوانين الإيمان الغربية («قانون الرسل» مثلاً) والشرقية («قانون الإيمان» النيقي القسطنطيني مثلاً، الذي نتداوله حتى الآن). وبما أن الاعتقاد بحقيقة الحبل بيسوع من عذراء سابق لأي مجمع، فإنه يُظهر قوة رسوخه.

المعاني الثلاثة للحبل من عذراء

١ . **أصل يسوع إلهي/ إنساني**: إن الحبل من عذراء دون تدخّل رجل يدلّنا على أن يسوع مزدوج الأصل، فأبوه هو الله الآب (الأصل الإلهي) وأمه هي مريم العذراء (الأصل البشري). فبذرة يسوع المسيح بذرة إلٰهية لا بشرية، تكوَّنت في أحشاء مريم العذراء التي حبلت، لا من رجل، بل من الروح القدس. لذلك نقول إن الحبل من عذراء إشارة، علامة، آية للألوهية (مع البشرية).

٢ . **الخليقة الجديدة**: الحبل من عذراء يعني لنا رغبة الله في

coptic-books.blogspot.com

أن يكوّن خلقًا جديدًا، بداية جديدة للبشرية، مبنية على الخليقة القديمة. فكون يسوع وُلد من امرأة بشرية، يربطه بالخلق الأول (آدم الأول)، وكونه حُبل به من الروح القدس يربطه بالخلق الجديد الذي يريده الله للبشرية. ويمكننا فهم قول يسوع: «ما وُلد للجسد جسد، وما ولد للروح روح» (يو ٣/٥). على هذا المنوال: إن الحبل بيسوع من الروح، أي من الله، يدلي بالخلق الجديد وبالحياة الجديدة، وولادته من امرأة يدلي بالخلق الأول. وأما ما قاله يوحنا في المؤمنين بيسوع: «إنهم لا من ذي دم، ولا من رغبة ذي لحم، ولا من رغبة رجل، بل من الله وُلدوا»، وهم صاروا «أبناء الله» (يو ١/١٢ - ١٣)، فإنه ينطبق على يسوع المسيح نفسه أولاً، ثم على الذين يشتركون معه في الحياة الجديدة.

لقد كان ممكنًا لله أن يجعل ابنه يولد من رجل وامرأة بطريقة عادية، دون أن يمسّ ذلك ألوهيّته، ولكن، في هذه الحالة، يكون يسوع من خلق قديم، من الخليقة الأولى، كسائر البشر. وكان ممكنًا لله أن يجعل ابنه يولد، لا من رجل ولا من امرأة، ولكن، في هذه الحالة، لا يعود يسوع واحدًا منّا. لذلك ظهرت عظمة الله وابتكاره في أنه دمج الجديد/ القديم، الجديد في تدخّل الروح القدس دون رجل، والقديم في ولادة يسوع من امرأة عذراء. ويقول يوحنا الكلام عينه في مقدمة إنجيله: «. . . أولئك الذين، لا من لحم ولا من مشيئة رجل، بل من الله وُلدوا».

٣. **صورة مسبقة للعماد**: إن العماد هو خلق جديد، حياة جديدة، ولادة جديدة. ففي حديثه مع نيقوديمس، يتكلم يسوع عن «الولادة من فوق» أو «من جديد»، فالكلمة اليونانية (Anothen) تعني، في الوقت نفسه، «من فوق» و«من جديد». فالعماد هو حياة من فوق، من الله، من الروح، كما انّه حياة جديدة، خلق جديد، مختلف عن الخلق الأوّل.

coptic-books.blogspot.com

فكون يسوع وُلِد من الروح ومن عذراء يدلّنا على أن الإنسان مدعوّ بالعماد إلى أن ينال الحياة الجديدة، حياة الروح. فنحن قد وُلدنا ولادة طبيعية (الخلق الأوّل)، لكننا مدعوّون إلى الولادة من فوق، من جديد، وهذه الولادة تتم بالعماد[٢].

الحبل من عذراء في لاهوت اليوم

لم يعد المسيحيون يشكّون في الحبل بيسوع من عذراء حتى القرن ١٩ في كنائس الإصلاح، والقرن ٢٠ في بعض فئات كاثوليكية. وهناك أربعة أسباب جعلتهم يشكّون في هذا المعتقد:

١ . الشك من الناحية «التفسيرية» (Exégétique) : قال المفسّرون إن الحبل من عذراء ورد في متى ولوقا فقط، ولم يرد في مرقس ويوحنا، في حين أن القيامة وردت في الأناجيل الأربعة، كما أنه لم يرد في إعلان البشارة الأول ولا في الرسائل. لا بل متى ولوقا نفسهما لم يذكرا الحبل بيسوع من عذراء إلاّ في أناجيل الطفولة، وهي، بحسب تعبير بياني، أدب «عجائبي» (littérature merveilleuse). هذا وقد عدّ المفسّرون أناجيل الطفولة رمزًا، لا حقيقة (ظهور الملائكة، زيارة المجوس...). وأضافوا أن كل شخصية عظيمة لها ماضٍ عجيب، كموسى ويوحنا المعمدان. وهذا فن أدبي ورد في كل الآداب. فيسوع له ماضٍ عظيم وشيء يميّزه عن سائر الأشخاص: إنه وُلد من عذراء، ولكن حقيقة الأمر أن يسوع وُلد بطريقة طبيعية من يوسف ومريم، وكل ما سوى ذلك فهو أساطير.

(٢) يؤمن المسلمون بالحبل من عذراء، ولكن إيمانهم هذا شكلي، أي أن مريم لم يمسّها رجل، بل حافظت على طهارتها. وأمّا المسيحيون، فإيمانهم بالحبل من عذراء له دلالة ومضمون آخر مختلف، وهو ما بيّناه بمعانيه الثلاثة.

coptic-books.blogspot.com

الرد على الاعتراض: صحيح أن متى ولوقا استخدما فنًّا أدبيًا خاصًّا ليُظهرا فيه الوجه «العجائبي». لكنهما، بالرغم من اختلاف الواحد عن الآخر، يعبّران عن أمر واحد، وهو ميلاد يسوع من عذراء: فما في أحشائها هو من الروح القدس. هذا هو وجه الشبه الوحيد بين رواية الطفولة في متى وروايتها في لوقا، وما عدا ذلك، يبدو الأسلوبان مختلفيْن: ينظر متى إلى الماضي ويريد أن يربط العلاقة بداود، وينظر لوقا إلى المستقبل ليقول إن الروح القدس هو أصل المسيح الذي سيجلس على عرش داود. وهناك اختلافات أخرى بسيطة: فالواحد يقول إن الرعاة هم الذين زاروه والآخر إنهم المجوس.

ومن ناحية أخرى، يبدو لنا كلام لوقا ومتى على الحبل بيسوع وميلاده كلامًا رزينًا، بسيطًا، متواضعًا، خلافًا لما ورد في أساطير تلك العصور في الأناجيل المنحولة. وهذا ما يؤكّد صحة حدث الحبل من عذراء. إن تدخّل الله هنا طبيعي وعادي وخالٍ من التطرّف ولا سيّما في كيفية تصرّف الله مع يوسف أو مع مريم.

٢. الشك من الناحية «اللاهوتية» (Théologique):

آ) لا نجد مجمعًا مسكونيًا أو إقليميًا حدّد الحبل من عذراء كعقيدة.

الردّ على هذا الاعتراض: ليست العقيدة أهم شيء، فهناك إشارة إلى الحبل من عذراء أوّلاً في جميع قوانين الإيمان شرقًا وغربًا. فلقد ورد فيها أن مريم حبلت من الروح القدس وهي عذراء، وهذا أقوى من العقيدة. ثم إنّه في الليتورجيات والطقوس والصلوات المختلفة شرقًا وغربًا، منذ نشأة المسيحية، نشهد عبارات بأن يسوع حُبل به من عذراء.

والآباء الرسوليون وخلفاؤهم لم يشكّوا في الحبل بيسوع من عذراء. فكل ذلك أقوى من العقيدة، ولا يستدعي الموضوع عقد

coptic-books.blogspot.com

مجمع أو تحديد عقيدة، لأن وظيفة العقيدة هي الردّ على هرطقة.

ب) الحبل من عذراء ينافي حقيقة ناسوت يسوع:

الردّ على هذا الاعتراض: هذا لا ينافي ناسوت يسوع، لأن الحبل بيسوع من عذراء هو خلق جديد في خلق قديم، كما رأينا. إنه تدخّل الله في «الإنسان» الذي سبق أن خلقه. فلو وُلد يسوع بدون أب وأم لصحّ هذا الاعتراض. لكن ناسوته قائم في كونه وُلد من امرأة. ثم إنّ يسوع ليس مبتور الإنسانية، لأنه «لما تمَّ ملء الزمان، أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة تحت الشريعة ليفتدي الذين تحت الشريعة» (غل ٤/٤). وهذا ما قصده متى ولوقا عندما رويا نسب يسوع (متى ١/١ + ولو ٣/٣٣ +).

إن يسوع هو إذًا إنسان تامّ وعادي كأيّ إنسان خاضع للشريعة، وهو ابن وطن، ابن بلد، ولم يهبط من الفضاء.

٣. الشك من الناحية «الثقافية» (Culturel): الحبل من عذراء ينافي الروح العلمية، كما نقول في آدم وحواء إنهما شخصيتان رمزيتان. فإذا قلنا إن يسوع وُلد من عذراء، نقول ما ينافي الروح العلمية، كما الأمر هو حين نقول إن آدم وحواء ليسا شخصيْن تاريخيَين.

الردّ على هذا الاعتراض: صحيح أن هذا شيء غير علمي، لكنه أبعد وأعمق من العلم. نحن داخل الإيمان: حين نتكلم عن خلق الله للعالم، ندلي بحديث إيماني، لا علميّ. وكما أن الخلق، مع أنه خارج نطاق العلم، لا ينافي هذا العلم، فكذلك الحبل من عذراء، إنه لغة خارجة عن نطاق العلم فلا تناقضه ولا تنافيه.

٤. الشك من الناحية «الأنتروبولوجية» (Anthropologique): يعترض بعض اللاهوتيّين بقولهم إن الإيمان لا

coptic-books.blogspot.com

يختص بالناحية البيولوجية، بالمستوى الطبيعي. فلماذا الحديث عن هذا المستوى والإيمان به؟ بل إنّ عذراوية مريم يُعتبر احتقارًا للممارسة الجنسية لتبجيل التبتّل.

الردّ على هذا الاعتراض: ليست الناحية البيولوجية خارجة عن وضعنا البشري، وبالتالي عن خلاصنا وإيماننا. وإن كانت الممارسة الجنسية تفترض الناحية البيولوجية، إلاّ أنها تتعداها لتبلغ المستوى الإنساني في العلاقة بين الرجل والمرأة: التكامل، الوحدة، الحب...

ثم إن الفلسفة المعاصرة لا تقول: «لديَّ جسد» (J'ai un corps)، بل «إني جسدي» (Je suis mon corps)، للدلالة على أن الجسد جزء لا يتجزأ من الشخص، وبالتالي، فالإيمان والخلاص يختصّان بكل الأبعاد الإنسانية ومنها البُعد الجسدي والجنسي... فالإيمان بالحبل بيسوع من عذراء له مكانة في الإيمان المسيحيّ، لأنه يختص بجانب من جوانب الإنسان، وهو مستواه البيولوجي.

غير أن هذا الإيمان يبيّن عظمة التبتّل. فيسوع ومريم قد تبتّلا، في حين أن التبتّل لم يكن قبلهما إلاّ ظاهرة هامشية (رهبان قمران). فيسوع هو الذي أضفى على التبتّل معنى فهمه بولس عندما دعا المسيحيّين إليه (١ قور ٧).

الحبل من العذراء والإيمان بألوهية المسيح

هل عمود إيماننا بألوهية المسيح هو الحبل من العذراء؟ هل هو برهان لها؟ هل عدم الحبل بيسوع من عذراء ينافيها؟

ورد الردّ على هذه الأسئلة في كتب العهد الجديد التي تجمع كلها إجماعًا كاملاً على أن صمود الإيمان المسيحي بألوهية يسوع المسيح هو القيامة. كيف ذلك؟

coptic-books.blogspot.com

لقد صلب يسوع لأنه كان ينادي بأنه ابن الله، وقد اعتبر رؤساء الكهنة أنه يجدّف على الله لادّعائه البنوّة الإلهية. فمات يسوع بسبب ادّعائه هذا. وإذا قام من بين الأموات، فلأنه ابن الله، وإلاَّ لَمَا قام. وهذا ما قاله الله الآب في العماد وفي التجلّي. فلقد صدّق على ادّعاء يسوع بأنه ابنه، فأقامه عندما قتله الذين رفضوا هذا الادّعاء. فلولا القيامة، لَمَا آمنّا بلاهوت المسيح. بوسع أي شخص كان أن يدَّعي أنه الله. ولكن الفرق بينه وبين يسوع أن الله صدّق على كلام يسوع فأقامه في الوقت الذي مات بسبب ادّعائه هذا.

هكذا نرى أن عمود إيماننا هو القيامة. ولكن ما هو دور الحبل من عذراء؟ ليس الحبل من عذراء ضرورة حتمية للبنوّة الإلهية، فكان بوسع الله الآب أن يولد ابنه ولادة طبيعية من رجل وامرأة. فلا تكمن ألوهية يسوع في أنّه حُبِل به بدون أب. ولكن الله الآب أراد أن يكون غياب الأب البشري علامة وآية وإشارة (signe) إلى أن الأب الحقيقي هو الله الآب نفسه. فالحبل من عذراء ليس ببرهان للألوهية، بقدر ما هو إشارة إليها[٣]. إنه يضع على طريق الإيمان بالألوهية، ولكنه ليس برهانًا لها. إنه يساعد على الإيمان بالألوهية، ولكنه ليس إثباتًا لها.

إن «الحبل من عذراء» يشبه «القبر الفارغ». فليس القبر الفارغ برهانًا على قيامة يسوع من بين الأموات، بل ظهورات يسوع المسيح القائم لتلاميذه هي التي تُثبت أنه حيّ[٤]. ولكن القبر الفارغ إشارة إلى أنّ يسوع المسيح لم يعد سجين القبر، أي مائتًا. فالقبر الفارغ آية، إشارة، علامة عن القيامة، لا إثبات لها.

---

(٣) هو «آية» (signe) لا «برهان» (preuve). فالبرهان على ألوهية يسوع المسيح في القيامة، لا في الحبل من عذراء، الذي هو بمثابة «آية» فقط. سيتضح لنا ذلك فيما بعد. كذلك ليست المعجزت برهانًا على ألوهية يسوع (فالأنبياء والرسل قاموا بمعجزات)، بل هي «آيات» و«إشارات» و«علامات» فقط.

(٤) راجع محاضراتنا: «موت وقيامة يسوع المسيح» ـ السكاكيني ١٩٨٠ ـ ١٩٨١.

coptic-books.blogspot.com

هكذا نرى، في بدء حياة يسوع الأرضية، آية وهي الحبل به من عذراء، وفي نهاية حياته آية أخرى وهي القبر الفارغ. وكلتا الآيتان تشيران إلى أنه ابن الله. إن كلتا الآيتين تساعدان على الإيمان بألوهية يسوع المسيح، ولكنهما لا تُثبتان إيّاها. إن كلتا الآيتين تستندان أساسًا إلى حدث قيامة يسوع المسيح، ولا معنى لهما إلاّ في داخل الإيمان بالقيامة. فللإيمان بالقيامة أسبقية على الإيمان بالحبل من عذراء أو بالقبر الفارغ، لا العكس.

coptic-books.blogspot.com

إيمان عقائدي في أهم المجامع المسكونية

كل ما سبق من إيمان عقائدي بمعزل عن المجامع المسكونية هو إيمان الآباء، وقد توصّلنا في هذه المرحلة إلى الإيمان الثابت بأن يسوع المسيح هو إنسان «حقًّا» وإله «حقًّا». أمّا الآن فإننا نتحدَّث عن المجامع التي حدّدت العقيدة المسيحية المختصة بشخص المسيح.

وما يجب قوله ان المرحلة الأولى تتعلّق بخلاصنا. إنها مرحلة «خلاصية»، أو، بتعبير يوناني، إنها تختص بـ«ايقونوميا» الخلاص (Eco-nomie du Salut). فلقد اتّضح لنا مثلاً أن يسوع المسيح هو حقيقة الكتب، تلك الكتب الموجّهة إلينا، وأنه متضامن مع البشر. . .

وأما المرحلة الحاضرة، فهي مرحلة «كيانية»، أو، بتعبير يوناني، تتعلّق بـ«كيان» المسيح (Ontologie) أو لاهوته. لذلك نسمّيها مرحلة «الثيولوجيا» (Théologie)، أي علاقة المسيح بالآب وبالروح القدس، فهي تخصّه في حدّ ذاته، لا في علاقته بنا فقط كالمرحلة الأولى.

والجدير بالذكر أن لغة المرحلة الأولى «الايقونوميّة» لغة كتابية، تستخدم، للتعبير عن المسيح، تعابير وألقابًا كتابية أساسًا. وأمّا لغة

coptic-books.blogspot.com

المرحلة الثانيـة «الثيولـوجية»، فتستخـدم تعابـير فلسفية تشرح وتفسّر التعـابير الكتـابية. وهـذا ما سنـراه بالتفصيـل في الفصول القـادمة.
وسنتناول خمسة مجامع تمحورت حول «ثيولوجيا» المسيح:

١ ـ مجمع نيقيا الذي أكّد على لاهوت المسيح.
٢ ـ مجمع أفسس الذي أظهر كيفية علاقة اللاهوت بالناسوت.
٣ ـ مجمع خلقيدونيا الذي تحدث عن الطبيعتين، اللاهوتية والناسوتية.
٤ ـ مجمع القسطنطينية الثاني الذي فسّر مجمع خلقيدونيا، مع التشديد على الناسوت.
٥ ـ مجمع القسطنطينية الثالث الذي تناول إرادة المسيح.

coptic-books.blogspot.com

مجمع نيقيا ٣٢٥

عُقد هذا المجمع لمقاومة عدة مذاهب مسيحانية (Christologique):

١. مذهب التبنّية ٢١٠ (Adoptianisme) يدّعي أن يسوع لم يكن إلٰهًا، بل تبنّاه الله فأصبح إلٰهًا.
٢. مذهب بولس الساموساطي ٢٦٠.
٣. مذهب أريوس: ٢٢٠ ـ ٣٢٥ الذي سنتناول عرضه ونقده.
٤. مذهب فوتيوس ٣٥٠.

إشكالية المجمع

إشكالية أريوس

يطرح أريوس سؤال بنوّة يسوع الإلٰهية على المستوى الثيولوجي، منطلقًا من ناسوته الذي لا يشكّ فيه، ليصل إلى مصدره: هل هو إله؟ حديثه تصاعدي إذًا، خلافًا لمجمع أفسس الذي استخدم حديثًا

coptic-books.blogspot.com

تنازليًا: الكلمة صار بشرًا.

لا يشكّ أريوس في ناسوت المسيح، بل في ألوهيته، متسائلاً: هل من المعقول أن يكون هذا الإنسان الذي تألم ومات إلهًا؟ ولكن هناك فرقًا بين أريوس ومن شكّ من قبله في لاهوت المسيح: فالاعتراف بألوهية المسيح يخالف، في نظره، توحيد الله، وهذا ما لا يقبله اليهود واليونانيون (والمسلمون أيضًا)، فلا يمكن اعتبار المسيح إلهًا، لشدّة إيمان أريوس بتسامي الله وتعاليه (Monarchie transcendante) وتوحيده، فلا يمكن لأيّ إنسان أن يكون الله، لأنّ الله واحد ومتعالٍ جدًا.

كان أريوس متأثرًا بالفلسفة الأفلاطونية والرواقية. ففي هذه الفلسفات، خلق الله العالم بحضور «كلمة خالق» (Logos créateur)، غير أن «الكلمة» هذا هو مِن خلق الله، فهو أقل من الله وأعظم من المخلوقات، هو «عميل» (Intermédiaire) للخلق، يتميّز بأنه بين الله والمخلوقات. وأما أريوس فقد فهم «الكلمة» بهذا المعنى الفلسفي، لا بالمعنى الكتابي الذي ذكره يوحنا (راجع يو ١/١ +) بأن «الكلمة» هو الله. فالمعنى الأريوسي «للكلمة» يستند أساسًا إلى الفلسفة، والفلسفة تنفي وجود إلهين يكونان غير مولودَيْن (الآب والكلمة)، لذلك اعتُبرت «الكلمة» مخلوقًا، أقل من الله درجة وكيانًا.

ومن جهة أخرى، كل ما طرأ على يسوع من تغييرات (الألم، الإهانات، المشاعر، الأحاسيس...) يتنافى والفكرة الفلسفية عن الله غير المتغيّر (Immuable) وغير المتأثر (Impassible). لذلك اعتبر أريوس أن يسوع المسيح الكلمة إنسان، «عميل»، تقدّس في العماد بالروح القدس، ولكنه ليس الله. وأما الكتاب المقدس، فإنه يقرّ بأنه «وسيط» (Médiateur) بين الله والبشر، أي إله حقًا وإنسان حقًا، لا «عميل» بينهما.

coptic-books.blogspot.com

رد الإيمان

١ . العلاقة بين لغة الكتاب ولغة الفلسفة: (الابن، الولادة، الله الكلمة، الخلق).

عندما يستخدم قانون الإيمان النيقي القسطنطيني التعبير «مولود غير مخلوق:

* يجب علينا أن نطهّر لفظة «مولود» من مدلولها البشري والمادي في علاقة الوالد/ المولود، وهي علاقة زمنية (أي أن لها بداية ولها نهاية) وخارجية (أي أن هناك شخصين متميّزين منفصلين) ومكانية (أي أن البعد الجسدي يفصل الواحد عن الآخر). وأما علاقة «الكلمة» بالآب، فهي غير زمنية (أي أنها منذ الأزل وإلى الأبد)، وغير خارجية (فهما واحد) وغير مكانية (فهما روح)، فضلاً عن أنْ لا علاقة زوجية بين رجل وامرأة في ولادة الابن من الآب.

* وهناك زوج آخر بوسعه أن يصحّح المفهوم البشري لكلمة «مولود»، وهي العلاقة العقل/ الفكر. فالفكر مرتبط بالعقل ولا ينفصل عنه، إذ هو والعقل واحد، مما يلغي الازدواجية والصفة الخارجية اللّتين وجدناهما في علاقة الأب الجسدي بابنه، فضلاً عن أن علاقة الفكر بالعقل ليست علاقة جسدية، بل هي روحية، فهي بالتالي أقرب من علاقة الله الآب بالابن الكلمة. غير أن هذا التشبيه هو ناقص، ولا يُدلى به تمامًا بالتعبير عن علاقة الله الآب بالابن، فالفكر يخضع للعقل الذي هو أعظم منه[1].

* نرى هكذا أن جميع التعابير والتشابيه البشرية ناقصة، إذ إنّ الله «سر» لا تستطيع محاولات العقل أن تحصره وتحدّده. لذلك يجب

(١) بهذا المعنى استخدم قانون الإيمان لفظة «مولود»، لا لفظة «مخلوق». فالمخلوق أقل من الخالق، في حين أن المولود ليس أقل من الوالد. وكذلك فإن لفظة «كلمة» الكتابية تختلف تمامًا عن «الكلمة» الفلسفية، كما رأينا.

coptic-books.blogspot.com

استخدام تعابير وتشابيه عديدة يصحّح بعضها بعضًا للدلالة على سر الله. وهذه النقطة مهمة جدًا في الحوار مع المسلمين الذين يفهمون الثالوث فهمًا خاطئًا، لأنهم لا يطهّرون التعابير البشرية من مدلولها البشري ولا يتنبّهون إلى أن هذه التعابير ناقصة في حد ذاتها، ولكنها ضرورية في الوقت نفسه.

* أمّا سر ولادة الله الآب للابن الكلمة، فهي ولادة روحية، أزلية، وحدوية (دون أن تزيل الوحدة بين الآب والابن التمييز بينهما) ومتساوية (ليس الواحد أعظم من الآخر). هذا وان العلاقة بينهما قد ظهرت للبشر على الصليب، حيث بذل الابن ذاته للآب حتى الموت («أبت، بين يديك أستودع روحي») والآب يعطي ذاته للابن في القيامة، إذ إنّه يمنحه حياته. لذلك يمكننا القول إنّ سر الفصح (موت وقيامة يسوع المسيح) يُظهر للبشر الولادة الأزلية وتبادل العطاء الأزلي بين الآب والابن. فما يحدث منذ الأزل وإلى الأبد داخل الثالوث، بين الآب والابن في الروح، قد ظهر في حياة يسوع المسيح على الأرض، ولا سيما في سر فصحه من موت وقيامة. فالفصح يُظهر لنا زمنيًا ما هو أزلي لدى الله، أو، بعبارة أخرى، أن «الايقونوميّا» (أي ما هو لخلاصنا) يعبّر عن «الثيولوجيّا» (أي ما هو لله). وهذا مبدأ لاهوتي وقاعدة أساسية في اللاهوت المسيحي.

٢. **نص مجمع نيقيا:** «نؤمن.... برب واحد يسوع المسيح ابن الله، المولود الوحيد (Monogenis) من الآب، أي من جوهر (Ousia) الآب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، هو والآب «من جوهر واحد» (Homoousios)[٢].

---

(٢) قال أريوس: *(Homoiousios)*، أي من «جوهر مماثل»، مشابه، لا من الجوهر نفسه وهذا مفهوم إذا تذكّرنا أنّ «الكلمة» في نظره أقلّ من الله.

coptic-books.blogspot.com

ولدينا على هذا النص التعليقات الآتية:

١. إن المنطلق هو لقب القائم («رب»)، ويشرح المجمع هذا اللقب بلغة يوحنا («المولود الوحيد»)، وهذا تعبير كتابي.

٢. ولكن هناك لفظة «أي» التي تشرح التعبير الكتابي بتعبير فلسفي: فالمولود الوحيد من الآب «يعني» أنه من «جوهر» الآب، فولادته ولادة حقيقية لا تمتّ إلى الخلق بصلة، هو والآب «من جوهر واحد». وهكذا دخلت اللغة الفلسفية اللاهوت المسيحي. وليست الفلسفة تكرارًا أو اجترارًا للكتاب المقدس، بل هي تعبير جديد، هي تعمّق في الإيمان نفسه، هي فرصة للإيمان ليفهم بلغة عصره عمق السر الإلهي. ومن جهة أخرى، فالتعبير الفلسفي يعمّق الإيمان الكنسي بمعنى أن الكنيسة تقرأ الكتاب المقدس متحرّيةً عن عمقه إلى ما أبعد من تعابيره. فقد تكون التعابير الكتابية نفسها عائقًا أو اجترارًا. أمّا التعبير (الفلسفي) الجديد، فيتيح لها الفرصة للتعمّق في معنى الكتاب، فضلاً عن أن الكنيسة، بهذه الطريقة، تتسلّم «وديعة الإيمان» من الأجيال المؤمنة السابقة وتسلّمها للأجيال القادمة ببصمتها وبصمة عصرها وحضارتها وفلسفتها.

٣. **البعد الخلاصيّ**: ليس الموضوع موضوعًا نظريًا أو فكريًا مجرّدًا، بل هو خلاصيّ أساسًا، بمعنى أن دافع انعقاد المجمع وإصدار الاعتراف الإيماني هو التعبير عن اختبار المسيحيّين بأنهم أبناء الله وأن الله غفر لهم خطاياهم وجمعهم في الكنيسة. بهذا المعنى قال أثناسيوس: «أريوس يسرق لي مخلّصي». فلو لم يكن يسوع المسيح إلهًا، لما خلّصنا ولما نال لنا التبنّي، وذلك لأنه يخلّص بقدر ما هو «وسيط» **(Médiateur)** حقًا بين الله والبشر، ولا «عميل» (Intermédiaire) كما ادّعاه أريوس بناءً على الفلسفة اليونانية آنذاك. فالعميل خارج عن الطرفين، غير متضامن معهما تضامنًا كاملاً، لا يستطيع أن يضعهما في شركة حقيقية،

coptic-books.blogspot.com

لأنه خارج عنهما، لا سيّما وأن «العملاء» في الفكر اليوناني عديدون جدًا، في حين أن المسيح «وسيط» وحيد، كما تبيّنه الرسالة إلى العبرانيّين.

فالبدعة «المظهرية» كانت قد شكّت في تضامن يسوع المسيح مع البشرية، وأمّا البدعة «الأريوسية» فقد شكّت في تضامنه مع الله في شكّها في ألوهيته. ويقول أثناسيوس في هذا الصدد: «لو كان الابن مخلوقًا، لظلّ الإنسان خاضعًا للموت تمامًا دون أن يتّحد بالله. . . ولو لم يكن الابن إلهًا حقيقيًا، لما استطاع الإنسان أن يؤلّه باتّحاده مع مخلوق». لذلك يمكن التأكيد أن الدافع الخلاصيّ، ولا سيّما تبنّي الإنسان، هو الدافع الأساسي في مجمع نيقيا.

وبناءً على ما سبق، يمكن استخلاص مبدأ لاهوتي مهم، وهو أن هناك تطابقًا كاملاً في الحديث عن الخلاص (الناحية الايقونوميّة) والحديث عن الله الذي يخلّص (الناحية الثيولوجيّة)، بين الايقونوميا والثيولوجيا، بين هوية المسيح لأجلنا وهويته في ذاته. فالايقونوميا تعبّر تعبيرًا كاملاً وصادقًا وحقيقيًا عن الثيولوجيا، الايقونوميّا هي الظهور في الزمن للثيولوجيا. ومن جهة أخرى، لا وصول إلى الثيولوجيا إلاّ عن طريق الايقونوميّا. فشخصية المسيح كما ظهرت لنا (إله وإنسان) هي في شخصيته الحقيقية في حدّ ذاته، ولا انفصام بين المسيح لأجلنا والمسيح لأجله.

نحن ونيقيا

إن عبرة نيقيا بالنسبة إلينا تكمن في أن هذا المجمع أدخل الفلسفة لفهم الكتاب المقدس وشرحه، وفي الوقت نفسه، طهّر المفاهيم اللاهوتية من التفلسف الذي وقعت فيه بدعة أريوس. فخطأ أريوس أنه أخذ التعابير الكتابية (مثلاً لفظة «كلمة») وفلسفها دون أمانة

coptic-books.blogspot.com

للمضمون الكتابي (نتذكّر أن لفظة «كلمة» Logos الفلسفية تختلف كل الاختلاف عن الكتابية). وأمّا المجمع، فقد أعاد الأمور إلى نصابها، إذ إنه استعان بالفلسفة اليونانية (في استخدامه لفظة — Ousia Homoousios)، ولكن ليشرح بها المضمون الصحيح للكتاب (في استخدامه لفظة «أي»).

فنريد هنا إبراز معنى التفلسف أولاً، ثم معنى التطهير من التفلسف، لنصل إلى كلا التفلسف/ التطهير معًا.

معنى التفلسف

رأينا أن استخدام الفلسفة ما هو إلاّ شرح للكتاب المقدس. وكان هذا الاستخدام الأوّل من نوعه في اللاهوت المسيحيّ[٣]، وكان عسيرًا وشاقًا. فمجمع أنطاكية المحلّي (٢٦٩) كان قد رفض التعبير «من الجوهر نفسه» لتأثُّر هذه اللفظة آنذاك بالفلسفة الغنوسية. وأمّا مجمع نيقيا، فاستخدمها، ولكن بمدلول آخر كان قد تطوّر. هذا ولم يقبل الجميع إدخال كلمة فلسفية في الحديث اللاهوتي، مع أن اثناسيوس كان حجة في وقته. ودام هذا التردّد ما يقارب خمسين عامًا.

وبناءً على ذلك، يمكننا طرح عدة تساؤلات:

١. لماذا عدم الاكتفاء بلغة الكتاب؟ أليست الحكمة البشرية منافية للحكمة الإلهية (١ قور ١)؟ لماذا التعقيد ولا سيّما بالنسبة إلى الشعب؟[٤]

---

(٣) غير أن إنجيل يوحنا كله مفحم بالفلسفة الثنائية: النور/ الظلمة ـ الحق/ الكذب ـ الإيمان/ الخطيئة ـ الحياة/ الموت... وكذلك استخدم بولس تعابير وكلمات يونانية ونصّرها.

(٤) يفخر الإسلام بأنه دين سهل، غير معقّد. وينتقد المسلمون المسيحية بأن عقائدها معقّدة.

coptic-books.blogspot.com

الرد على هذا الاعتراض:

إن ضرورة استخدام الفلسفة يحتّمها التجسّد نفسه، تجسّد كلمة الله في تاريخ البشرية، في ثقافة إنسانية محدّدة، في عقلية فلسفية معيّنة، في حضارة بشرية خاصة. . فقد وُلد الله ـ الكلمة في اليهودية، في زمن احتلال الرومانيّين لأرض فلسطين. . . والوحي موجّه إلى البشر بكلمات بشريّة تختلف من عصر إلى عصر، من بيئة إلى بيئة، من فلسفة إلى فلسفة. . . لذلك وجب ترجمة الإنجيل بلغة كل عصر وكل بيئة وكل فلسفة. يجب عصرنة الإنجيل ليفهمه البشر بنو عصرهم. وهذا ما فعله آباء نيقيا عندما استخدموا الفلسفة السائدة في أيامهم(٥). وهذا ما فعلوه بدون اجترار أو تقليد أعمى، بل بروح ابتكارية وإبداعية، وكذلك بروح وفيّة لوديعة الإيمان. فإنهم «جدّدوا قراءة» الكتاب المقدس بحسب متطلبات عصرهم وبروح عصرهم، وفي الوقت نفسه بأمانة تامّة للإيمان المسيحيّ الذي لا يتغيّر.

ومن جهة أخرى، يوجّه الإنسان المؤمن إلى الوحي أسئلة وتساؤلات انطلاقًا من واقعه ووضعه، من حضارته وثقافته، من فلسفته ولغته. . . إنه يوجّه إلى الوحي أسئلة عن معنى وجود الإنسان وهدف حياته وطريقة خلاصه. . . إنه يطرحها بطريقة جديدة بالنسبة إلى الماضي، فيجب إذًا أن يكون الردّ عليها بطريقة جديدة وعلى مستوى تساؤلاته، وإن كان الردّ في إطار الإيمان الذي لا يتغيّر ومن منطلق «وديعة الإيمان» الثابتة على مرّ الأجيال. غير أن ثباتها هذا في المضمون لا يتنافى وتأقلمها بالمؤمن الذي يوجَّه إليه الوحي، المؤمن الذي يتغيّر من جيل إلى آخر، من مكان إلى آخر.

---

(٥) وهذه الفلسفة تختلف عن فلسفة عصرنا نحن، وهي أشدّ تأثرًا بـ«الوجودية». أفلا يجب إذًا ترجمة عقائد المجامع نفسها إلى لغة العصر والبيئة؟. . .

coptic-books.blogspot.com

ولكن خطأ مجمع نيقيا أنه استعان بلفظة فلسفية واحدة: (Ousia-Homoousios)، في حين أن الكتاب يستخدم ألفاظًا وألقابًا عديدة للتعبير عن «سر» الله، لأن التعبير البشري عاجز عن الأداء الكافي للتعبير عن سرّ الله. وستكوّن المجامع الأخرى لغة فلسفية تدريجيًا، كما سنراه.

ويؤدّي ذلك التعصرن إلى ضرورة وجود «سلطة» كنسية تؤكد أن هذا التأقلم يتميّز بالوفاء والأمانة لـ«وديعة الإيمان»، وإلاَّ لفسّر كل واحد كما شاء وبحسب إلهامه. وأمّا السلطة الكنسية هذه، فهي - بحسب الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية - من اختصاص الأساقفة الذين يفسّرون ويميّزون ويفصّلون بتعليمهم الإيمان المستقيم.

٢. لماذا فُرض هذا التعبير حتى على الذين لم يقبلوا بدعة أريوس؟

فقد يكون مفهومًا أن هدف العقيدة كان تحاشي الوقوع في الهرطقة الأريوسية، ولكن ما الأمر بالنسبة إلى الذين لم تمسّهم هذه الهرطقة؟

الردّ على هذا الاعتراض:

لا ننسى أن وظيفة العقيدة هي توحيد التعليم أو الاعتراف الإيماني توحيدًا يجمع كل المؤمنين في فعل إيمان واحد مطابق لما هو وارد في الكتاب المقدس. وهذه الوظيفة التوحيدية ضرورية للغاية، خاصة في فترات أزمة، كما كان الحال في أيام البدعة الأريوسيّة وما أثارته من ردّ فعل كنسي تكلّل في مجمع نيقيا. فلو فرضت الكنيسة آنذاك النص المجمعي على بعض المؤمنين فقط دون الآخرين، لظهرت فيها لغتان في الزمان والمكان نفسه، الأمر الذي كان قد أدّى حتمًا إلى انشقاق داخل الكنيسة عاجلاً أم آجلاً، لا سيّما وقد كانت البدع في ذلك الحين كثيرة. ففرض التعبير على الجميع إنما هو عنصر توحيد للإيمان الواحد.

coptic-books.blogspot.com

فإن كانت الكنيسة تقبل، بل وتشجّع تعددية اللاهوت، إلاّ أن التعليم من ناحية (أي العقيدة خاصّة) والاعتراف الإيماني من ناحية أخرى (كقانون الإيمان النيقي مثلاً) لا بدّ أن يكونا عنصر توحيد للمؤمنين(٦).

٣. لماذا فُرض هذا التعبير على أجيال مختلفة تمامًا عن جيل نيقيا زمنيًا/ مكانيًا، لاهوتيًا/ ثقافيًا؟ ألا يجب «التجسّد» في واقع كل حضارة وفلسفة وعصر؟

الرد على هذا الاعتراض:

صحيح أنه يجب التعصرن والتأقلم، ولا مفرّ منهما لتجسيد الوحي والكتاب المقدّس. ولكن هناك ميزة في الاحتفاظ بتعبير نيقيا (أو مجامع أخرى)، وهي الاحتفاظ في كنيسة اليوم بما توصّلت إليه كنيسة الأمس. فلقد رأينا مرارًا أن التقليد الكنسيّ عبارة عن «تسلّم وتسليم». فكنيسة اليوم تتسلّم ما قدّمته كنيسة الأمس (في نيقيا مثلاً وفي غيره من المجامع) كجزء من حياة الكنيسة، كجزء لا يتجزّأ ولا ينفصل عن تراثها وتقليدها. إن قبول مجمع نيقيا، مهما اختلفت ثقافته، يعني أن كنيسة اليوم لا تريد أن تنفصل عن جذورها، بل أن تستمر في عملية «التسلّم والتسليم».

(٦) بهذا المعنى نقول أن «الانبثاق من الابن» (Filioque) عقيدة كاثوليكية داخلة في التعليم الكاثوليكي. ولكن هناك تساؤلاً عندما يصلّي كاثوليكي وأرثوذكسي معاً، ويعترفان بايمانهما: أيجوز حذف «الانبثاق من الابن» للحفاظ على الوحدة بينهما؟ لقد شجّعت الكنيسة الكاثوليكيّة دائماً على هذا الأمر. لذلك سمحت للشرقيين الكاثوليك ألا يُدخلوا في قانون الإيمان «الانبثاق من الابن»، كما أن البابا يوحنا بولس الثاني لم يدخله عندما احتفل مع الأرثوذكس منذ سنين قليلة بقانون إيمان نيقيا القسطنطينية (١٥٠٠ عاماً)، لا لعدم الإيمان بهذا البند، بل للحفاظ على الوحدة، إذ ان وظيفة قانون الإيمان هي توحيد المؤمنين، وهي تختلف عن وظيفة اللاهوت الذي هو بحث في الإيمان، فيجوز له أن يختلف فيه التعبير من لاهوتي إلى آخر، أو من كنيسة إلى أخرى، أو من عصر إلى آخر...

coptic-books.blogspot.com

معنى التطهير من الفلسفة

إن كانت الاستعانة بالفلسفة أمرًا ضروريًا بموجب «التجسّد»، إلاَّ أنّه يجب في الوقت نفسه ألاَّ يكون اللاهوت عبدًا للفلسفة، فلذلك يجب التطهير منها. وهذا ما فعله مجمع نيقيا عندما تحاشى الخلط بين «الكلمة» لاهوتيًا وفلسفيًا، فطهّر اللفظة من مفهومها الفلسفي، محتفظًا بمفهومها الكتابي ومضمونها الخاص. وكذلك، عندما استخدم المجمع لفظة (Homoousios، أي «من الجوهر نفسه»)، وهي لفظة كان قد رفضها مجمع أنطاكية المحلّي ـ كما نذكر ـ فقد منحها مضمونًا لاهوتيًا واضحًا يدلي بالمعاني الآتية:

١. **سر الوحدة الإلهية**: عندما يقول المجمع إن يسوع المسيح «هو والآب من جوهر واحد»، فإنه يترجم فلسفيًا المحتوى الكتابي الكامن في أقوال ليسوع كهذه: «من رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤/ ١٠)، أو «كل ما هو لك فهو لي» (يو ١٧/ ١٠)، أو «أنا والآب واحد» (يو ١٠/ ٣٠)... فالفلسفة تعبّر هنا عن الكتاب وتعتبره مرجعًا لها.

٢. **سر الإفراغ الإلهي**: إن التصوّر الفلسفي لله هو أن الله لا يتغيّر (Immuable) ولا يتأثّر (Impassible)، في حين أن النظرة المسيحية لله هي أن الله الكلمة قد تغيّر، إذ أخذ جسدًا بشريًا، ومات هو مانح الحياة، وتأثّر بالفرح والألم وبالعلاقات البشرية... هذا هو سر «الإفراغ» الإلهي (Kénosis: راجع فل ٢/ ٦ +).

٣. **سر التعالي الإلهي**: إن تعالي الله المطلق الذي جعل أرسطو مثلاً لا يقبل أن يدخل الله ـ الخالق، المحرّك الأول، العلّة الأولى ـ في علاقة مع مخلوقاته (إلاّ عن طريق «عملاء»)، لا يتنافى في المسيحية مع اقتراب الله من الإنسان حتى التجسّد. فالله البعيد هو إله قريب جدًا، دون أن يكون في ذلك تناقض أو تعارض، لأننا لسنا في

coptic-books.blogspot.com

لغة المنطق الفلسفي، بل في منطق الحب، حيث إنّ المتعالي لا يفقد تعاليه باقترابه وحبّه للبشر.

اللاهوت بين التفلسف والتطهير منه

هكذا نصل، في نهاية مطافنا، إلى أن اللاهوت يجب عليه أن يستخدم الفلسفة دون أن يخضع لها. إن السرّ المسيحي فوق أي اعتبار فلسفي، وإن احتاج إلى الفلسفة ليفهمه بنو العصر، فإن الإيمان المسيحي يستعين بالفلسفة، ويتعالى عليها في الوقت نفسه. فإهمال طرف من الطرفين يُعتبر تطرّفًا، فإمّا التزمّت (إذا حذّر اللاهوت من الفلسفة)، وإمّا الضياع (إذا أصبح خاضعًا لها)، وأمّا الموقف اللاهوتي السليم، فهو استخدام الفلسفة وثقافة العصر وحضارته ومدنيّته استخدامًا حرًا.

فهناك إذًا دائرة تجمع الكتاب والفلسفة، من الكتاب إلى الفلسفة ومن الفلسفة إلى الكتاب. وليست هذه الدائرة حلقة مفرغة، لأن هذه الفلسفة هي فلسفة عصر معيّن تختلف من جيل إلى جيل، فتترجم مضمون الكتاب نفسه إلى بني جيلها، أي بطريقة تختلف من عصر إلى عصر آخر.

coptic-books.blogspot.com

مجمع أفسس ٤٣١

بين نيقيا (٣٢٥) وأفسس (٤٣١) مرّ قرن، تقبّل فيه الشعب المسيحي تقبّلاً بطيئًا وهادئًا مجمع نيقيا، لا سيّما بعد الأزمة الأريوسية التي هزّته، استخدام المجمع تعبيرًا فلسفيًا جديدًا (هو والآب «من جوهر واحد»). وبين المجمعين، انعقد مجمع القسطنطينية الأوّل سنة ٣٨١، وكان في أول الأمر مجمعًا محليًا، إلاّ أن الكنيسة اعترفت به فيما بعد كمجمع مسكوني أكمل مجمع نيقيا في أنه أقرّ بألوهية الروح القدس. فنيقيا أقرّ بألوهية يسوع المسيح، والقسطنطينية بألوهية الروح. وفي هذين المجمعين حُدِّد «قانون الإيمان» النيقي القسطنطيني الذي لا تزال جميع الكنائس إلى اليوم تعترف به اعترافها الإيماني، ولقد احتفلنا سنة ١٩٨١ بمرور ١٦٠٠ عام على «قانون الإيمان» هذا الذي حُدِّد نهائيًا في القسطنطينية.

أما محور مجمع أفسس الذي نتوقّف عنده في هذا الفصل، فهو وحدة الألوهية والإنسانية في شخص يسوع المسيح.

coptic-books.blogspot.com

إشكالية أفسس

لاهوت تنازلي

نتذكر أن مجمع نيقيا أكّد على ألوهية يسوع، خلافًا لبدعة أريوس. فكانت نقطة الانطلاق إنسانية يسوع، وكان السؤال: إلى أي حدّ هذا الإنسان هو الله؟، فأقرّ المجمع بأن هذا الإنسان هو الله. وهكذا فإن لاهوت مجمع نيقيا «لاهوت تصاعدي»، إذ إنّه ينطلق من الإنسانية ليصل إلى الألوهية.

أمّا لاهوت مجمع أفسس فهو، على خلاف نيقيا، «لاهوت تنازلي»، إذ إنّه ينطلق من ألوهية يسوع المسيح التي أقرّها نيقيا ويتساءل: ما معنى أن يصبح ابن الله إنسانًا؟ كيف تمّ هذا الاتّحاد بين الألوهية والإنسانية؟ فألوهية المسيح لا شك فيها (نيقيا) وإنسانيته كذلك (ما سبق نيقيا)، ولكن السؤال هو «كيفية» الاتّحاد بين الحقيقتين، بين الطبيعتين.

والجدير بالذكر أن حركة نيقيا هي حركة الأناجيل الإزائية و«الإعلان» الأول، أي الحركة التصاعدية: الانطلاق من يسوع الإنسان للوصول إلى يسوع المسيح الإله. وأما حركة أفسس فهي حركة إنجيل يوحنا في قوله: «الكلمة صار بشرًا» (يو ١ / ١٤)، أي تجسّد الله

coptic-books.blogspot.com

الكلمة. وكما أن إنجيل يوحنا أتى بعد الأناجيل الأزائية، مكمّلاً إيّاها، كذلك أتى مجمع أفسس التنازلي بعد مجمع نيقيا التصاعدي، مكمّلاً إيّاه. والمجمعان يرسمان دائرة الإيمان المسيحي، كما وردت في العهد الجديد: من الإنسان إلى الله/ من الله إلى الإنسان. وقد سبق لنا أن أكّدنا على أن كلتا الحركتين ـ التصاعدية/ التنازلية ـ متكاملتان، تنادي الواحدة الأخرى ضرورةً، دون انفصال ولا انقسام، أو دون اختيار واحدة على حساب الأخرى، وإن كانت نقطة الانطلاق واحدة دون الأخرى.

ولكن الخطر الذي يهدّد كلاً في هاتين الحركتين هو في تخفيف أو تعقّل سر التجسّد الذي يظل دائماً «عثارًا» للعقل البشري والحكمة البشرية. فأمام هذا العثار شكّ «المظهريون» في إنسانية يسوع، و«الأبوليناريون» في نفس يسوع العاقلة، و«الأريوسيون» في ألوهية يسوع. ونرى الآن كيف أن نسطوريوس رفض هو «عثار التجسّد»، ولكن بدون الشك في ألوهية يسوع (التي أقرّها نيقيا) ولا في إنسانيته (التي لم تعد موضع شكّ بعد مناهضة «المظهرية» و«الأبولينارية»). فأيًّا كانت إشكالية نسطوريوس؟

إشكالية نسطوريوس

إن لم تعد ألوهية يسوع المسيح من جهة وإنسانيته من جهة أخرى موضعي شكّ، فسؤال نسطوريوس هو عن كيفية اتّحاد كائنَيْن كاملَيْن: كيف تمّ في التجسّد اتّحاد الله الكلمة بالإنسان يسوع؟ إن سؤال نسطوريوس هو سؤال أنطولوجي (أي خاص بالكيان). ولكن تساؤله ديني أيضًا لا كياني فحسب، فهو يتساءل: هل نقبل أن يعاني «كلمة الله» من إهانات التجسّد والولادة والحياة الزمنية والموت على الصليب؟ هذا السؤال الديني يثيره عثار التجسّد وكل ما طرأ على الله

coptic-books.blogspot.com

الكلمة من جرّاء تجسّده. هكذا نرى أنفسنا دائمًا أمام عثار التجسّد[١].

كيف يعالج نسطوريوس هذه التساؤلات (الأنطولوجية والدينية)؟

للردّ على ذلك، يجب أخذ المدرسة التي كان ينتمي إليها نسطوريوس بعين الاعتبار - وهي المدرسة الأنطاكية - التي تختلف عن مدرسة خصمه وبطل مجمع أفسس، أي القديس كيرلّس - وهي المدرسة الاسكندرانية.

إن لاهوت مدرسة كنيسة أنطاكية لاهوت تصاعدي، يشدّد على إنسانية يسوع العينية (Humanité concrète)، مبيّنًا ما هو دور نفس يسوع (خلافًا للأبولّينارية) وما هو دور حريّته. وبهذا المعنى يبدو اهتمام اللاهوت الأنطاكي قريبًا من اهتمامات اللاهوت الحديث والمعاصر.

وأما لاهوت كنيسة الاسكندرية، فهو لاهوت تنازلي، وهو أكثر تشديدًا على أن الله الكلمة صار بشرًا، مركّزًا على فعل التجسّد الإلهي.

فسؤال نسطوريوس الأنطاكي هو: «كيف يتّحد يسوع الإنسان بالله الكلمة؟». وأما سؤال كيرلّس الاسكندري فهو: «كيف اتّخذ الله الكلمة إنسانية حقيقية؟». هكذا نرى أن نقطة التساؤل اللاهوتي تختلف، الأمر الذي لم يساعد الخصمين على اتفاق يجمعهما، لا سيّما وأنهما لم يعيا هذا الاختلاف. كانا يتخاصمان على مستوى إيماني، فلم يتنبّها إلى أن الخلاف بينهما هو على مستوى لاهوتي أوّلاً[٢]. فلو أدركا ذلك في حينه، لربّما توصّلا إلى حلّ مشترك، الأمر الذي حدث بعد انعقاد مجمع أفسس بين كيرلّس من جهة والكنيسة الأنطاكية من جهة أخرى، فيما سُمّي بـ«فعل الوحدة».

ويجب أن نفحص بدقّة وجه الخلاف القائم بين نسطوريوس

---

(١) إن كان الأمر هكذا بالنسبة إلى المسيحيّين أنفسهم، فكم بالأحرى بالنسبة إلى غير المسيحيّين.

(٢) سنرى أن خطأ نسطوريوس إيماني أيضًا، لا لاهوتي فقط.

coptic-books.blogspot.com

وكيرلّس، بين المدرسة الأنطاكية والمدرسة الاسكندرانية:

مشكلة اللغة والمصطلحات: أوّل مشكلة لم يدركها الخصمان هي مشكلة لغوية. ولا سيّما لفظة Phusis (طبيعة) وHupostasis (شخص). فالكلمات الفلسفية حينذاك لم تكن واضحة المعالم والمعنى في ذلك الزمان.

إن أصل لفظة Phusis هو الفعل اليوناني Phuô ومعناه ولد. فلفظة Phusis (أي طبيعة) تتميّز بالتالي بطابع عينيّ، وجوديّ. هكذا فهمها كيرلّس عندما تحدّث عن «الطبيعة الواحدة»، قاصدًا، من خلال هذا التعبير، معنى «شخص واحد»، Hupostasis واحد. فكان نسطوريوس يرفض كلام كيرلّس هذا، قائلاً إن ليسوع المسيح طبيعتين، فاهمًا من لفظة (Phusis) (طبيعة) معنى لا عينيًّا، بل شاملاً، لا وجوديًا، بل مجرَّدًا (وكان الحق من جهته، فنحن نفهم لفظة «طبيعة» بهذا المعنى).

ومن جهة أخرى، كان نسطوريوس يدّعي أن يسوع المسيح ذو Hupostasis (شخص) اثنين، وكان يعني: «طبيعتين اثنتين»، ولكنه كان يستخدم لفظة Hupostasis بمعنى يختلف عن معنى كيرلّس الذي كان يأخذ اللفظة بالمعنى اللغوي الدقيق، أي «كائن ذاتيّ يقوم بحدّ ذاته»، «كائن عينيّ»، والحق من جهته. لذلك رفض كيرلّس تمامًا تعبير نسطوريوس.

هكذا نرى لاهوتيَيْن لم يتّفقا على المصطلحات التي كانا يستخدمانها، وكل منهما يفهمها بفهمه الخاص، دون أن يدرك أصل خلافهما.

مشكلة المفاهيم: ولكن هناك مشكلة أخرى عقّدت الأمور تعقيدًا، وهي مشكلة المفاهيم. فنسطوريوس يستخدم بدون تمييز تعابير

coptic-books.blogspot.com

مجرّدة (abstraites) وتعابير عينيّة (concrètes). للفظة «الألوهية» أو «الإنسانية» مثلاً دلالة مجرّدة وهي تعني الطبيعة الإلهية أو الإنسانية، في حين أن للفظة «الكلمة» أو «الإنسان» مثلاً مدلول عينيّ وهي تعني الكائن القائم بذاته. فعدم تمييزه بين المفاهيم المجرّدة والمفاهيم العينيّة جعله يفهم كلام كيرلّس على غير ما كان يقصده. وعندما يقول كيرلّس إن كلمة الله «تألم الموت لأجلنا»، قاصدًا إذًا كائنًا عينيًّا، يفهم نسطوريوس أن «الألوهية الجوهرية تتغيّر»، قاصدًا إذًا الطبيعة الإلهية المجرّدة، ولذلك يرفض كلام كيرلّس ولاهوته هذا. وإلى اليوم، كثير من الناس يخلطون بين المستويَين، دون أي تمييز، عندما يتكلّمون خاصةً على آلام المسيح وموته. فليس جوهر الله أو طبيعة الله التي تألّمت وماتت، بل هذا الكائن العينيّ يسوع المسيح الإنسان الله. فهناك فرق إذًا بين «الطبيعة» (الإلهية أو الإنسانية) و«هذا الكائن» (الإله الإنسان).

مشكلة الإيمان: إلاَّ أن خطأ نسطوريوس أخطر مما سبق، فلو اقتصر خطأه على ذلك، لما تسبّب في انعقاد مجمع، ولكن إيمانه وتعاليمه كانت مهدِّدة للإيمان. فكان يرفض أن ما حدث ليسوع في إنسانيته يقال على «الكلمة»، أن ما حدث ليسوع يخصّ «الكلمة» وأن يكون «الكلمة» فاعلها، وأن تكون مريم «أم الله» Théotokos.

وفي نهاية الأمر، كان نسطوريوس يؤمن بفاعلَيْن (Deux sujets) في يسوع المسيح، بشخصَيْن (Deux hypostases) فيه، فهناك الله الكلمة من جهة، ويسوع أو المسيح من جهة أخرى. إنه يقسم هكذا يسوع المسيح الكلمة المتجسّد إلى فاعلَين، وكل فاعل مستقل عن الآخر.

ويعود ذلك الانقسام إلى «عثار التجسّد» كما رأينا مرارًا. فالتجسّد وما يترتّب عليه من الولادة والرضاعة والختان والنموّ والعرق

coptic-books.blogspot.com

والجوع والعطش والخوف في أثناء الآلام والاستغاثة بالملائكة... كل ذلك يرفض نسطوريوس أن يخصّ الله الكلمة، بل يقول إنه يخصّ يسوع الإنسان فقط.

ولا يستخدم، للدلالة على كيفية العلاقة بين الألوهية والإنسانية[٣]، لفظة «التخصيص» (Appropriation) - أي أن ما يخصّ يسوع الإنسان يخصّ يسوع الإله أيضًا - بل يستخدم لفظة «اقتران» (باليونانية: Sunapheia - بالفرنسية: Conjonction) - أي جمع عنصرين عينيّين مستقلّين الواحد عن الآخر. فلاهوت نسطوريوس يهدّد إذًا وحدة شخص يسوع المسيح الكلمة المتجسّد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يرفض الملحمة الإلهية المتمثّلة في أن «الكلمة صار بشرًا»، لما فيها من عثار في أن الله يتجسَّد. وبالتالي يقع نسطوريوس في خطأ «المظهرية» التي ترفض واقع التجسّد، لا انه يرفض إنسانية (Humanité) يسوع المسيح كما رفضته «المظهرية»، بل يرفض تَأَنْسُنَ الكلمة (Humanisation). فبالنسبة إليه، لم يصبح الكلمة بشرًا، لم تطرأ عليه عملية التَّأَنْسُنِ، بل «الكلمة» - وهو كائن مستقل، قائم بحدّ ذاته - يكون داخل إنسان - وهو يسوع، شخص مستقلّ، قائم بحدّ ذاته. فبالنسبة إليه، يكون التجسّد واحدًا داخل واحد، أي اثنين لا واحدًا. ويقول إن الكلمة اضطلع (Assumé) بالإنسان يسوع.

ونتيجة رفض نسطوريوس للتجسّد - إذ هو عثار - ليس «الكلمة» وسيطًا بين الله والإنسان، لأن «الكلمة» لم يتّحد بالإنسان حقًا، ولم يمسّ التجسّد والصلب والموت... «الكلمة» حقًا. فالكلمة غير الإنسان يسوع.

ويشكّل لاهوت نسطوريوس مثلاً واضحًا للاهوت تصاعدي.

(٣) نذكّر بأن إشكالية نسطوريوس وأفسس هي «كيفية» الوحدة بين الألوهية والإنسانية.

coptic-books.blogspot.com

هذا هو اتّجاه مدرسة أنطاكية، كما نذكر ـ ولكن دونما الوصول إلى نهاية المطاف، أي إلى الله. فيسوع إنسان، و«الكلمة» الله، ولا وحدة حقيقية بينهما، بل هناك «اقتران»، علاقة خارجية فقط بينهما.

لذلك نستطيع القول بأن مشكلة نسطوريوس مشكلة إيمانية، لا لاهوتية أو فلسفيّة فحسب. فإنه يُنكر في نهاية الأمر واقع التجسّد بكل ما يتضمّنه من تأثير الإنسانيّة في الله الكلمة، وبالتالي واقع الخلاص، لأنّ يسوع المسيح لم يعد وسيطًا حقيقيًا بين الله والإنسان.

ردّ الإيمان في مجمع أفسس

أيًّا كان ردّ الإيمان المسيحيّ على لاهوت نسطوريوس، بل وإيمانه؟ نميّز بُعدين لتوضيح ذلك:

أولاً: كيفية قراءة الكتاب المقدس: إن مجمع أفسس استند أساسًا إلى قول يوحنا: «الكلمة صار بشرًا» (يو ١٤/١). هذا هو محور المجمع كله في ردّه على ادّعاءات نسطوريوس. نحلّل ذلك على الوجه التالي:

١. الحديث عن اتّحاد الكلمة/ يسوع: عندما يقول يوحنا: «الكلمة صار بشرًا»، يقصد أن الكلمة «صار» إنسانًا، أصبح بشرًا حقًا، لا أنه قد اقترن بإنسان خارج ومستقل عنه، له كيانه بمعزل عنه، فلم يكن يسوع مستقلاً عن الكلمة أولاً، ثم اتّحد «الكلمة» به، بل حُبل بيسوع ووُلد متّحدًا من البداية بالكلمة (لاهوت تصاعدي) أو أصبح الكلمة منذ البداية إنسانًا (لاهوت تنازلي).

وكذلك عندما تقول لنا الرسالة إلى العبرانيّين إنه «شاركنا في اللحم والدم» (عب ١٤/٢)، فإنها تعني الحقيقة نفسها. إن الله الكلمة نفسه «شاركنا»، أصبح شريكنا باللحم والدم تمامًا، «أصبح» إنسانًا كاملاً.

coptic-books.blogspot.com

ويقول بولس الشيء نفسه، عندما يقول إن الآب «أرسل ابنه مولودًا من امرأة» (غل ٤/٤). فابن الله نفسه وُلد من امرأة، لا يسوع الإنسان فقط، بل ابن الله الوحيد، كلمة الله الأزلي.

وكذلك في روم ١/٣، حيث ورد أن الآب أرسل «ابنه من نسل داود بحسب الجسد»، فابن الله نفسه أصبح من نسل داود، أصبح ذا جسد.

ويقول لوقا الكلام عينه ـ ولكن في لاهوت تصاعدي ـ عندما يضع على لسان الملاك: «إن الطفل يكون قدوسًا وابن الله يُدعى» (لو ١/٣٥). فهذا الطفل هو قدوس الله وابن الله.

جميع هذه الآيات والعديد من الآيات الأخرى تُظهر لنا اتّحاد الكلمة بيسوع اتّحادًا لا يقبل أيّة تجزئة أو انقسام أو انفصال، وذلك منذ اللحظة الأولى من الحبل، بل من إرسال الله ابنه الكلمة.

٢. **كلام يسوع نفسه**: لا يفصل يسوع بين ألوهيته وإنسانيته، عندما يتكلم. ففي قوله مثلاً: «قبل أن يكون إبراهيم، أنا هو» (يو ٨/٨٥)[٤]، نرى أن يسوع الذي يتكلم بشريًا يعتبر نفسه الله. ويسوع نفسه يتحدث عن «ما رأيته عند أبي» (يو ٨/٣٨) و«ما سمعته من الآب» (يو ٨/٤٠)، فإنه لا يفصل، بل لا يميّز، في مثل هذه الأقوال، بين الله والإنسان فيه. وكذلك عندما يقول: «أنا والآب واحد» (يو ١٠/٣٠)، أو «من رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤/١٩)، فكلامه لا يقبل أي انفصال بين كونه ابن الآب وابن الإنسان. فلم يقل مثلاً: «من رأى ألوهيتي» أو «بنوّتي» ولكن «من رآني أنا»، ولم يقل «الإله الذي فيَّ والآب هما واحد»، بل «أنا». وكذلك في قوله: «مجِّدْني بالمجد الذي كان لي معك قبل إنشاء العالم» (يـو ١٧/٥). لم يقل:

(٤) «أنا هو» (Ego eimi) هو الاسم الذي أطلقه يهوه على نفسه، عندما دعا موسى.

coptic-books.blogspot.com

«المجد الذي كان لألوهيتي»، بل «لي»، هو الإله الإنسان. . .[٥]

٣. التبشير الأول بيسوع المسيح: وإذا ألقينا نظرة على تبشير التلاميذ الأول بيسوع المسيح المائت القائم، وجدنا بطرس مثلاً يخطب قائلاً: «إن يسوع الناصري. . . قد أقامه الله. . . يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم، قد جعله الله ربًّا ومسيحًا» (رسل ٢/ ٢١ ـ ٣٦)، راجع خطبة بطرس الثانية أيضًا: (٣/ ١١ +، والثالثة: ٥/ ٢٩ +). ففي هذا الحديث التصاعدي، نرى أن يسوع الناصري هو الرب والمسيح والديّان. . . ليس الإله الذي فيه هو الرب والمسيح والديّان، بل يسوع الإنسان نفسه.

ونستخلص من كل ما سبق من جولتنا السريعة في العهد الجديد أن يسوع المسيح كائن واحد ـ لا كائنان ـ هو، في الوقت نفسه ابن الآب وإنسان، هو الإله المتجسّد الخاضع للآلام والموت. وذلك ما يخالف تمامًا إيمان نسطوريوس الذي يرفض أن يكون «الكلمة» قد حدث له ما حدث ليسوع في حياته الأرضية الإنسانية، أن يكون ما يخصّ إنسانيته يخصّ ألوهيته أيضًا.

ولكن يجب في الوقت نفسه أن يكون تعبيرنا دقيقًا للغاية، فلا نقول إن الألوهية أو جوهر الله قد تألم ومات (فهذه التعابير مجرّدة)، بل إن الله الكلمة، الابن الوحيد، ابن الله، الله الإنسان، قد تألم ومات (فهذه التعابير عينيّة). بهذا المعنى نكون أمناء للكتاب، فلم يتألم ويمت الإنسان فقط، بل الله الإنسان، يسوع المسيح كاملاً («لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا غمضة عين». ـ راجع الاعتراف الإيماني قبل التناول في القداس القبطي).

---

(٥) أمّا في قوله: «الآب أعظم منّي» فإنه يميّز بين الإله والإنسان. لكن التمييز لا يعني الانفصال أو الانقسام في الشخصية بين الإله والإنسان على الإطلاق. فحديث يسوع هذا من باب التواضع، فهو على مستوى خلقيّ، لا كيانيّ.

coptic-books.blogspot.com

وبالطبع نصل دائمًا إلى عثار التجسّد والفداء: كيف يصبح الله إنسانًا؟ كيف يموت واهب الحياة؟ هذا هو «سر الإيمان». «عثار» المسيحية للعقل البشري ولجميع غير المسيحيّين. فكل من يحاول أن يخفّف من كون الله الكلمة قد تجسّد وتألم ومات ثم قام...، فإنه يخالف «وديعة الإيمان»، ويُفرغ الإيمان المسيحي من جوهره وحقيقته، ويخشى عثار التجسّد والفداء.

ثانيًا: شرح الكتاب المقدس بالفلسفة: نذكر أن مجمع نيقيا استخدم لفظة «أي» لشرح الكتاب بالفلسفة، ولا سيَّما لفظة Ousia (طبيعة) وHomoousios (الجوهر نفسه). وكذلك، استخدم كيرلّس تعابير فلسفية لشرح الكتاب المقدس. فعندما يتحدث عن «الوحدة في الشخص» (union selon l'hypostase) - والتعبير اليوناني هو: henôsas heautô kath' hupostasin، أي «وحّد نفسه بحسب الشخص»، فما تعبيره هذا سوى «أي» آخر، هو شرح فلسفي جديد لقول يوحنا: «الكلمة صار بشرًا». فيقصد كيرلّس، من خلال هذا التعبير الفلسفي اللاهوتي، أن الكلمة صار شخصًا واحدًا - لا اثنين - مع يسوع الناصري. ويقول في هذا الصدد: «الكلمة الذي اتّحد في الشخص (hupostasis) بجسد تحييه نفس عاقلة[٦] أصبح إنسانًا بطريقة لا توصَف (indicible) ولا تُفْهَم (non compréhensible) ودعا نفسه ابن الإنسان، لا بالإرادة ولا بالمجاملة ولا بأنه اتّخذ الشخصية فقط (prosopôn). فالطبيعتان اللتان تواجدتا في اتّحاد حقيقي تختلفان، ولكن منهما[٧] أصبح مسيحًا وابنًا واحدًا: أن اختلاف (باليونانية:

(٦) «الجسد» هنا ردًّا على «المظهريين» الذين كانوا ينكرونه، و«النفس العاقلة» ردًّا على «الأبوليناريين» الذين كانوا يعتبرون أن ألوهية يسوع كانت تحلّ محلّ نفسه البشرية.

(٧) يقول كيرلس «من» (èk) طبيعتين، أي أصله. وسيقول مجمع خلقيدونيا «في» (en) طبيعتين، أي بعد الاتحاد.

coptic-books.blogspot.com

diaphora ـ بالفرنسية: différence) الطبيعتين لا يزول بالوحدة (union hénosis) ـــ. لكن الألـوهية والإنسـانية تكـوّنان ربًـا وابنًـا ومسيحًـا واحدًا، وذلك بتواجدهما الذي لا يـوصَف ولا يُعَبَّر عنـه في الاتحاد» (رسالة كيرلّس الثانية إلى نسطوريوس).

تعليقات على هذا النص:

١) نلاحظ أوّلاً أن كيرلّس يميّز بكل دقّة بين ما هو عينيّ (لفظة «كلمة» في الجزء الأول من النص) وما هو مجرّد (لفظة «طبيعة» في الجزء الثاني). فعلى كل حديث لاهوتي دقيق أن يستخدم تعابير ومستويات تعبير واضحة المعالم دون الخلط والغموض.

٢) هنـاك تـطابق (identité) عينيّ (concrète) بـين الكلمـة والإنسان في شخص يسوع المسيح. فمعنى «الكلمة صار بشرًا» أن الله الكلمة أصبح هذا الإنسان العينيّ الذي اسمه يسوع الناصري. وهناك علاقة كيانية (Relation d'être) ولا علاقة امتلاكية (Relation d'avoir) بين الله الكلمة ويسوع الناصري. بينهـما علاقـة وجوديـة (Relation existentielle) في فعل وجود (Acte de subsister)، فلا وجود ليسوع الناصري خارجًا عن الله الكلمة أو منفصلاً عنه لحظة واحدة، بل هما واحد منذ البداية. إن تعبير كيرلّس «الوحدة في الشخص» تعبير فلسفي لاهوتي يدل على الاتحاد العينيّ بـين الألوهيـة/ الإنسانيـة في شخص يسوع المسيح الله/ الإنسان.

فليس هناك شخصان، وليس ثمّة واحد مع واحد في عـلاقة خارجية، كما ادّعاه نسطوريوس، بل هناك شخص واحد وحيد، لا يقبـل التجزئـة أو الانقسام داخـل شخصه (وإن وجب التمييـز كـما سنرى). فالكلمة اتّحد بيسوع منذ البـداية، والكلمـة تأنّسَ، صـار إنسانًا، لحمًا، ولم يضطلع (assumé) بيسوع الإنسان. فتَأنُّسُ الكلمة هـو «الإفراغ» (kénosis) الـذي يتحدث عنـه نشيـد فيلبي (٢/٦).

coptic-books.blogspot.com

والتجرّد الإلهي يكمن إذًا في أن الله أصبح إنسانًا.

٣) بالطبع هذا الاتحاد سرّ لا توصَف كيفيته ولا تُفْهَم، بل يجب الإيمان بهذا السر والتعجب أمامه كما قال بولس لتلميذه طيموتاوس: «عظيم هو سرّ التقوى، فقد ظهر الله في الجسد». ولكن العقل البشري يحاول أن يفهم كيفية الاتحاد، فيستخدم لذلك بعض التشابيه، كاتّحاد الجسد/ الروح في الشخص: كل مرض يؤثّر في الشخص كله، فالشخص يحيا مرض جسده أو نفسه أو روحه ويعاني منه فيقبله أو يرفضه بملء حرّيته وإرادته وأحاسيسه ومشاعره. وبهذا المعنى، يمكن القول بأن الله الكلمة عاش وتألم وصُلب ومات، غير أن كل التشابيه ناقصة، لأن العقل البشري لا يستطيع أن يحوي سرّ الله وتساميه في تعابير أو تشابيه أو كلمات ولأن الله يتعدّاها ويتجاوزها كلها تمامًا.

٤) يضيف كيرلّس، بعد تعبيره «الوحدة في الشخص»، أن الفرق لا يزال واضحًا بين الطبيعتين. لا ينفي كيرلس الطبيعتين الإلهية والإنسانية، وهو في ذلك متأثّر باللاهوت الأنطاكي الذي يشدّد على التمييز بين الطبيعتين. غير أن كيرلس يشدّد من جهته على الوحدة، فيضيف، بعد التمييز، أن «منهما أصبح مسيح وابن واحد»[٨]. هذا وقد استند أوطيخس (Eutychès) إلى تشديد كيرلس هذا وتمادى في الوحدة حتى بلغ الهرطقة، كما سنراه في مجمع خلقيدونيا، وسنرى كذلك أن غير الخلقيدونيين (كالأقباط مثلاً) لا زالوا يشدّدون على الوحدة، لا على التمييز بين الطبيعتين.

(٨) في بحث لنا عن موضوع الوحدة/ التمييز عند كيرلس، اتّضح لنا جليًا أن تركيب جمله يبدأ دائمًا بالوحدة، فيميّز بين الطبيعتين ثم يعود إلى الوحدة التي هي شاغله الشاغل. ومن الجدير بالذكر أيضًا أن كيرلس لا ينفي أن المسيح «من» (èk) طبيعتين ـ أي المصدر مزدوج ـ ولكنه لا يقول إنه «في» (en) طبيعتين ـ أي بعد التجسّد. وسنرى الفرق في خلقيدونيا.

coptic-books.blogspot.com

٥) استخدم كيرلس الفلسفة وفي الوقت نفسه طهّر اللاهوت من التصوّرات الفلسفية. فلقد رأينا في مجمع نيقيا هذه الحركة: استخدام الفلسفة/ التطهير منها، ونجدها هنا مرة أخرى. في نظر أريوس، طهّر اللاهوت فكرة «العملاء» بمفهوم «الوسيط». وفي نظر أبولّيناريوس، ظهر «الكلمة» بمثابة النفس التي تحيي الجسد، لأنّ الله لا يستطيع أن يتغيّر، أي أن «الكلمة» لا يستطيع أن «يصبح» إنسانًا حقًا، فطهّر اللاهوت هذه الفكرة الخاطئة بأنه قد طرأ على «الكلمة» تغيير بموجب التجسّد. وفي نظر نسطوريوس، طهّر اللاهوت فكرة الله الذي لا يتأثّر، مؤكّدًا أن «الكلمة» تأثّر بالولادة والرضاعة والألم والموت.... وأما كيرلس، فكان متأثّرًا بالفلسفة اليونانية ولا سيّما بفكرتي «عدم تغيير» الله (Immuabilité) و«عدم تأثّر» الله (Impassibilité)، ولكنه طهّر مفهومه هذا عن الله وأكّد أن «الكلمة» قد وُلد وتألم ومات... فما لم يستطعه الله كإله، استطاعه «الكلمة» المتأنّس: «هكذا نقول إنه تألم ومات، لا أن الله الكلمة تألم في طبيعته بالضربات وثقوب المسامير والجروحات الأخرى (لأن الألوهية لا تتأثّر لكونها غير جسدية)، بل لأنّ الجسد الذي أصبح جسده قد تألم كل ذلك. نقول إنه هو الذي تألم لأجلنا. فغير المتأثّر كان هو المتألم في الجسد. وهكذا نفكّر في أمر موته» (الرسالة الثانية إلى نسطوريوس).

أما بالنظر إلى نسطوريوس، فإن هذا الكلام غير مقبول إطلاقًا، لأنّه يبدو له تطرّفًا، بما أن الله لا يتغيّر ولا يتأثّر[٩] وأما بالنظر إلينا، فإن تعبير كيرلس لا يكفينا ولا يرضينا تمامًا، مع أنه صائب، فقول كيرلس بأن طبيعة الله لا تتغيّر ولا تتأثّر يجعلنا نتساءل: ألا يفيدنا التجسّد عن طبيعة الله نفسها؟ ألا تعبّر الايقونوميّا عن الثيولوجيّا، كما

(٩) نتذكر أن نسطوريوس لا يميّز بين المفاهيم المجرّدة (الألوهية مثلاً) والعينية (الله الكلمة مثلاً). فلم يقل كيرلس ان الألوهية هي التي تتغيّر وتتأثّر، بل الله الكلمة.

coptic-books.blogspot.com

رأينا؟ فإن كانت الايقونوميّا تؤكّد لنا أنه طرأ على الكلمة تغيير وتأثّر، أفلا يخصّ هذا الثيولوجيّا أيضًا؟ هذا ما سنعود إليه في نظرتنا النقدية إلى مجمع أفسس.

وقائع المجمع

أقرّ مجمع أفسس كلام كيرلس وتحليله وإيمانه. وقد كان كيرلس يقود المجمع بعنف حتى وصول وفد كنيسة أنطاكية برئاسة يوحنا الأنطاكي. فاجتمع يوحنا وحلفاؤه في مجمع منافس، حين رأوا أن المجمع الذي يترأسه كيرلس منحاز إليه، رافضًا نسطوريوس الذي كان ينتمي إلى المدرسة الأنطاكية. وفي حزيران (يونيو) ٤٣١، لم تكن الحالة واضحة، وعمّت الفوضى والبلبلة، وزادت الانقسامات، ولكن الخصوم توصّلوا تدريجيًا إلى «فعل الوحدة» (Acte d'union)، سنة ٤٣٣، بين كيرلس الاسكندري ويوحنا الأنطاكي.

فكان كيرلس قد انتصر في مجمع أفسس وكان لاهوته يُعتَبر تفسيرًا لقانون الإيمان وللكتب المقدسة، ومن ثم لم يشعر المجمع بالحاجة إلى إضافة أيّ شيء إلى قانون الإيمان النيقي القسطنطيني (القانون ٧ من أفسس). فقد شرح مجمع أفسس التجسّد وحدّد معنى التجسّد، أكثر ممّا حدّد تعابير وأقرّ كلمات ومصطلحات جديدة (ما عدا التعبير Théotokos = «أم الله» - وكذلك Hénosis hupostasis «الوحدة في الشخص»). فكان مجمع نيقيا قد صرّح بألوهية المسيح، ومجمع القسطنطينية الأول بألوهية الروح القدس، وأما مجمع أفسس فكان - أكثر ما كان - لاهوتيًا وتفسيريًا لما سبق من مجامع، اعتمادًا على الكتب.

غير أن كيرلس قبل بكل تواضع اعترافًا إيمانيًا بلغة مدرسة أنطاكي، وإن كان مدار فكره اللاهوتي - كما رأينا - الوحدة، في حين أن مدار الفكر اللاهوتي الأنطاكي كان التمييز. فإن «فعل الوحدة» عبّر عن

coptic-books.blogspot.com

الإيمان الواحد بين الكنيستين، ولكن بتعابير لاهوتيـة مختلفة متكـاملة (الوحدة الكيرلسية، التمييز الأنطاكي)، فقد تخلّى كيرلس عن تعابيره. وأمّا يوحنا الأنطاكي من جهته فقد ابتعد عن إيمان نسطوريوس الذي لم يكن في نهايـة الأمـر صـائبًـا مستقيـمًا، ولكن يـوحنـا احتفظ بلغـة نسطوريوس ولاهوت كنيسة أنطاكيا.

ويُعتَـبر هـذا الاتفـاق بـين الكنيستـين صـورة مشرقـة للجـدل اللاهوتي، إذ حافظ على وحدة الإيمان وقبِل تعدّدية التعابير اللاهوتية. وهذا هو الموقف الصائب للاهوت: أمانة لوديعة الإيمان الواحد الثابت من جهة، وتعدّدية في التعبير عنها من جهة أخـرى. وسيصبح هـذا الاتفاق نواة مجمع خلقيدونيا كما سنراه في حينه(١٠).

البعد الخلاصي

ليس مدار اهتمام كيرلس ومجمع أفسس هو ألوهية يسوع المسيح (خلافًا لأريوس) ولا إنسانيته (خلافًـا للمظهـرية)، بـل «الوسـاطة» (Médiation): وساطة يسـوع المسيح بـين الله والبشر: «هناك وسيط واحد بين الله والبشر، إنسان واحد، المسيح يسوع» (١ طيم ٢/٥). فـالوسيط ـ كـما رأينا مـرارًا ـ واحد وحيـد، وهو متضـامن مـع كـلا الطرفين، بما أنه في شركة في كل منهما، إله حقيقي وإنسان حقيقي.

فإن كان «الكلمة» المتجسّد قد خلّص البشر، فلأن الله أصبح إنسانًا، هو هو كإله وإنسان. فالكلمة المتجسّد هو يسوع المسيح، هو واحد وحيد، هو نفسه كإله وكإنسان، وإلاّ: «أصبح سر التقوى الكبير العظيم مُلغًى (annulé) وصار باطلاً (vain)... يجب أن يمتلك ما لنا لنمتلك ما له: «فلأجلنا جعل نفسه فقيرًا، هو الذي كان غنيًا، ليُغنينا

(١٠) إن «فعل الوحدة» وكل ما دار حوله من خصومات لاهوتية ونسطورية... مهم جدًا في كنيسة مصر اليوم، فكأن التاريخ تاريخ القرن الخامس ـ يتكـرّر ـ في القرن العشرين.

coptic-books.blogspot.com

بفقره» (٢ قور ٨/٩)» (كيرلس: حواران مسيحانيان).

فيسوع المسيح والآب هما من جوهر واحد في الألوهية. يسوع المسيح هو من جوهرنا نفسه في إنسانيته (وتعبير كيرلس هذا متأثّر، ولا شك، بلاهوت أنطاكية). فشخصه يُحضر لنا الله، ويجعل الله معنا، ويُشركنا في بنوّته - «أبناء في الابن» (غل ٤/٦) - وفي ألوهيته - «شركاء في الطبيعة الإلهية» (٢ بط ١/٤).

هذا البُعد الخلاصي كان محور لاهوت كيرلس واهتمام مجمع أفسس.

نحن وأفسس

إذا ألقينا نظرة نقدية على لاهوت كيرلس ومجمع أفسس من وجهة نظرنا - نحن أبناء القرن العشرين لا الخامس -، أمكننا أن نُشير إلى ثلاثة مواضيع تهمّنا اليوم، فنتساءل كيف تعرّض لها، وهي: إنسانية يسوع - تأثّر الله بالإنسان - التمييز بين الله والإنسان. وكل هذه التساؤلات العصرية تدور حول إنسانية يسوع.

إنسانية يسوع

«ما موقف إنسانية يسوع في لاهوت كيرلس؟»

إن كيرلس يشدّد على «الوحدة في الشخص»، وحدة شخص يسوع المكوّن من طبيعتين، وحدة الكلمة: يسوع. ويعود ذلك إلى لاهوت الاسكندرية التنازلي، فمنطلقه الله الكلمة في فعل التجسّد، ونهايته وحدة شخص يسوع المسيح، شأنه شأن إنجيل يوحنا. ويشدّد كيرلس على المبادرة الإلهية في التجسّد، فلم يعد الوضع كما كان بالنسبة إلى الديانات الطبيعية التي كانت تبحث عن الله، بل أصبح التجسد

coptic-books.blogspot.com

يُظهِر ويكشف لنا الله الذي يبحث ـ هو ـ عن الإنسان فيتجسد لأجله ولأجل خلاصه.

وإذا ألقينا نظرة نقدية على هذا الكلام، قلنا إن رؤية يوحنا الإنجيلي هي خلاصة النظرة «المسيحانية» (Christologia) ونتيجتها ونهايتها، بقدر ما إنجيل يوحنا هو خاتمة الكتب المقدّسة وليست رؤيته نقطة انطلاق. فنقطة الانطلاق هي ما تُظهره لنا الأناجيل الإزائية وخطب أعمال الرسل من لاهوت تصاعدي ينطلق من يسوع الناصري.

إن اهتمامات لاهوت القرن العشرين أكثر تعاطفًا مع النظرة الازائية، أي مع اللاهوت التصاعدي، بغيةَ الانطلاق من «هذا» الإنسان الذي اسمه يسوع الناصري، من وضعه البشري، من أصله اليهودي، من ارتباطه بشعب الله المختار، من وعيه التدريجي ببنوّته الإلهية... فاللاهوت المعاصر يهتم ـ أكثر ما يهتم به ـ بأن الله الكلمة أصبح «هذا» الإنسان ـ ولا «أي إنسان كان» ـ. و«هذا» الشخص يسوع ـ ولا «أي شخص كان»، المحدَّد زمانيًا ومكانيًا، وثقافيًا وحضاريًا...، في حين أن لاهوت كيرلس ينطلق من أن الكلمة صار «إنسانًا»، لا «هذا» الإنسان. فما يهمّ كيرلس هو النظرة الأنطولوجية: «الطبيعة» الإلهية والبشرية، وأمّا ما يهمّ اللاهوت المعاصر فهو النظرة الوجودية: «وضع» يسوع المسيح البشري والإلهي[١١].

تأثر الله بالإنسان

ما لا نجده عند كيرلس بالقدر الكافي[١٢] هو كيف أن التجسّد أظهر للبشر «إنسانية» الله. فيسوع قد كشف لنا بتجسّده «حِلم الله

(١١) نذكّر بأن اللاهوت المتكامل يدمج الحركتين التصاعدية/ التنازلية معًا.

(١٢) لا نعيب شيئًا على كيرلس، فهو ابن عصره كما نحن أبناء عصرنا. ولكننا نشير فقط إلى أن اهتمامات عصرنا اللاهوتية تختلف عن اهتمامات عصر كيرلس.

coptic-books.blogspot.com

مخلصنا ومحبته للبشر» (طي ٣/ ٤). في شخص يسوع، أخذ الله وجهًا بشريًا بحيث ان من نظر إلى يسوع رأى الله الآب (يو ١٤/ ٩). وهذه «النبرة الإنسانية» التي يتّسم بها التجسّد تهمّ لاهوت القرن العشرين، ولم تستوفِ حقّها في لاهوت القرن الخامس الذي اهتم بإظهار «المبادرة الإلهية» أكثر ممّا اهتمّ بـ«تأنُسن الله» (Humanisation de Dieu)، أي بتأثّره بالوضع البشري. وأمّا ما في التجسّد من بعد إنساني، فهو ما يهتم به لاهوت القرن العشرين.

إن منطلق، بل محور لاهوت كيرلس، وبالتالي مجمع أفسس، هو أن الله أصبح إنسانًا. ولكنه لم يتطرّق إلى ما نعتبره اليوم أساسيًا في لاهوتنا، وهو كيف تأثّر الله الكلمة بإنسانيته، بإنسانيتنا. إن لاهوت القرن الخامس يهتم بفعل الله الذي يبادر فيأخذ الطبيعة البشرية، وأما لاهوت القرن العشرين فيهتم بتأثير فعل التجسّد في الله نفسه، فيتساءل: كيف يصبح تاريخ يسوع تاريخ الله نفسه؟ كيف دخل تاريخ البشرية داخل الله؟ كيف أن الله اللاّمتغيّر قد أصبح متغيّرًا بموجب التجسّد؟ كيف أن الله اللاّمتأثّر قد أصبح متأثّرًا بالأوضاع البشرية ولا سيّما بالألم والموت؟ كيف أنّ الله يظل هو نفسه ـ الهُويّة ـ عندما يأخذ جسدًا ـ الغيريّة ـ أي يظل نفسه وهو يتغيّر؟ كيف أنه لا يفقد تعاليه وتساميه (Transcendance)، عندما يتخلّى ويتجرّد ويُفرغ ذاته (kénose)؟ أليس الله فوق التغيير/ اللاّتغيير؟ فوق التعارض والتناقض؟ ألا يكمن سر التجسّد في أن المستحيل أصبح ممكنًا لأن الله محبة، والمحبة تفوق المنطق البشري الذي يريد أن يحصر الله في حدود العقل البشري وقانون عدم التناقض (الذي يسري على الإنسان، لا على الله)، والنظرة إلى الله نظرة إنسانية (المتعالي لا يستطيع أن يقترب من الإنسان، أن يصبح إنسانًا دون أن يفقد تعاليه)؟... إن الإله المسيحي أصبح ـ بالتجسّد والصعود ـ يتأثّر بكل ما يحدث للبشرية من آمال وآلام، من فرح وحزن، من قوة وضعف...

coptic-books.blogspot.com

كل هذه التساؤلات وغيرها هي من صميم الاهتمامات اللاهوتية المعاصرة، ولا نجد في مجمع أفسس ردًّا عليها. لذلك ستكمّله ثلاثة مجامع أخرى: خلقيدونيا ـ القسطنطينية ٢ ـ القسطنطينية ٣، التي ستدقّق النظر في إنسانية يسوع المسيح التي لم يُظهرها كيرلس ومجمع أفسس بقدر كافٍ.

غير أن مجمع أفسس يخطو خطوة بالنسبة إلى مجمع نيقيا. إن مجمع نيقيا أظهر وجود المسيح في داخل الثالوث وشركته في الألوهية، في حين أن مجمع أفسس فتح المسيح على البشر، مُظهرًا كيف أن الآب يحب البشر وأن يسوع يحبّهم (يو ١٣/ ١ و١٧)، وكيف أن يسوع المصلوب يُعطي ذاته للآب وللبشر (و ١٣/ ١)، فإن الله قد أصبح إنسانًا ليصبح الإنسان إلهًا، بحسب قول الآباء المأثور.

التمييز الله/ الإنسان

أبرز كيرلس «الوحدة»، ممّا أدّى فيما بعده إلى لاهوت «الطبيعة الواحدة» (Monophysisme). فلاهوت «المونوفيزية»، وإن كان مقبولاً لاهوتيًا، إلاّ أن له مخاطر عديدة لم ينجُ منها ـ خاصة في امتصاص (Absorption) الألوهية للإنسانية. إن نتيجة اللاهوت التنازلي، كما استخدمه كيرلس، لا تخلو من خطر التشديد على المبادرة الإلهية على حساب الواقع البشري، لأن الألوهية ليست على مستوى البشرية. فكما أن النار تلتهم أي جسم يتعرّض لها، فكذلك قد يخطأ اللاهوت التنازلي ـ إن لم يكمّله اللاهوت التصاعدي ـ في أن تتلاشى الإنسانية أمام الألوهية، في أن تذوب هويّة الإنسان في هويّة الله، في أن يتطابق الإنسان مع الله إلى حدّ فقدان استقلاله وخصائصه.

وأما سرّ التجسّد، فهو يحافظ على كلتا الألوهية والإنسانية بدون أي امتصاص أو تلاشٍ أو ذوبان. إن السر المسيحي هو سر الهُويّة/

coptic-books.blogspot.com

الغيـريّـة معًـا (Identité/ Altérité)[١٣]، أي أن الله يصبـح إنسـانًـا (الغيريّة) دون أن تتلاشى إنسانيتـه في ألوهيتـه (الهُويّـة)، أو أن الله يتطابق مع الإنسان دون أن يزيل خصائص الإنسانية، أو أن يسوع هو إنسان كالبشر (الهُوية) ولكنه مختلف عنهم لأنه إله (الغيريّة)، هو إله كالآب والابن (الهُويّة)، ولكنه مختلف عنهما بموجب تجسّده (الغيريّة).

فعلى أي تعبير لاهوتي أن يحتفظ دائمًا بالوحدة - الهُويّة - والتمييز - الغيريّة -. وهذا هو دور مجمع خلقيدونيا (مع تشـديده عـلى التمييز) الذي قاوم اتجاه أوطيخس الوحدوي (مع تشديده على الوحـدة حتى تـلاشي الإنسانيـة في الألـوهيـة). فقـد أخـذ أوطيخس ميـل أفسس الوحدوي وبلغ به إلى أقصى حدوده، فحوّر وحرّف المعنى والنيّة. فإن لم يكن مجمع أفسس مسؤولاً عن هذا الانحراف، غير أنه يحمل في طيّاته هذه النزعة الوحدوية حتى تلاشي الإنسانية وذوبانها واختلاطها في الألـوهية. وبهـذا المعنى، أعاد مجمـع خلقيدونيـا الأمور إلى نصـابهـا بالتشديد على التمييز (الألوهية/ الإنسانية) دون فقدان الوحدة (وحدة شخص يسوع المسيح) التي اكتسبها مجمع أفسس. وقد حان الـوقت لدراسة مجمع خلقيدونيا.

---

(١٣) إن الفلسفة الوجودية والشخصانية تعتبر أن الشخص مكوّن من هويّته وغيريته في آن واحد.

coptic-books.blogspot.com

مجمع خلقيدونيا ٤٥١

يعتبر المؤرخون مجمع خلقيدونيا من أهم المجامع «المسيحانية»، فإنه لخّص وجمع المجامع السابقة وأضفى صيغة متجانسة على الإيمان «المسيحاني» بشكل متكامل وشامل. واستندت إليه المجامع اللاحقة مفسِّرةً وموضّحةً إيّاه. من هنا تبرز أهمية هذا المجمع.

ونُسب إليه أوّل انشقاق كنسي، إذ إنّ ثلاث كنائس لم تعترف به، وهي كنائس الاسكندرية وأنطاكية وأرمينية. لذلك وجب الانطلاق مما قبل هذا المجمع في التحاور مع هذه الكنائس.

وعلى مثال ما فعلنا في الفصلين السابقين، نبدأ بعرض إشكالية هذا المجمع، ثم نبيّن نظرتنا العصرية فيه.

إشكالية خلقيدونيا

إنسانية يسوع

١. رأينا فيما سبق أن مجمع أفسس شدَّد على وحدة شخص

coptic-books.blogspot.com

يسوع المسيح إلى حدّ بعيد، ولكنه لم يميّز بالدقة نفسها بين الطبيعتين الإلهية/ الإنسانية. وبالتالي، سيهتمّ مجمع خلقيدونيا بالتشديد على التمييز مستندًا إلى الوحدة التي اكتسبها مجمع أفسس على وجه نهائي. بهذا المعنى يكمّل خلقيدونيا أفسس، وسنرى ما هي الظروف اللاهوتية التي حملت هذا المجمع على القيام بهذه الخطوة المكمّلة لخطوة أفسس. ولكن الجدير بالذكر هنا هو التكامل المنطقي بين المجمعين: فإن أفسس كان يستدعي خلقيدونيا منطقيًا. وما توصّل إليه أفسس من إظهار وحدة الشخص كان يستدعي إظهار ازدواجية الطبيعتين.

٢ . فكانت التساؤلات اللاهوتية بعد مجمع أفسس عديدة. منها: ماذا فعل الله الكلمة بالطبيعة البشرية التي اتّخذها؟ وماذا تصبح هذه الطبيعة البشرية؟ فهل هي متميّزة عن الطبيعة الإلهية، أم تتلاشى وتزول فيها؟ وأما تزال الطبيعة البشرية حاضرة في الاتحاد، مع أن الطبيعتين ليستا على المستوى نفسه، إذ إنّ الطبيعة الإلهية قد تمتصّ الطبيعة البشرية لأنها أعظم منها؟ وهل يسوع المسيح حقيقة الله هو حقيقة الإنسان أيضًا؟

أكّد مجمع نيقيا على حقيقة الله في يسوع المسيح على أنه والآب من جوهر واحد (Homoousios)، وأكّد مجمع أفسس على معنى فعل تجسُّد الله الكلمة. فيتبادر بالتالي التساؤل حول حقيقة الإنسان في يسوع المسيح، حول مصير إنسانيته التي اتّحد بها الله الكلمة، فهل يسوع المسيح من جوهر الإنسان أيضًا؟ في «فعل الوحدة» وجد التعبير «من جوهر الإنسان»، فهل يجب الاحتفاظ والتمسّك به؟ . . . .

هكذا نرى أن اهتمام لاهوت ما بعد نيقيا وأفسس كان يدور حول حقيقة إنسانية يسوع المسيح، لا بمعنى أن الشك راود مرة أخرى اللاهوتيّين في إنسانيته (فهذا الشك قد انتهى مع «المظهرية» و«الأبّولينارية»)، بل بمعنى أن السؤال كان يدور حول مصير هذه الإنسانية (النزعة الأنطاكية) بعد وحدة شخص الكلمة المتجسّد، بعد

coptic-books.blogspot.com

اتّحاد الله الكلمة بالجسد (النزعة الاسكندرانية).

٣. ومن ضمن الظروف التي أوصلت الكنيسة إلى عقد مجمع خلقيدونيا، عدم وضوح المصطلحات اللاهوتية ـ ولا سيّما شخص (Prosopôn) وطبيعة (Ousia) ـ وضوحًا كافيًا، وذلك رغم «فعل الوحدة» بين الكنيستين الأنطاكية والاسكندرانية سنة ٤٣٣.

٤. وكذلك ما زالت العقليّتان مختلفتَين، فكنيسة الاسكندرية لم يزل لاهوتها يتميّز بفعل التجسّد، أي أنّه لاهوت تنازلي، في حين أنّ كنيسة أنطاكية ما زال لاهوتها يتّسم بنتيجة التجسّد، أي أنّه لاهوت تصاعدي. غير أنّ هذا الفرق بينهما لم يكن واضحًا في وعي كلتا الكنيستين، ولم تزل لغتهما مختلفة، دون أن يدركا سبب هذا الاختلاف.

لاهوت أوطيخس

في هذا الجوّ من التساؤلات اللاهوتية، برزت شخصية أوطيخس (Eutychès). وكان أرشيمندريت (هيجومينوس، أو «قمّص» كما نقول في طائفتنا القبطية) في دير من أديرة القسطنطينية. كان مناصري كيرلس، غير أنّه لم يكن لاهوتيًا محنّكًا كمعلّمه، بل كان محدودًا في إمكانياته، عنيدًا في طبعه.

تمحورت عقيدته حول رفضه أن يكون المسيح من طبيعتين بعد الاتّحاد. وسبب رفضه هذا يعود إلى اعتقاده بأن نتيجة فعل الاتّحاد (فعل التجسّد) هي «اختلاط» (Sugkhusis - Krasis) المميّزات والخصائص الإلهية والإنسانية في المسيح. فكان يعتقد بأن جسد المسيح أصبح مختلفًا عن جسدنا (دون الوقوع في بدعة «المظهرية»)، بمعنى أن الطبيعة الإلهية «امتصّت» (Absorber) الطبيعة البشرية، فتلاشت وزالت الإنسانية في الألوهية «كنقطة الماء في البحر».

coptic-books.blogspot.com

وإذا تساءلنا عن دافع نظرته اللاهوتية هذه، وجدنا ما وجدناه مرارًا من رفض لفعل «عثار التجسّد»، فلا يمكن ـ في نظره ـ أن تتّحد الطبيعة الإلهية بالطبيعة الإنسانية، لأنهما ليستا على المستوى نفسه، وبالتالي لأن الألوهية تمتصّ الإنسانية.

إلاّ أن لنظرة أوطيخس هذه ميزة لا ريب فيها. فهي تؤكّد لنا أن الطبيعتين الإلهية والإنسانية ليستا بالفعل على المستوى نفسه. فالإلهية أعظم بكل تأكيد من الإنسانية، وهذا ما سنجده في مجمع القسطنطينية الثالث مثلاً. ولذلك لا يمكن أن تضاف الطبيعة الإلهية إلى الطبيعة الإنسانية في عملية حسابية، وهذا ما سنراه في مجمع القسطنطينية الثاني مثلاً.

تدخّل اللاهوت اللاتيني

انعقدت كل المجامع إلى هذه اللحظة في الشرق وبفضل الآباء واللاهوتيّين الشرقيّين. ولكن، منذ تلك اللحظة، حدث تغيير بتدخّل البابا الروماني لاوون الكبير (Léon le Grand). فقد شعر بمسؤوليته الكنسية وكان يتميّز بكونه لاهوتيًا بكل معنى الكلمة (وكان متأثّرًا بلاهوت ترتليانس).

تيقّن أن لاهوت أوطيخس يتّسم بأخطاء واضحة، كما أنه يتضمّن مخاطر كامنة، منها خطر «المظهرية». ولقد حدث أن سينودسًا محليًا قد انعقد في القسطنطينية سنة ٤٤٨ وأدان أوطيخس، فاحتكم هذا بالبابا لاوون. وبعد الاطلاع على مضمون لاهوت أوطيخس، أرسل البابا لاوون خطابًا عقائديًا إلى أسقف القسطنطينية فلافيانس، معروفًا باسم «الكتاب إلى فلافيانس» (Tome à Flavien) شرح له فيه «سر المسيح» بعقلية لاتينية متّسمة بالرونق والجلالة والاتّزان. ويتلخّص لاهوت البابا في نقطتين:

١. إن لاهوته مماثل للاهوت كيرلس من حيث الاتحاد: «الإله

coptic-books.blogspot.com

الحقيقي وُلد كاملاً فيما هو له، كاملاً فيما هو لنا».

٢ . إن تعبيره اللاهوتي أقرب إلى مدرسة أنطاكية منه إلى مدرسة الإسكندرية، بتشديده على طبيعتين اثنتين متميّزتين. ففي أفعال يسوع المسيح مبدآن: الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية.

«مثلما لا يتغيّر الله بسبب رحمته، كذلك ليس الإنسان ممتصًّا بسبب الجلالة، فكل طبيعة تفعل فعلها بالشركة مع الأخرى».

التطورات المجمعية

حدث أن احتكم أوطيخس بالامبراطور ثيودوسيوس الثاني (Théodose II) الذي عقد مجمعًا في أفسس سنة ٤٤٩ وعُرف بمجمع أفسس الثاني، ترأسه ديوسقورس (Dioscore)، بطريرك الإسكندرية. وكان من المفروض أن يقرأ الأسقف فلافيانس خطاب البابا لاوون. لكن المجمع منعه من ذلك. وحدث أنه اشتدّ عنف آباء المجمع، لا بالكلام فحسب، بل بالأيدي أيضًا، فضُرب فلافيانس وحلفاؤه حتى مات فلافيانس بعد ذلك. وناصر مجمع أفسس الثاني أوطيخس بفضل ديوسقورس الذي صرّح بالتعبير: «طبيعة واحدة بعد الاتّحاد».

ولكن البابا لاوون الكبير نقض هذا التصريح، ووصف هذا المجمع بتعبير «لصوصية أفسس» (Brigandage d'Ephèse)، وسعى في عقد مجمع منافس في الغرب، إلاّ أنّ القرار حدّد مدينة نيقيا، وبعد ذلك استقرّ الرأي على عقد المجمع بمدينة خلقيدونيا وهي ضاحية من ضواحي القسطنطينية، ليتسنّى للامبراطور مارقيانس (Marcien) الإشراف عليه.

ولما انعقد المجمع، قامت الهتافات المناصرة لكيرلس ولاوون معًا، ولا سيّما لرسائلهما. كان لاهوتهما واحدًا، إلاّ أن تعبيرهما اللاهوتي كان مختلفًا كما رأينا، ولا سيّما فيما يختص بارتباط وحدة الشخص بتمييز

coptic-books.blogspot.com

الطبيعتين. فكان يجب إذًا تحرير نص عقائدي يدمج النظرتين. هذا ما قام به آباء مجمع خلقيدونيا.

نص خلقيدونيا العقائدي

يمكن تقسيم نصّ مجمع خلقيدونيا إلى قسمين، الأوّل عبارة عن ملخّص للمجامع السابقة (وهذه هي ميزة من ميزاته، فهو مجمع شامل ومتكامل)، والثاني ما أتى به من جديد خاص بتمييز الطبيعتين الإلهية والإنسانية. وسنحلّل كلاً من هذين القسمين:

خلقيدونيا ملخّص للمجامع الأخرى: يدعو هذا المجمع إلى ضرورة العودة إلى الكتاب المقدّس. كما يدعو أيضًا إلى العودة إلى **مجامع نيقيا والقسطنطينية الأول وأفسس، معترفًا خاصةً بقانون الإيمان الذي حُدِّد في نيقيا ـ القسطنطينية.**

وأمام كل ما حدث من جدال لاهوتي وفروقات وانقسامات واختلافات، يدعو المجمع إلى ضرورة «تعليم العقيدة الثابتة المعلنة منذ البداية». فالمجمع يريد الوصول إلى التعليم الواحد، للقضاء على الخلافات والصراعات. والجدير بالذكر أن مجمَعي نيقيا والقسطنطينية قد أصدرا «اعترافًا إيمانيًا» (Confession de foi) ورد في «قانون الإيمان» (Symbole de foi)، وأمّا مجمع خلقيدونيا فيبغي، بناءً على هذا الاعتراف الإيماني، إصدار «تعليم إيماني» (Enseignement de la foi) يستند أساسًا إلى الكتب والآباء، أي إلى التقليد الكنسي الشامل. فلقد أراد آباء خلقيدونيا أن يواصلوا عملية التسلّم والتسليم: يتسلّمون ما سبقهم من إيمان وتعليم، ويسلّمونه بدورهم إلى أبناء عصرهم بلغة عصرهم وعقليته.

وهذا هو النصّ على أعمدة ثلاثة: الأوّل خاص بألوهية المسيح والثالث بإنسانيته وهما عمودا التمييز، وأمّا العمود الثاني فخاصّ بوحدة شخصه:

coptic-books.blogspot.com

«يجب الاعتراف
بالابن الأحد نفسه،
ربّنا يسوع المسيح.

الكامل في الألوهيّة	هو نفسه	كامل في الإنسانيّة
الإله الحقيقيّ	هو نفسه	إنسان حقيقيّ من نفس عاقلة ومن جسد.
الذي هو والآب من جوهر واحد في ألوهيّته	هو نفسه	من جوهرنا نفسه في إنسانيّته، مثلنا في كلّ شيء ما عدا الخطيئة.
من الآب قبل الدهور في ألوهيّته	المولود	ولكن في آخر الأيّام، لنا ولأجل خلاصنا، من مريم العذراء أمّ الله في إنسانيّته.

هو المسيح
الأحد نفسه
ابن، ربّ،
ابن وحيد...»

بعض الملاحظات على هذا النصّ:

١. نقطة الانطلاق هي وحدة شخص المسيح، ونقطة الوصول كذلك (راجع العمود الثاني)، فضلًا عن الإصرار على الوحدة في كلمتي «هو نفسه» (le même) و«الأحد» (un seul). عُرف مجمع أفسس بأنّه مجمع وحدة شخص المسيح، وقد تسلّم منه مجمع خلقيدونيا هذا الاكتساب.

coptic-books.blogspot.com

٢ . أما التمييز بين الألوهية والإنسانية فهو داخل هذه الوحدة. فالاعتراف يخصّ وحدة شخص المسيح («يجب الاعتراف بالابن الأحد نفسه . . »). وأمّا التمييز، فليس اعترافًا إيمانيًا كالاعتراف بالوحدة، بل صفة وشرح للوحدة. فكأن النص يقول: نؤمن بالمسيح الواحد. وأمّا مميزاته وصفاته فهي أنه. . . في ألوهيته. . . في إنسانيته. . . .

٣ . يأتي التمييز في شكل متواز: الألوهية (العمود الأول) والإنسانية (العمود الثالث) + الأمر الذي سنشير إليه في نظرتنا النقدية على مجمع خلقيدونيا.

٤ . نظرًا إلى التشديد على ما سبق (خاصة في نيقيا وأفسس) في ألوهية المسيح، يكون مكسب خلقيدونيا أنه توسّع في إنسانيته، فمن الجدير بالملاحظة أن كل ما يخصّ الإنسانية هو أطول مما يخصّ الألوهية. لم يؤكّد مجمعا نيقيا وأفسس بالقدر الكافي على إنسانية المسيح، فأكّد عليها مجمع خلقيدونيا. ومن الملاحَظ أيضًا أن التعابير الخاصة بالألوهية مقتبسة من نيقيا («من جوهر الآب نفسه»: Homoousios)، فطبّق خلقيدونيا التعبير نفسه على الإنسانية («من جوهرنا نفسه»).

٥ . الإنسان مكوّن، بحسب العقلية اليونانية، من جسد ونفس. لذلك أكّد النص على هذه الحقيقة، ردًّا على بدعتين سابقتين: أمّا الجسد فعلى «المظهرية»، وأما «النفس العاقلة» فعلى «الأبّولينارية» التي كانت تنفي وجود نفس عاقلة في يسوع، لأنّ ألوهيته كانت تحل محلّها. ومن المهم أن يُشار إليه هو أنه، بعد التجسّد وفعل اتّحاد الكلمة بالإنسانية، تظل الإنسانية هذه كاملة ومن جوهرنا نفسه، فلا تتلاشى في الألوهية، كما ادّعاه أوطيخس. وأمّا ذكر الخطيئة، فيعود إلى عب ٢/ ١٧ و٤/ ١٥.

٦ . ولادة المسيح مزدوجة: «من الآب قبل الدهور»/ «في آخر

coptic-books.blogspot.com

الأيام. . . من مريم». فيمكن القول إنّ الكلمة الأزلي دخل تاريخ البشرية («قبل الدهور»/ «في آخر الأيام»). غير أننا سنرى، في نظرتنا النقدية، أن البعد التاريخي لم يظهر بالقدر الكافي في مجمع خلقيدونيا، خلافًا لمجمَعَي القسطنطينية الثاني والثالث من بعده.

ويجب الانتباه إلى أن لفظة «مولود» (gennèthenta) وردت مرة واحدة فقط، في الحديث عن الآب. وأمّا عن مريم، فاللفظة المستخدمة هي «من» (èk)، الأمر الذي جعل بعض اللاهوتيّين يحكمون بأن المسيح «مولود» حقًّا من الآب، لا من مريم. ولكن يمكن القول بأن لفظة «مولود» تخص الولادتَين، الإلهية والإنسانية (وبالتالي يمكن وضعها في العمود الثاني، لا الأول). على كل حال، أزال مجمع القسطنطينية هذا الالتباس، إذ إنّه تحدث عن «ولادتَين» ليسوع المسيح، الإلهية والإنسانية.

٧. الطابع الأخيري للولادة الثانية ظاهر في استخدام التعبير الكتابي «في آخر الأيام». فالولادة الإنسانية للكلمة هي خلق جديد، حدث «اسكاتولوجي» Eschaton = النهاية)، حين افتتح الكلمة نهاية الأزمنة بفعل تجسّده.

٨. الطابع الخلاصي واضح في التعبير «لنا ولأجل خلاصنا». على غرار ما نراه في نيقيا والقسطنطينية وأفسس وكل ما سبق من كتابات الآباء، فإن البعد «الايقونومي» حاضر في العقيدة، إن المسيح يتضامن تضامنًا تامًا مع البشرية. فبوسعه يخلّصها ويكون وسيطًا حقيقيًا بينها وبين الله.

٩. لقب مريم «أم الله» (Théotokos) مقتبس من مجمع أفسس. أكّده مجمع خلقيدونيا مرّة أخرى.

١٠. بين الكتاب المقدس والآباء: إن اتّزان مجمع خلقيدونيا هو نتيجة استخدام تعابير الآباء والمجامع من جهة (وهذا ما رأيناه إلى

coptic-books.blogspot.com

الآن) وتعابير كتابية من جهة أخرى، كألقاب المسيح (في العمود الأول) و«آخر الأيام» و«ما عدا الخطيئة». فيمكن اعتبار الكتاب المقدس نواة نص خلقيدونيا، وأمّا الآباء والمجامع فهي بمثابة شرح وتفسير للكتاب، كما سبق لنا أن كرّرناه مرارًا. وفي بقية النص يستخدم المجمع التعابير الفلسفية، كما سنراه الآن.

الجديد في نصّ خلقيدونيا: تدخّلت الفلسفة اليونانية في الجزء الثاني من نصّ خلقيدونيا، لأن الفلسفة هي بمثابة «أي» جديد، يشرح ما سبق في النصّ من الوحدة/ التمييز. وأما النص فقد وضعناه في ثلاثة أعمدة: الثاني يخص الوحدة، والأول والثالث يخصّان التمييز، ولكنه تمييز على خلاف نظرة أوطيخس (العمود الأول) ونسطوريوس (العمود الثالث):

«. . . المسيح الأحد نفسه
ابن وحيد، ابن، ربّ،
معترَف به في طبيعتَين اثنتَين

دون اختلاط ولا تغيير
بحيث إنّ اختلاف
الطبيعتين لا يزول أبدًا
بسبب الوحدة، بل تظلّ
خصائص كلّ من الطبيعتين كاملة

دون انقسام ولا انفصال،

وتلتقي في شخصيّة
واحدة أي في شخص واحد
لا في (كائن) مجزّأ أو منقسم
إلى شخصين
ولكن الابنَ الأحدَ نفسه
ابنٌ وحيد، إله، كلمة، ربّ،
يسوع المسيح».

coptic-books.blogspot.com

بعض الملاحظات على هذا النص

١ . «في طبيعتين» (en duo phusis): إن اللفظة اليونانية هي «en» (في)، لا «èk» (من). أمّا «èk» فهي خاصة بالمصدر، أي أنّ أصل المسيح طبيعتان، الإلهية والإنسانية. لكن النص هنا يذهب إلى أبعد من ذلك، عندما يستخدم لفظة «en»، أي أن المسيح، في الحالة بعد التجسّد، لا يزال ذا طبيعتين. فالمعنى المراد تأكيده هو أن المسيح واحد في طبيعتين، لا فقط انه شخص واحد وطبيعتان. والنص يؤكّد على أنّ، داخلَ شخص المسيح الواحد، طبيعتين، الإلهية والإنسانية.

٢ . «طبيعتان اثنتان»: نذكر أن بدعة أوطيخس أنكرت الطبيعتين، لأن الألوهية امتصت الإنسانية التي ذابت فيها كنقطة الماء في البحر. وأمّا مجمع خلقيدونيا فأراد أن يقول إنّ الله هو الله والإنسان هو الإنسان، بعد فعل التجسّد. لذلك استخدم المجمع الكلمتين «بدون اختلاط ولا تغيير»، لكن هذا التمييز بين الطبيعتين لا يعني إطلاقًا الوقوع في بدعة نسطوريوس الذي كان يقسّم المسيح إلى فاعلين، الإلهي والإنساني. لذلك استخدم المجمع الكلمتين «بدون انقسام ولا انفصال»، لإبراز وحدة شخص المسيح. ومن الملاحَظ أن استخدام «دون»... سلبي، ولا يفي إيجابيًا بطريقة الوحدة. وسنرى في نظرتنا النقدية كيف يمكن استبدال الطريقة السلبية (دون، لا) بطريقة أكثر إيجابية.

٣ . «دون اختلاط ولا تغيير»: إن الله الكلمة لم يفقد ذاته في فعل تجسّده، ولم يتحوّل بسبب اتحاده بالجسد، ومن جهة أخرى، لم يمتصّ الكلمة الإنسان، فلم تختلط الإنسانية بالألوهية بدون تمييز بينهما. وهذا ما يشرحه النص نفسه عندما يضيف شارحًا: «اختلاف الطبيعتين لا يزول أبدًا». فالله ليس الإنسان، والإنسان ليس الله، والفرق بينهما واضح، و«خصائص كل من الطبيعتين» لا تمتزج بخصائص الأخرى.

coptic-books.blogspot.com

هـذا التمييـز مـوجـود في الإنجيـل، فإنّ سلطة يسـوع في معجـزاتـه وتعاليمه. . . تعود إلى ألوهيته، في حين أن احتياجاته من جوع وعطش وتعب. . . تعـود إلى إنسانيتـه. لم تكن إذًا حياة يسـوع حيـاة بـطل أسطوري أو إله أسطوري، بل هي حياة إله كامل وإنسان كامل (ما عدا الخطيئة)، يحتفظ فيها الإله بألوهيته تمامًا والإنسان بإنسانيته تمامًا.

٤. «دون انقسام ولا انفصال»: فالكلمة المتجسّد كائن واحد لا كائنان ولا فاعلان، الواحد بقرب الآخر وخارج عنه، كما كان يدّعيه نسطوريوس، ولكنه مسيح واحد يتصرف تصرفًا إلهيًا إنسـانيًا في آن واحد. هذا هو إيمان أفسس، ولكن بلغة أنطاكية، بمعنى أن أفسس أكّد على وحدة شخص المسيح، وأن مدرسة أنطاكية كانت تُظهر التمييز بين الطبيعتين. وهذا التمييز لا يمنع الوحدة أبدًا، بل الكلمة الأخيرة في نصّ خلقيدونيا هي للوحدة، إذ إنّ بدايته ونهايته هي الوحدة، وأمّا الاختلاف والتمييز فداخلها.

٥. بين الشخصية والشخص: استخدم نص خلقيدونيا لفظتين مختلفتين للحديث عن يسوع المسيح: Prosôpon، وهي لفظة يونانية تـترجم اللفـظة الـلاتينيـة Persona التي تعني «الشخصيـــة»، ولفـظة Hupostasis التي تعني «الشخص». استُخدمت الكلمة اللاتينية نظرًا إلى أن اللاهوت اللاتيني قد دخل المجمع، فأراد الآباء التـأقلم بهذا الحدث. غير أن اللفظة اليونانية Hupostasis هي أكثر ثقلاً من اللفظة اللاتينية التي تدلّ بالأولى على «القناع»، إذ إنّ Persona هي القنـاع الذي كان يرتديه الممثّلون في المسرحية، في حين أن Hupostasis تدلّ على كائن قائم بحدّ ذاته.

٦. خلقيدونيا وكيرلس: كان كيرلس قد استخدم التعبير «الطبيعة الواحدة المتجسّدة لله الكلمة»، ظنًّا منه أن عبارة «الطبيعة الواحـدة» (mia phusis) هي لأثناسيوس، في حـين أنها بالفعـل لأبوليـناريوس، لذلك استخدمها، وإن كان إيمانه لا يرفض الـطبيعتين، بـالرغم من

coptic-books.blogspot.com

تشديده على الوحدة وبالرغم من كلامه على الطبيعتين من حيث المصدر (èk) أكثر منه من بعد التجسّد (en). ويقول في هذا الصدد: «الألوهيّة شيء والإنسانيّة شيء، إن أخذنا كلا منهما بحسب منطقها. ولكن في المسيح تجمّعتا في اتّحاد بطريقة عجيبة تفوق العقل، دون اختلاط ولا تغيير. وأمّا طريقة الوحدة فلا توصف إطلاقًا».

فنصّ خلقيدونيا لا يخالف كلام كيرلّس، لكنّه أكثر تشديدًا منه على التمييز داخل الوحدة.

مصادر نصّ خلقيدونيا

يمكننا، بعد أن حلّلنا النصّ، أن نتساءل ما هي مصادره، لأنّ آباء المجمع استندوا إلى نصوص سابقة للمجمع، نوردها مقابلة لنصّ المجمع نفسه:

نصّ خلقيدونيا	المصادر
يجب الاعتراف بالابن نفسه،	نعترف إذًا بسيّدنا
ربّنا يسوع المسيح	يسوع المسيح ابن الله الوحيد،
الكامل في الألوهيّة.	إله كامل
هو نفسه كامل في الإنسانيّة،	وإنسان كامل[1].
الإله الحقيقيّ	الإله الحقيقيّ
هو نفسه إنسان حقيقيّ	هو إنسان حقيقيّ أيضًا
من نفس عاقلة ومن جسد،	من نفس عاقلة ومن جسد.

(١) رسالة يوحنا الأنطاكي إلى كيرلس.

coptic-books.blogspot.com

نص خلقيدونيا	المصادر
الذي هو والآب من جوهر واحد في ألوهيته، هو نفسه من جوهرنا نفسه في إنسانيته، مثلنا في كل شيء ما عدا الخطيئة.	
المولود من الآب قبل الدهور في ألوهيته،	المولود من الآب قبل الدهور في ألوهيته، هو نفسه
ولكن في آخر الأيام، لنا ولأجل خلاصنا،	في آخر الأيام.
من مريم العذراء أم الله، في إنسانيته.	من مريم العذراء في إنسانيته
	لنا ولأجل خلاصنا، الذي هو والآب من جوهر واحد في ألوهيته، هو نفسه من جوهرنا نفسه في إنسانيته
هو المسيح الأحد نفسه، ابن، رب، ابن وحيد	
معترَف به في طبيعتين،	في كلتا الطبيعتين[٢].
دون اختلاط ولا تغيير، دون انقسام ولا انفصال،	
بحيث إنّ اختلاف الطبيعتين لا يزول أبدًا بسبب الوحدة،	إن اختلاف الطبيعتين لا يزول بسبب الوحدة[٣].

(٢) كتاب لاوون إلى فلافيانس.

(٣) خطاب فلافيانس إلى لاوون.

coptic-books.blogspot.com

نص خلقيدونيا	المصادر
بل إن خصائص كل من الطبيعتين تظل كاملة،	إن خصائص كلتا الطبيعتين، إذ هي محفوظة،
وتلتقي في شخصية واحدة،	تلتقي في شخصية واحدة[٤]
أي في شخص واحد.	في شخص واحد[٥]
لا في (كائن) مجزّأ أو منقسم إلى شخصين.	ـ دون انقسام إلى شخصين ـ
ولكن الابن الأحد نفسه. ابن وحيد وإله، كلمة، رب، يسوع المسيح.	الذي هو وحيد[٦].

إن هذه المقابلة بين نصّ خلقيدونيا ومصادره المختلفة تبيّن لنا إلى أي حدّ استعان آباء المجمع، بل وتأثّروا، بتبادل الرسائل الخاصة بشأن الموضوع المطروح. فكل مجمع وليد ما دار قبل انعقاده من مناقشات لاهوتية. ونتذكّر كيف أن مجمع أفسس هو بالفعل اعتراف برسائل كيرلس اللاهوتية.

نحن وخلقيدونيا

نريد، في هذا الجزء، إلقاء نظرة نقدية على مجمع خلقيدونيا من وجهة نظرنا العصرية. فسننطلق من بعض اعتراضات حديثة ومعاصرة وُجّهت إليه، لندقّق نظرنا في إنسانية يسوع المسيح التي نعير لها أهمية

(٤) كتاب لاوون إلى فلافيانس.

(٥) رسالة فلافيانس إلى لاوون.

(٦) رسالة تيودوريه.

coptic-books.blogspot.com

بالغة في لاهوت اليوم، وسنختم كلامنا بدراسة نص معاصر بديل لنص خلقيدونيا حرّرته أخيرًا الكنيسة القبطية والكنيسة الرومانية معًا.

بعض الاعتراضات الحديثة والمعاصرة

١. إن أول من اعترض على مجمع خلقيدونيا هو **لوثر** في قوله المأثور: «للمسيح طبيعتان. فما يهمّني ذلك؟ إذا حمل اسم المسيح العظيم المعزّي، فبفضل الخدمة والعمل اللّذين تحمّلهما، هذا ما يمنحه اسمه. فإذا كان في طبيعته إنسانًا وإلهًا، فهذا يخصّه. ولكن في كونه قد كرّس خدمته وأفاض محبته ليصبح مخلّصي وفاديّ، ففي ذلك أجد تعزيتي وخيري...».

كان لوثر يؤمن بمجمع خلقيدونيا. ولكن اعتراضه هذا دلالة واضحة تبيّن إلى أي حدّ تغيّرت الاهتمامات اللاهوتية والفكر اللاهوتي والثقافة اللاهوتية. فقبل لوثر، كان مدار الاهتمام «المسيح - في حد - ذاته»، «المسيح - لأجله» (Christ en soi)، الناحية الأنطولوجية من «المسيحانية». ولكن. بفضل لوثر، تحوّل مركز الاهتمام إلى «المسيح - لأجلنا» (Christ pour nous)، إلى الناحية الوظائفية من «المسيحانية». كان اللاهوت مجرّدًا، يركّز على «هويّة» المسيح (identité)، فأصبح، بفضل لوثر، لاهوتًا إيمانيًا وخلاصيًا، يركّز على «غيريّة» المسيح (Altérité).

فلوثر يضع إذًا فاصلاً بين التعبير اللاهوتي التقليدي والاختبار الإيماني لبني عصره، إذ طرأ تغيير حضاري وثقافي بين عصر الآباء وعصر النهضة. كما أنه يضع فاصلاً بين المسيح «في - ذاته» والمسيح «لأجلنا»، بين «هويّته» و«غيريّته»، بين «الثيولوجيّا» و«الايقونوميّا»، على خلاف الآباء تمامًا، فهم دمجوا هذين المستويين، ورأينا مرارًا الصلة الوثيقة القائمة بينهما. فإذا كان يسوع المسيح والآب من جوهر واحد، وكان المسيح من جوهرنا نفسه، كما أقرّه مجمع خلقيدونيا («هويّة»

coptic-books.blogspot.com

المسيح)، فذلك «لأجلنا ولأجل خلاصنا» («غيريّة» المسيح)، وإذا كان هـو مخلّصنا (الغيـريّة)، فـلأنه متضـامن كليًـا معنـا ومـع الله الآب («الهوية»). إن «الايقونوميّا» («الغيريّة») تعبّر تمـامًا عن «الثيـولوجيّـا» («الهويّة»). فلا يمكننا أبدًا أن نفصل بين «هويّة» المسيح إلهًا وإنسانًا بـطبيعته الإلهيـة والإنسانيـة، و«غيريّتـه» وعمله الخلاصي، بـل يجب الاحتفاظ بالصلة الوثيقة بين البُعدين[٧].

ونلاحظ، في اللاهوت الغربي الحديث (منذ لـوثر) والمعـاصر، تدقيقًا في الناحية الخلاصية من الإيمان والمسيحانية، على حساب الناحية الثيولوجية منها. ولكن يجب ألاّ ننسى أن المسيح قد خلّصنا من الخطيئة لكي نصبح أبناء الله («الهويّة» المسيحية). فالهدف هو الهويَّة (الله هو أب، ونحن أبناؤه)، والخلاص هو الوسيلة.

٢. **بولتمان (Bultmann)** المفسّر الألماني الشهير، يتساءل في خطى معلّمه لوثر: «هل هو يساعدني لأنه ابن الله، أم هو ابن الله لأنه يساعدني؟» فصل بولتمان بين الغيريّة (المساعدة) والهويّة (البنوّة)، لكنَّ الآباء ما فصلوا بينهما كما رأينـا. فالعنصران من الجملة ضروريـان، ويستدعي الواحد الآخر، فإن المسيح يخلّصني ويساعدني لأنه ابن الله، وأنا أختبره مخلّصًا ومساعدًا لأنه ابن الله، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، إني أختبره ابن الله لأنه خلّصني. لولا الخلاص لَما آمنت به ابنًا لله.

٣. الحالة الراهنة في الغرب:

آ) إن اللاهوت الغربي في أيامنا ـ عند الكاثوليك والبروتستانت ـ

---

(٧) لا ننسى أن يسوع قد عرّفنا «من هو»، وهو ابن الله المتجسّد. فلم يقتصر على تعريفنا «ماذا نفعل»، ولكنه قال لنا من هو، أي عرّفنا إلى هويّته. فإيمان المؤمن بالمسيح يقوده إلى معرفة مَن هو المسيح، لا ماذا يفعل المسيح فحسب.

coptic-books.blogspot.com

يُجمع على أن لغة خلقيدونيا لغة «أنطولوجية» (منها الحديث عن «الطبيعة»)، في حين أن لغة اليوم أكثر «تاريخية».

إن خلقيدونيا لا يُدخل شيئًا عن حياة يسوع التاريخية وارتباطه بشعبه (خلافًا لما سنراه في القسطنطينية ٢ و٣). لغة خلقيدونيا «جوهرية» متأثِّرة بالفلسفة اليونانية، في حين أن لغة اليوم هي أكثر «وجودية»، تهتم بمواقف وظروف حياة يسوع ووضعه البشري. . .، ما لم يتضمّنه خلقيدونيا. فثمّة هاوية حضارية وثقافية، وبالتالي لاهوتية، بين العقليتين، وإن بقي الإيمان واحدًا من خلقيدونيا إلى اليوم. إن خلقيدونيا لا يُظهر الصلة الجوهرية بين «هويّة» المسيح و«حدث» (Evénement) موته وقيامته، فإنه يفترض هذا الحدث، ولكنه لا يذكره. أمَّا لاهوت اليوم فإنه يربط ربطًا عضويًا بين الهويّة/ الغيريّة، بين الهويّة/ الحدث، وإن تركّز في الغرب ـ خطأً ـ على الحدث والايقونوميّا، على حساب الهويّة والثيولوجيّا.

ب) وهناك نقطة ثانية أثارها اللاهوت المعاصر وهي أن نصّ خلقيدونيا، مع أنّه أكّد على الوحدة/ التمييز، كما رأينا في تحليلنا له، لم يُغفل الازدواجية داخل شخص المسيح، إذ إنّ الألوهية قائمة إلى جانب الإنسانية (راجع في الجزء الأول العمود الأول والثالث)، فلا وجود، بين العنصرين، الإلهي والإنساني، للرباط والصلة والتفاعل بينهما. وسيكمن دور القسطنطينية الثاني في إيجاد العلاقة بينهما في التعبير اللاهوتي «تداخل الخصائص» (Communication des propriétés). وأمّا خلقيدونيا، فنصّه يقع في نوع من الثنائية (Dualisme) الخطيرة التي قد تؤدّي إلى تلاشي أحد العنصرين في الآخر وامتصاص أحدهما للآخر، أي الوقوع في المونوفيزية رغم التأكيد المبدئي على تمييز الطبيعتين.

ج) وهناك من عاب على خلقيدونيا استخدام كلمتي «طبيعة» و«جوهر» للدلالة على الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية. فثمّة فرق بين الاثنين، فكان لا بدّ للمجمع من أن يميّز بينهما، إن لم يكن في

coptic-books.blogspot.com

استخدام اللفظة نفسها، فعلى الأقل في إبراز الفرق بينهما مضمونًا واحتواء.

د) وأخيرًا. يحكم لاهوت اليوم على مجمع خلقيدونيا، بالرغم من أهميته اللاهوتية البالغة، أنه سبّب أول انشقاق كنسي. قبل هذا المجمع، اندثرت كل البدع والهرطقات. وأمّا بعد خلقيدونيا، فانشقّت الكنيسة إلى جانبين: من أقرّوا بالمجمع وهم المعروفون بـ«الخلقيدونيّين» (Chalcédoniens)، ومن لم يقرّوا به وهم «غير الخلقيدونيين» (Non-Chalcédoniens)، أي الكنائس القبطية والسريانية والأرمنية. فربما كان الحفاظ على الوحدة الكنسية أفضل من ابتكار صيغة لاهوتية جديدة، مهما كانت بالغة الأهمية. ولمّا تنبّه الخلقيدونيون إلى ذلك، بذلوا كل جهدهم في مصالحة غير الخلقيدونيين لا سيّما في مجمعي القسطنطينية ٢ و٣، ولكن الانشقاق كان قد تعمّق بين الكنائس.

٤ . **بين أهمية خلقيدونيا ونسبيّته**: بالرغم من كل ما سبق أن أشرنا إليه من مآخذ على مجمع خلقيدونيا، يجب الاعتراف بأهميته وضرورته بالنسبة إلى عصره، وهذا مبدأ هام في قراءة أي مجمع وفهمه: ينبغي وضعه في إطاره وظروفه التاريخية والكنسية واللاهوتية، وعدم الحكم عليه بعقلية غير عقليته.

ففي فترة أزمة عنيفة هددت الإيمان ـ كبدعة أوطيخس مثلاً ـ، كان على المسؤولين عن الكنيسة أن يقولوا كلمتهم فيفسّروا الكتاب ويقرأوا المجامع الأخرى بطريقة صحيحة سليمة مطابقة لوديعة الإيمان. هذا ما فعله آباء خلقيدونيا، عندما لخّصوا المجامع السابقة وترجموا في لغة عصرهم الفلسفية مضمون الإيمان الخاص بشخص يسوع المسيح من حيث هويّته (واحد في طبيعتين) وعمله الخلاصي. فأهمية نص عقائدي إنما تكمن في أن يصبح معيارًا ومرجعًا في وقت أزمة.

وفي الوقت نفسه، تظهر نسبيّة أي نصّ عقائدي مجمعي. فعندما

coptic-books.blogspot.com

يزول خطر تهديد الإيمان (فاليوم مثلاً، لا أحد يؤمن بهرطقة أوطيخس)، تقلّ أهمية النص نفسه، ولا سيّما وأن العقلية والثقافة والاهتمامات اللاهوتية تختلف عما كانت في وقت الأزمة. فلا قيمة مطلقة بالتالي لأي مجمع، فهو نقطة انطلاق في سبيل تطوّرات أخرى، وليس هو نقطة وصول نهائية. هكذا فهم الآباء تطوّر المجامع، إذ إنّهم استندوا إلى ما سبق من مجامع وعقائد وذهبوا إلى أبعد منها.

فالعقائد إنما هي خطوات في مسيرة الكنيسة في فهم وتفسير وترجمة «وديعة الإيمان»: الكتاب المقدس أساسًا، والمجامع التي فسّرته.

وقد رأينا أن نسبيّة العقائد هذه لا تعني إطلاقًا بطلانها أو عدم أهميتها في وقت لاحق للمجامع، بل هي عملية «تسلّم وتسليم» وديعة الإيمان. فمجمع خلقيدونيا تسلّم من المجامع السابقة تفاسيرها للكتاب المقدّس، وسلّم بدوره للأجيال الكنسية اللاحقة فهمه لسرّ المسيح وتعبيره عن هذا السرّ بلغة العصر.

الحفاظ على حقيقة إنسانية المسيح

إن ميزة خلقيدونيا الأساسية هي الحفاظ على حقيقة إنسانية يسوع المسيح، وكانت مهدّدة في لاهوت أوطيخس ومن بعده في لاهوت «المونوفيزية» (الطبيعة الواحدة)، فهي لا تميّز بين الطبيعين، فيكون أن إحدى الطبيعتين تمتصّ الطبيعة الأخرى، وبالأخص أن الطبيعة الإلهية تمتصّ الإنسانية لأنّها أعظم منها.

ونريد، في هذه الفقرة، أن نحلّل الحفاظ على إنسانية يسوع المسيح. ونتناول هذا الموضوع من أربعة زوايا متكاملة: من الله إلى الإنسان - من الإنسان إلى الله - من الله إلى الله - من الإنسان إلى الإنسان.

coptic-books.blogspot.com

١ . **من الله إلى الإنسان:** إن الله الكلمة دمج إنسانيته في ألوهيته دون أن يمتصّها، لأن دمجه هذا كان بـ«الإفراغ» (kénosis)، أي التجرّد الكامل (راجع فل ٢/٦). إن اقتراب الله من الإنسان لا يعني إطلاقًا إزالته، لأن الله يحترم الإنسان، ويحترم الغيريّة أو التمييز الله/ الإنسان. وإن اقتراب الله من الإنسان يحترم ابتعاد الله عن الإنسان، فهناك الاقتراب/ الابتعاد في الوقت نفسه، والمسيحية هي ديانة الله البعيد/ القريب، المتعالي/ الحاضر، المتسامي/ الحالّ. وليس العنصران في نسبة عكسية بحيث إنّ الواحد ينمو فينقص الآخر، ولكن المسيحية تؤكّد على نقيض ذلك، فكلّما نما وعظم الإنسان، تمجّد الله. ويقول إيريناوس في هذا الصدد: «مجد الله هو الإنسان الحي». فالإنسان يصبح إنسانًا كاملاً وينمو نموًا كاملاً كلّما اقترب من الله واتّحد به. إن الإنسان يجد كيانه ويحقّق ذاته، كلّما اقترب من الله واتّحد به.

ويكمن هذا في سرّ محبة الله الذي يحترم حرية الإنسان، وفي سر التجسّد الإلهي الذي يأخذ الطبيعة البشرية ليكمّلها ويبلغ بها إلى كمالها. إن المسيحية تختلف كل الاختلاف عن ديانات الشرق الأقصى التي ترى أن الإنسان يتحقّق بقدر ما يتلاشى في الكائن المطلق الشامل (النرفانا ـ Nirvana)، كما أنها تختلف عن الفكر اليوناني الذي كان يرى أن الإنسان بوسعه أن يصبح إلهًا بقدر ما تتلاشى إنسانيته، وكما أنها تختلف عن الإسلام الذي لا يتصوّر أن يقترب الله من الإنسان إلى حدّ التجسّد. فسرّ التجسّد هو أن الله الكلمة أصبح يسوع الناصري، دون أن تذوب خصائص الطبيعة البشرية في الطبيعة الإلهية، بل التجسّد يبلغ بالإنسان إلى ملء إنسانيته.

٢ . **من الإنسان إلى الله:** نجد في الإنجيل حوارًا، داخل يسوع، بين الإله والإنسان. فإن كانت الألوهية قد أثّرت في الإنسانية (القدرة، السلطة، معرفة الآب، معرفة قصد الآب...)، إلاّ أن اللاهوت المسيحي لم يُظهر بالقدر الكافي مدى تأثير الإنسانية في

coptic-books.blogspot.com

الألوهية، ولكن الفكرة كامنة في أنّ يسوع قد عانى من الصراع والألم والموت فعانى منها الكلمة المتجسّد. فالذي كان يعاني كان، في الوقت نفسه، ابن الآب الأزلي وابن الإنسان الزمني. وعلاقة الآب بابنه الأزلي كانت علاقة الآب بابنه المتألم والمائت. فالابن الحبيب الذي رضي الآب عنه هو يسوع الناصري، الإنسان المحدود في الزمان والمكان، في أقواله وأعماله، الإنسان الذي أطاعه حتى الموت على الصليب، بل تعلّم الطاعة، كما تقول الرسالة إلى العبرانيّين، مع أنه كان ابنًا (عب ٥/٧ +).

ومن جهة أخرى، أثَّرت إنسانية يسوع المسيح في الله نفسه بالصعود، لا بالتجسّد فحسب. فدخول المسيح في الثالوث بجسده المجيد، إنما هو دخول البشرية بأجمعها في أحضان الثالوث، لأن يسوع المسيح المجيد هو «جامع ـ دامج» (Récapitulant : أف ١/١٠) البشرية كلها. إن هذه الفكرة، وإن لم تكن واردة في مجمع خلقيدونيا، إلاّ أنّ بذرتها هي في التمييز بين الألوهية والإنسانية، وستظهر صيغتها في مجمع القسطنطينية الثاني الذي سيتكلم على «تداخل الخصائص» (Communication des propriétés)، أي التأثير المتبادل بين الطبيعتين، الواحدة في الأخرى.

٣. من الله إلى الله: إن الحركة التي رسمناها، من الله إلى الإنسان ومن الإنسان إلى الله، هي خاصّة بسرّ الله، فلا يستطيع الإنسان أن يقوم بها، ولكن الله، بمبادرته المطلقة، بوسعه أن يفعل المستحيل وما يعجز الإنسان أن يفعله. فالله ـ والله وحده ـ بوسعه أن يدمج إنسانًا، محترمًا «غيريّة» هذا الإنسان، دون امتصاص هذا الإنسان. الله ـ والله وحده ـ باستطاعته أن يصبح إنسانًا، دون أن يفقد ألوهيته. الله ـ والله وحده ـ بقدرته أن يقترب من الإنسان دون أن يزول تعاليه وتساميه. الله ـ والله وحده ـ فوق كل تناقض أو تعارض، مهما قام به من محبة، كما فعل عندما تجسَّد ومات على الصليب.

coptic-books.blogspot.com

وهنا يجدر الانتباه إلى أن الإسلام يشدّد تشديدًا على تعالي الله. وهو في ذلك يُنصف الله تمامًا. فالله هو المتعالي مطلقًا. والمسيحية أيضًا تؤمن بأن الله متعالٍ مطلقًا. ولكن الفرق بينهما إنما هو في أن تعالي الله في الإسلام يمنعه من أن يتجسَّد، في حين أن محبة الله في المسيحية تبلغ أقصى درجاتها في أنّه يتجسّد، بل وأن يموت مصلوبًا، وذلك دون أن يفقد تعاليه(٨). فإن كان الإسلام يركّز على تعالي الله، فالمسيحية تركّز على محبته. إن منطلق الديانتين مختلف، ونتائج هذا المنطلق مختلفة: التوحيد في الإسلام، الثالوث في المسيحية.

٤ . من الإنسان إلى الإنسان: ولكن قد يتبادر إلى الذهن تساؤل حول إنسانية الله الكلمة. فإن كان الكلمة إنسانًا كاملاً، مثلنا في كل شيء، «ما عدا الخطيئة»، فهل هو يظل إنسانًا حقيقيًا؟ إن يسوع المسيح هو الإنسان بدون خطيئة، كما أراد الله الإنسان وخلقه في البدء. إن يسوع المسيح هو هذا الإنسان بدون خطيئة، فَقَبِل أن يعيش في ظروف الخطيئة، وفي هذا يكمن جانب من جوانب «إفراغه». فسِرّ «إفراغ» يسوع المسيح هو أنه عاش في حياة تمسّها الخطيئة وفي علاقات تمسّها الخطيئة. إن يسوع المسيح هو هذا الإنسان الذي اختار الله ورفض الخطيئة بالحرية نفسها التي جعلت آدم يختار الخطيئة ويرفض الله. فإن «الإفراغ» هو قبول جسد الخطيئة (دون الوقوع في الخطيئة)، والخطيئة هي رفض «الافراغ». فآدم قد رفض الطاعة لله والتواضع أمامه والاعتراف بها ربًّا وإلهًا وسيّدًا: هذا ما رفضه آدم. وأما يسوع المسيح فذهب به «الافراغ» إلى الطاعة والطاعة حتى الموت والموت على الصليب.

بهذا المعنى إذًا، يمكن القول إنّ يسوع المسيح إنسان حقًا، وإنه

(٨) في الاتجاه نفسه: إن القرآن ـ في الإسلام ـ كلام الله. وأمّا في المسيحية، فكلمة الله هذه حالّة، لا في كتاب (القرآن أو حتى الإنجيل) بل في إنسان (يسوع).

coptic-books.blogspot.com

كان إنسانًا حرًا تمامًا. فقد جُرِّب كآدم وككل إنسان، ولكنه اختار دائمًا الله، لا نفسه، كما فعل آدم وكما يفعل كل إنسان. اختار أن يعيد كل شيء إلى الله مرجع كل شيء، لا أن يحتفظ به كآدم وككل إنسان. هذا وقد قارن الآباء بين تجربة آدم في الفردوس وتجربة يسوع في البرية، فتحدث إيريناوس عن عصيان آدم وطاعة يسوع. بل إنّ يسوع المسيح، بعد أن عاش تجربة آدم، حوّل فشل آدم إلى انتصار، إذ إنّه انتصر على المجرّب. فبهذا المعنى إنه «جمع ـ دمج» (Récapituler) تجربة البشرية وعصيانها وحوّلها إلى انتصار، بعدم وقوعه في التجربة وبطاعته الآب.

إن حرية يسوع ـ وهو مثلنا في كل شيء ما عدا الخطيئة ـ تكمن في أنه قال دائمًا: «نعم» لله، في حين أن آدم وكل إنسان يقول: «لا»، وأن هذا الـ«نعم» هو تحرير الإنسان من الـ«لا»، هو خلاصه من الخطيئة. فتظهر إذًا إنسانية يسوع في حرية اختياره كسائر البشر، اختياره المطلق لله.

ما بعد صيغة خلقيدونيا

في أيار (مايو) ١٩٧٣، اجتمع في رومة البابا بولس السادس (رومة) وشنوده الثالث (الاسكندرية)، بعد انقسام بين الكنيستين دام منذ خلقيدونيا ٤٥١، أي أكثر من ١٥٠٠ عام. فعبّرا عن إيمان كنيستهما في اعتراف موحّد تعدّى خلافات خلقيدونيا، ولا سيّما لفظة «طبيعة» التي لم ترد في الاعتراف الإيماني «المشترك» (انظر إلى النص المرفق). وبعد زيارة الأنبا شنوده لبابا رومة، وعلى أثر الاعتراف الإيماني الموحَّد، تكوّنت في مصر لجنة للبحث في مواضيع مسكونية أخرى (انظر إلى النص المرفق).

coptic-books.blogspot.com

البيان المشترك

الذي صدر عن قداسة البابا بولس السادس وقداسة البابا شنوده الثالث ووقّعا عليه يوم ١٠ أيار (مايو) ١٩٧٣ بالفاتيكان.

بولس السادس، أسقف روما وبابا الكنيسة الكاثوليكية. وشنوده الثالث، بابا الاسكندرية وبطريرك الكرسي المرقسي، يقدمان الشكر لله في الروح القدس، إذ إنّه، بعد عودة رفات القديس مرقس إلى مصر، قد نمت العلاقات بين كنيستي روما والاسكندرية. وازدادت بعد ذلك الحدث العظيم، حتى أمكن الآن أن يصير بينهما لقاء شخصي. وهما يرغبان، في ختام اجتماعاتهما ومحادثتهما، أن يقرِّرا معًا ما يلي:

لقد تقابلنا، تحدونا الرغبة في تعميق العلاقات بين كنيستينا وإيجاد وسائط واضحة المعالم وفعّالة للتغلّب على العقبات التي تقف عائقًا، في سبيل تعاون حقيقي بيننا في خدمة ربّنا يسوع المسيح الذي أعطانا خدمة المصالحة لنصالح العالم فيه (٢ قور ٥/١٨ - ٢٠).

وطبقًا لتقاليدنا الرسولية المسلَّمة لكنيستينا والمحفوظة فيهما، ووفقًا للمجامع المسكونية الثلاثة الأولى، نقرّ بأن لنا إيمانًا واحدًا، بإله واحد مثلث الأقانيم، وبلاهوت ابن الله الوحيد، الأقنوم الثاني من الثالوث القدوس، كلمة الله وضياء مجده وصورة جوهره، الذي تجسّد من أجلنا، متَّخذًا له جسدًا حقيقيًا ذا نفس ناطقة عاقلة، وصار مشاركًا إيّانا في إنسانيتنا، ولكن بغير خطيئة.

ونقرّ بأن ربّنا وإلهنا ومخلّصنا وملكنا كلنا، يسوع المسيح، إله كامل من حيث لاهوته، إنسان كامل من حيث ناسوته، وأن فيه قد اتّحد اللاهوت بالناسوت اتّحادًا حقيقيًا كاملاً بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تشويش ولا تغيير، ولا تقسيم، ولا افتراق. فلاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة أو طرفة عين، وأنه، وهو الإله الأزلي الأبدي غير المنظور، صار منظورًا في الجسد واتّخذ صورة عبد وفيه حُفظت كل

coptic-books.blogspot.com

خصائص اللاهوت وكل خصائص الناسوت جميعًا باتّحاد حقيقي كامل، اتّحاد لا يقبل التجزئة أو الانقسام ولا يقبل الانفصال.

وقد أعطيت لنا الحياة الإلهية، وهي تنمو فينا بواسطة أسرار المسيح السبعة في كنيسته: المعمودية، التثبيت، القربان المقدّس، التوبة، مسحة المرضى، الزواج، الدرجات المقدّسة (الكهنوت).

ونحن نكرم العذراء مريم أم النور الحقيقي، ونعترف بأنها دائمة البتولية وأنّها والدة الإله، وأنّها بصفتها والدة الإله تفوق كرامتها جميع الطغمات الملائكية.

ولنا - إلى حدّ كبير - المفهوم الواحد عن الكنيسة التي أسّسها الرسل، والمفهوم الواحد أيضًا عن الدور المهمّ للمجامع المسكونيّة والمحلّيّة (انظر أيضًا نصّ الاتّفاق المشترك، في آخر الفصل، ص١١٠).

تحليل للاعتراف الإيماني الموحّد بشأن المسيحانية

نعترف بالإيمان الواحد بالله الواحد والثالوث، بألوهية الابن الوحيد لله الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، كلمة الله، شعاع مجده، التعبير عن جوهره، الذي تجسّد لأجلنا دامجًا لأجل ذاته جسدًا حقيقيًا ونفسًا عاقلة، الذي شارك في إنسانيتنا ما عدا الخطيئة.

نعترف أن سيدنا وإلهنا، ومخلّصنا وملكنا كلّنا يسوع المسيح هو إله حقيقي بحسب الألوهية، وإنسان حقيقي بحسب الإنسانية. فيه ألوهيته متّحدة بإنسانيته في وحدة حقيقية بدون اختلاط ولا انصهار ولا امتزاج، بدون تغيير ولا انقسام ولا انفصال. إن ألوهيته لم تفارق قط إنسانيته لحظة واحدة ولا غمضة عين. هو، الإله الأزلي غير المرئي، أصبح مرئيًا في جسده واتّخذ شكل العبد. فيه تُحفظ كلّ خصائص الألوهية والإنسانية، متّحدة بطريقة حقيقية وكاملة لا تقبل الانقسام ولا الانفصال.

coptic-books.blogspot.com

اللجنة المشتركة
بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة القبطية الأرثوذكسية
القاهرة في ٢٦ - ٣٠ آذار (مارس) ١٩٧٤

بيان عن موضوع لاهوت المسيح

في ما يتعلق بفهم كنيستينا عن موضوع لاهوت المسيح، وكعلامة لنموّ جديد في ما أكّده رؤساؤنا الدينيّون في بيانهم المشترك، اتّفق أعضاء اللجنة المختلطة على الآتي:

١. إننا نعترف بأن الوحدة التي تمّت في التجسّد بين لاهوت السيد المسيح وناسوته هي سرّ لا يسع العقل البشري أن يستوعبه، وهو فوق كل وصف وتعبير وتحديد.

٢. يجب أن نعترف، بكل تواضع، بقصور عقلنا عن إدراك هذه الحقيقة. وهل لنا من الكفاءة أن نجد في لغتنا البشرية الكلمات المناسبة للتعبير تمامًا عنها؟

٣. بحسب حقيقة خلاصنا التي أوحاها لنا الروح القدس في الكتب المقدسة وتقليد الآباء المشترك، قبل الانفصال، نعترف معًا بأن أحد أقانيم الثالوث الأقدس، الأقنوم الثاني الذي هو إله حقيقي، اتّخذ جسدًا حقيقيًا، فيه نفس عاقلة، من العذراء القديسة مريم، وذلك لتدبير خلاصنا، وأن هذا الجسد الحي لم يوجد قبل الوحدة، ولكنه بقي جسدًا بالرغم من تمجيده، بعد القيامة والصعود اللائقَين بالله. وأنه، في اللحظة ذاتها التي اتّخذ فيها كلمة الله جسدًا في أحشاء العذراء، اتّحد الأقنوم الثاني للثالوث الأقدس بالناسوت الكامل الذي اتّخذه من العذراء، وأصبح الكلمة نفسه الواحد ذاته، والمساوي للآب في الجوهر بحسب ألوهيته، مساويًا لنا بحسب إنسانيته.

coptic-books.blogspot.com

٤. كما أننا نعترف بالإيمان المعلن أعلاه، وفقًا للمجامع المسكونية الثلاثة الأولى، ولا نعترف بالأريوسية والأبولينارية والنسطورية والأوطيخية، بل نعترف بالإيمان المعبَّر عنه في قانون إيمان مجمعَي نيقية والقسطنطينية. ولا نزال نحتاج إلى تعبير للمصالحة بين ما يعتقد به الأرثوذكس غير الخلقيدونيّين: طبيعة من طبيعتين أو طبيعة تملك خصائص الطبيعتين وصفاتهما، وبين ما يعتقد به الكاثوليك الخلقيدونيون: طبيعة من طبيعتين.

٥. إننا نقبل وحدة حقيقية كاملة في السيد المسيح، لا اقترانًا أو توفيقًا بين أقنومَين أو كيانَين. عندما يرفض الطرف الأرثوذكسي الثنائية فيه، إنما يرغب في التأكيد على أن كل عمل يقوم به السيد المسيح إنما هو فعل الكلمة المتجسّد، ولا أن بعض أعماله تُنسب إلى ألوهيته فقط، وبعضها الآخر إلى إنسانيته فقط، كما قد يبدو. وعندما يعترف الكاثوليك بإيمانهم في السيد المسيح، لا ينفون حينئذٍ ما يقوله الأرثوذكس، بل يريدون إظهار أن جميع خصائص اللاهوت والناسوت مصونة في السيد المسيح، وهذا ما لا يزال الأرثوذكس يعترفون به.

٦. عندما يعترف الأرثوذكس بأن لاهوت السيد المسيح وناسوته متّحدان في طبيعة واحدة، لا يعنون، بكلمة طبيعة، طبيعة محض وبسيطة، بل بالأحرى طبيعة مركّبة يتّحد فيها اللاهوت والناسوت بطريقة غير قابلة للانفصال والاختلاط. وعندما يعترف الكاثوليك بأن يسوع المسيح واحد في طبيعتين، لا يفصلون فيه اللاهوت عن الناسوت ولا غمضة عين، بل يحاولون بالأحرى تفادي الاختلاط والمزج والتشويش والتغيير.

٧. يشدّد الطرف الأرثوذكسي، في وحدة السيد المسيح، على حقيقة ناسوته، لأن خلاص الجنس البشري لا يمن أن يكون إلاّ فعل

coptic-books.blogspot.com

كلمة الله المتجسّد. واللاهوت لم يفارق، في المسيح، بل لم يكن في استطاعته أن يفارق، الناسوت لحظة واحدة أثناء الصلب أو بعده. وفي سرّ القربان، يشترك المؤمن في جسد السيد المسيح ودمه، مما يؤكد واقع ناسوته. ومن جهة أخرى، يشدّد الطرف الأرثوذكسي على حقيقة لاهوت السيد المسيح، الكلمة الذي كان ولا يزال الإله الحقيقي المتجسّد. ولذلك فإن قيامة السيد المسيح هي بداهة نتيجتها اللاهوت، ممَّا يشرح الأهمية المعروفة التي يوليها الأرثوذكس لعيد القيامة المجيد.

٨. وهذا الاهتمام هو بالذات اهتمام الكاثوليك بأن يعترفوا بحقيقة الناسوت في السيد المسيح كوسيلة ضرورية لخلاصنا. ولكنهم يؤكّدون أيضًا أن خلاصنا فعل خاص بكلمة الله. ويعتقدون أيضًا بأنه لم يحصل قط انفصال بين اللاهوت والناسوت في يسوع المسيح في لحظة الصلب ولحظة الموت، وفي النزول إلى الجحيم.

٩. هذا هو إيماننا في سر تجسّد سيّدنا يسوع المسيح وفي سرّ تدبير خلاصنا. وفي هذا نحن كلنا متّفقون.

١٠. واللجنة المشتركة مقتنعة بأن هذا البيان يستطيع أن يخدم، لا كنيستينا فقط، بل يمكن أن يُستعمل مثالاً للتعبير الصادق لعقائدنا، وفي علاقاتنا مع سائر الكنائس والطوائف المسيحية الأخرى.

وهذه هي التعليقات على الاعتراف الإيماني المشترك وبيان اللجنة المشتركة:

١. إن الاعتراف الإيماني يدقّق النظر في «فعل» التجسّد والمبادرة الإلهية، لا في «نتائجه» أو حالة الكلمة بعد التجسّد. ولقد سبق لنا أن قلنا إنّ هذه الرؤية اسكندرانية أكثر منها لاتينية.

٢. إن الاعتراف الإيماني يشدّد على «وحدة» شخص يسوع المسيح،

coptic-books.blogspot.com

أكثر منه على «التمييز» بين الطبيعتين، وما التمييـز إلاّ في سبيل الوحدة. وسبق لنا أن رأينا أن وجهة النظر هذه اسكندرانية، ولا سيّما كيرلسية، أكثر منها لاتينية، إذ نتذكر أن البابا لاوون الكبير قد شدّد على التمييز، وإن كان التمييز في سبيـل الوحـدة عنده أيضًا.

٣. إن لغة هذا الاعتراف الإيماني وعقليتـه وفلسفته خـاصّة بـالقرن الخامس، وهو القرن الذي انقسمت فيه الكنائس المسيحيّـة، لا بالقرن العشرين.

٤. تقديرنا الشخصي أن كنيسة رومة أرادت، من خلال هذا الاعتراف الإيمـاني المشترك، التعبـير عن محبتها لكنيسـة الاسكندريـة، بعد انقسام طال ١٥٠٠ عامًا.

فلأجل هذا اللقاء، وبغية إيجاد اعتراف إيماني موحَّد يجمعهما، قَبِل بابا رومة أن يلتقي كنيسة الاسكندرية بعقليتها ولغتها ولاهوتها، مضحّيًا بما تتميّز به كنيسـة رومة. ونجـد في ذلك مثـالاً عظيـمًا للحفاظ على وحدة الكنيسة، وإن تطلّب الأمر التضحية باللاهوت نفسه. لا نقول تضحية «الإيمان»، فالإيمان واحد ، بل تضحية «اللاهوت» الذي هو تعبير عن الإيمان، وثمّة تعابير عديـدة عن الإيمـان الواحـد. فالعـبرة من هذا الاعـتراف الإيماني أن وحـدة الكنيسة أعظم وأهم من اللاهوت، وهذا ما لم يتنبّه إليه كافّة آباء خلقيدونيا.

٥. أمّا بيان اللجنـة المشتركـة، وهو تحليـل لاهوتيـين من الكنيستين القبطيتين الأرثوذكسية والكـاثوليكيـة، فهو يـوضّح عـلى الصعيد الـلاهوتي بعض المفـاهيم والنيّات الـواردة في الاعتراف الإيمـاني المشترك. وله الفضل في ذلك. غير أنّه كان من المنتظر أن يعبِّر لاهوتيون عن إيمانهم الواحد بلغة العصر، لا بلغة القرن الخامس. فإن قبلنا أن يكون الاعتراف الإيماني المشترك بلغة القرن الخامس،

coptic-books.blogspot.com

بغية التلاقي بين الكنيستين لم تتلاقيا منذ ١٥٠٠ عامًا، إلاّ أنّنا كنّا نتوقّع أن يتقدّم اللاهوتيون المسيرة نحو صيغة وتحليل ولاهوت أكثر ملاءمة مع العصر وعقليّته ولغته وفلسفته وتطوّره منذ القرن الخامس.

الاتّفاق المشترك

بين البابا شنوده الثالث والوفد الكاثوليكيّ (الأقباط الكاثوليك وروما».

- «نؤمن بأنّ ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح الكلمة المتجسّد هو كامل في لاهوته وكامل في ناسوته. وجعل ناسوته واحدًا مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ولا تشويش. ولاهوته لم ينفصل عن ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين. وفي نفس الوقت نحرّم عقائد كلّ من نسطور وأوطاخي» (دير الأنبا بيشوي في ١٢/ ٢/ ٨٨).
- «نحن نؤمن بأنّ إلٰهنا ومخلّصنا يسوع المسيح هو الله الابن المتجسّد كامل في لاهوته وكامل في ناسوته. لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين. لاهوته واحد مع ناسوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير في إيماننا المشترك بإلٰهنا يسوع المسيح، نرى نحن أنّ سرّه لا يُنطق به ولا ينضب» (دير الأنبا بيشوي في ٢٦/ ١٠/ ٩١).

coptic-books.blogspot.com

الجزء الثاني — الفصل الثامن

مجمع القسطنطينية الثاني ٥٥٣

بين مجمع خلقيدونيا (٤٥١) ومجمع القسطنطينية الثاني (٥٥٣)، مرّ أكثر من قرن حدثت فيه نزاعات كنسية ولاهوتية أدّت إلى تدخّل السلطة المدنية، إذ إنّ الأباطرة اعتبروا أنفسهم لاهوتيّين، فتدخّلوا في الشئون الدينية، حفاظًا على السلام. ولقد اشتدّت النزاعات بعد مجمع خلقيدونيا، فإنه لم يحظَ بإجماع الكنائس، بل ظلّ الخلقيدونيون أكثر من نصف قرن أقلّية في الشرق بين النسطوريين من جهة والمونوفيزيين (أصحاب «الطبيعة الواحدة») من جهة أخرى. أما المونوفيزيون فكانوا مخلصين لكيرلس، لا لأوطيخس، وكانوا يستندون إلى كلمة كيرلس: «الطبيعة الوحيدة المتجسّدة لله الكلمة» (كنيسة الاسكندرية وساويرس الأنطاكي خاصّة).

ويسبب انشقاق الكنيسة من بعد خلقيدونيا، أراد الامبراطور اللاهوتي جوستينيانس (Justinien) التوفيق بين الخلقيدونيين والمونوفيزيّين، خاصةً من حيث اللغة، إذ إنّ المفاهيم قد وُضّحت، ولا سيّما Phusis (طبيعة) وHupostasis (شخص)، ما لم يكن في أيّام كيرلس. ولقد سمّى المؤرّخون هذه المحاولة التوفيقية «الخلقيدونية

coptic-books.blogspot.com

الحديثة (Néo-Chalcédonisme). ولذلك اعتُبر مجمع القسطنطينية الثاني عودة إلى مجمع أفسس[1] لإرضاء غير الخلقيدونيّين وضمّهم إلى صف الخلقيدونيين.

وكان الامبراطور يريد، في سبيل ذلك، أن يدين بعض الأنطاكيين[2]، إذ إنّه كان يتّهمهم بالنسطورية المخالفة تمامًا لإيمان كيرلس فأفسس، كما كان يرفض لاهوت أوريجانس، مع أنه كان اسكندرانيًا. غير أن البابا فيجيليوس (Vigilius) رفض الإدانة، وكان المعروف عنه أنه ضعيف. فطلب الامبراطور إلى المجمع إسقاط اسم البابا من لائحة الشركة الكنسية، وتوصّل إلى ذلك وإلى إدانة الأنطاكيين النسطوريين.

وأمّا البابا الذي لم يشترك في المجمع، فقد اعترف به وبقراراته من بعد انعقاده، وكذلك البابا بيلاجيوس (Pélagius) وسائر البابوات، وهذه هي ظاهرة التقبّل والتسلّم لمجامع غير مسكونية أصبحت، فيما بعد، مسكونية في الواقع، كما رأيناه في القسطنطينية الأول مثلاً.

ويظل مجمع القسطنطينية الثاني مجمعًا «مسيحانيًا» بتمام معنى الكلمة، وفي ذلك تكمن ميزته، بالرغم من الإدانات الواردة فيه. فما كانت إشكاليته؟

إشكالية القسطنطينية الثاني

تفسير خلقيدونيا

سبق لنا أن أوضحنا ما هي ظاهرة «التثنية» (deutérose)، أي

(١) أما مجمع القسطنطينية الثالث فسيعود مرة أخرى إلى خلقيدونيا.

(٢) ولا سيّما ثلاثة منهم: Théodoret de Cyr, Ibas d'Edesse, Théodore de Mopsueste.

coptic-books.blogspot.com

تجديد قراءة مجمع لمجمع آخر، فقد فسّر أفسس قانون الإيمان النيقي القسطنطيني (الأوّل)، كما لخّص خلقيدونيا ما سبقه من مجامع. وكذلك، أراد القسطنطينية الثاني شرح خلقيدونيا، كما سنراه، وخاصةً العبارة «في طبيعتين» المرفوضة من قبل الأنطاكيّين والاسكندرانيّين. فالقوانين ٥ و٦ و٧ من المجمع قد رفضت فهم هذه العبارة على أساس نسطوري كما كان يعيبه غير الخلقيدونيّين على المجمع. وأما القانون ٨ فقد رفض فهم العبارة على أساس أوطيخس.

١. القانون ٥

أكّد مرة أخرى أن هناك «شخصًا (Hupostasis) واحدًا»، كما أقرّه أفسس ومن بعده خلقيدونيا.

٢. القانون ٦

أكّد مرة أخرى أن مريم هي أم الله. إلاّ أنه أضاف: أم الله الكلمة المتجسّد فيها.

٣. القانون ٧

شرح العبارة الخلقيدونية «في طبيعتين» بطريقة كانت تبغي إرضاء غير الخلقيدونيين. فإنه أكّد أن الفرق بين الطبيعتين لا يزال موجودًا بينهما، لأنهما يتّحدان دون اختلاط أو امتزاج (خلافًا لرأي أوطيخس)، ولكن دون انقسام أو انفصال أيضًا (خلافًا لرأي نسطوريوس). إلاّ أن المجمع أدخل فهمًا جديدًا للطبيعتين، فقال إن «التمييز» بين الطبيعتين أمر «نظري» (Théôria)، أي من باب الذهن والفكر، وأمّا ما هو واقعي وعيني فهو «وحدة» الشخص الواحد، الكائن بحد ذاته للواحد. بهذا المعنى، يمكن اعتبار القسطنطينية الثاني «تثنية» أفسسية لخلقيدونيا، إذ إنّه أكّد أن الواقع العيني هو «الوحدة»، في حين أن «التمييز» ما هو إلاّ من باب النظرية.

coptic-books.blogspot.com

والجدير بالذكر أن المجمع قد توصّل إلى كلمة «نظري» هذه بفضل توضيح المفاهيم والمصطلحات اللاهوتية طيلة قرن كامل من الجدال اللاهوتي. ويضيف أيضًا أن «العدد» (arithmos) «اثنين» لا يعني جمعًا لطبيعتين، بل هو تأكيد على فرق يدوم بعد الاتحاد، فالإنسانية غير الألوهية خلافًا لما قال أوطيخس. إن أردنا أن نفهم ذلك، شبّهناه بالإنسان المكوّن من جسد ونفس، أي من عنصرين اثنين، غير أن الحقيقة هي كائن واحد وحيد (مركّب من عنصرين).

٤. القانون ٨

وفّق المجمع بين لغة كيرلس ولغة خلقيدونيا، بمعنى أن كيرلس كان يقصد بعبارته «الطبيعة الواحدة المتجسّدة لله الكلمة» وحدة الشخص، لا ذوبان الطبيعتين في طبيعة واحدة، خلافًا لرأي أوطيخس. هذا التوفيق يُعتبر «تثنية» لخلقيدونيا من منظار أفسس ولإرضاء أنصار أفسس دون خلقيدونيا.

وإذا تساءلنا عن مدى صحة هذا التوفيق، رأيناه مخطئًا، لأن لغة كيرلس لم تكن واضحة المعالم إذ ذاك، كما ادّعاه القسطنطينية الثاني. فتعبير كيرلس فيه التباس وعدم وضوح، ولا يمكن اعتباره مطابقًا لتعبير خلقيدونيا، فلا ننسى أن لفظة Phusis (طبيعة) في نظر كيرلس كانت مقتبسة من فعل Phuô (ولد). فكانت تدلي بمعنى الكائن القائم بحد ذاته، وهذا هو مفهوم لفظة (Hupostasis)، لا لفظة (Phusis). فلا يمكن بالتالي التوفيق اللغوي بين كيرلس وخلقيدونيا، بل ما يمكن قبوله هو أن نيّة كيرلس وخلقيدونيا كانت واحدة بالفعل. فالنيّة واحدة بينهما، لا اللغة.

واحد من الثالوث تألّم

ومن خصائص مجمع القسطنطينية الثاني أنه ركّز اهتمامه على

coptic-books.blogspot.com

التأثير المتبادل بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية في شخص يسوع المسيح الواحد. وقد سمّى هذا التأثير المتبادل «تداخل الخصائص» (Commu-nication des idiomes ou des propriétés). والمراد بهذه العبارة الجديدة أن ما يخصّ يسوع يخصّ الكلمة، فالكلمة يجعل ما يخصّ يسوع يخصّه هو ككلمة (Appropriation)، والكلمة يدمج لذاته ما يخصّ يسوع. ومن جهة أخرى، فالكلمة يُشرك (Communication) إنسانية يسوع في خصائص الكلمة.

١ ـ فكان كيرلس قد تحدّث عن هذا التأثير، وإن لم يعبّر عنه بطريقة القسطنطينية الثاني نفسها، فقد قال إن الكلمة جعل الولادة الإنسانية ولادته. وبالتالي، صرّح القانون ٢ من المجمع أن للكلمة المتجسّد «ولادتين»: إحداهما «قبل الدهور من الآب، غير زمنية، غير جسدية»، والأخرى «في آخر الأيام (ولادة) الذي نزل من السموات نفسه، الذي تجسّد من مريم القديسة المجيدة الدائمة البتولية». ونرى أن هذا القانون يعيد كلام خلقيدونيا، غير أنّه يقرّ بولادتين في حين أن خلقيدونيا قال إن المولود من الآب هو من (èk) مريم العذراء...

٢ ـ القانونان ٣ و١٠: تحدّثا عن المعجزات (القانون ٣) والآلام (القانون ١٠). فحدث «تداخل الخصائص» إذ أشركت الألوهية الإنسانية في المعجزات، وأشركت الإنسانية الألوهية في الآلام. والكلمة الذي فعل المعجزات هو نفسه الذي تألّم.

ومما يجب ذكره أن موضوع الآلام كان موضع جدل لاهوتي آنذاك، وبالأخص عند الرهبان القسطنطينيّين (Moines Scythes) في عبارة شهيرة لهم: «إنه واحد من الثالوث تألّم في جسده». فأدخل الامبراطور يستينيانس هذا التعبير في المجمع لإرضاء الكيرلسيين: «ربنا يسوع المسيح المصلوب في جسده هو إله حق، رب المجد، وواحد من الثالوث الأقدس» (القانون ١٠). ولولا ذلك لَما خلّصنا المسيح حقًا. فمشاركة الكلمة في الآلام مشاركة في آلام البشرية، وبالتالي إنه إله

coptic-books.blogspot.com

حق وإنسان حق، متضامن مع البشر، وبالتـالي يمكنه تخليصهم من الخطيئة.

وممَّا يستحق الذكر أن البُعد الخـلاصي هذا ورد في خلقيـدونيا («لأجلنا ولأجل خلاصنا»)، ولكن الجديد في القسطنطينية الثاني هو أن الناحية التاريخية الواقعية لحياة يسوع المسيـح واردة في نص المجمع، وذلك بذكر آلامه البشرية. وسنعود إلى ميزة هذه النبرة التاريخيـة في نظرتنا النقدية إلى مجمع القسطنينية الثاني.

الوحدة بالتركيب

إن القانون ٤ عبارة عن «أي» جديد لكلام يوحنا: «الكلمة صار بشرًا»، فيقول المجمع إن اتحاد الكلمة بالإنسانيـة قد تحقّق «بحسب الـتركيب» (kata sunthesin) أو «بحسب الشخص» (kat'hupostasin) الكيرلسي. فما هي الوحدة «بحسب التركيب» هذه؟

نتـذكّر أن خلقيـدونيا وضـع الطبيعتـين جنبًـا إلى جنب، دون التـطرّق إلى كيفية وطـريقة الـوحدة بـين الشخص الإلهي والـطبيعـة البشرية. فكل طبيعة وهي مفهوم مجرّد «نظري» (Théôria) لا وجود لها إلاَّ في شخص واقعي، فيقال إذًا أن كل طبيعة هي «مشخّصـة» (enhupostaton)، أي تجد الوجود في شخص معيّن، لا خارج عنه. فطبيعة يسوع الإنسانيـة أصبحت هكذا «مشخّصـة»، أي وُجدت في شخصه. وأمّا الشخص الإلهي فقد كان بسيطًا قبل التجسّد (الكلمة كان عند الله، كان الله)، ثم أصبح مـركّبًا بعـد التجسّد، بمـوجب «تـداخل خصـائص» الإنسانيـة والألوهيـة، إذ إنّ الإنسانيـة أشركت الألوهية، وجعلت الألوهية الإنسانية تخصّها. وبالتالي كل أعمال يسوع لم تعد أعمال إنسان فقط، بل صارت أعمال الكلمة ذاته، أعمال الكلمة المتجسّد.

coptic-books.blogspot.com

فهذا التأثير المتبادل بين الألوهية والإنسانية يشرح الوحدة بالتركيب، وحدة شخص يسوع المسيح بتركيب طبيعتيه الإلهية والإنسانية. ومثالٌ على ذلك هو اتّحاد الجسد بالنفس في شخص واحد، مع فارق أساسي، هو أن إنسانية يسوع لها وجود خارج وجود الكلمة، في حين أن الكلمة موجود بمعزل عن الإنسان يسوع وقبل التجسّد.

نحن والقسطنطينية الثاني

رأينا أن هذا المجمع قد فسّر خلقيدونيا، ولكنه يتميّز عنه بميزات عديدة:

فإنه قد حدّد المفاهيم وأوضحها. ومن جهة أخرى، شرح الوحدة/ التمييز في خلقيدونيا، ولا سيّما بشرحه أن التمييز «نظري»، في حين أن «الوحدة» هي الواقع العيني، وفي ذلك مكسب واضح بالنسبة إلى المفاهيم. وهناك ميزة ثالثة وهي أن المجمع لم يقع في عيب خلقيدونيا في وضع الطبيعتين جنبًا إلى جنب. بل ذهب إلى أبعد منه، إذ إنه شرح كيفية الوحدة بينهما («بحسب التركيب») ومعنى التمييز («نظري»).

غير أن الميزة الكبرى لمجمع القسطنطينية الثاني تعود إلى عبارته «تبادل بالخصائص» الذي يؤكّد من ناحية على عدم تلاشي الإنسانية في الألوهية (خلافًا لنزعة كانت كامنة في أفسس)، ومن ناحية أخرى على البعد التاريخي الواقعي لحياة يسوع المسيح، ولا سيما معجزاته وآلامه (خلافًا لنزعة كانت كامنة في خلقيدونيا). لذلك يمكن اعتبار هذا المجمع خطوة إلى الأمام من جهة إنسانية يسوع المسيح: وجودها دون تلاشيها، تاريخها دون تجريدها. فهذا المجمع تعمُّق للمجمعين السابقين على طريق إنسانية يسوع. هذا وقد فتح مجمع خلقيدونيا باب

coptic-books.blogspot.com

احترام الانسانية بتمييزه بين الطبيعتين.

وسيخطو مجمع القسطنطينية الثالث خطوة أبعد في هـذه المسيرة الإنسانية، كما سنراه في الفصل القادم الذي سيتطرّق إلى «إرادتين» في يسوع المسيح.

coptic-books.blogspot.com

مجمع القسطنطينية الثالث ٦٨٠ ـ ٦٨١

انعقد في رومة مجمع اقليمي في اللاتران (Latran). وأما مجمع القسطنطينية الثالث فلا يختلف عنه كثيرًا.

إشكالية القسطنطينية الثالث

أهمية الموضوع

إن محور هذا المجمع هو موضوع «إرادة» يسوع. فهل كانت له إرادة واحدة أم إرادتان؟

أما الإنجيل، فيشير إلى إرادتين: «لم آتِ لأفعل مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني» (يوحنا ٦/٣٨) ـ وفي بستان الزيتون: «لا مشيئتي بل مشيئتك» (مر ١٥/٣٦). فكيف يمكن فهم هذه الازدواجية بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية؟ في القرن السابع، كان هذا الموضوع موضع جدل لاهوتي نشأ في ضوء خلقيدونيا وتمييزه بين الطبيعتين. وحتى هذا القرن، لم تتم الوحدة الكنسية بين الخلقيدونيين وغير

coptic-books.blogspot.com

الخلقيدونيين بالرغم من محاولة القسطنطينية الثاني.

وبتأثير من الامبراطور هراقليوس (Héraclius)، توصّل البطريركان الاسكندري سيروس (Cyrus) والقسطنطيني سرجيوس (Sergius) إلى تعبير مشترك: «الفعل الإلهي الإنساني (Théandrique) الوحيد» للمسيح، بتأثير ديونيسيوس الأريوباجي (Pseudo-Denys l'Aéropagite). غير أن هذا التعبير ملتبس، فهو مقبول وغير مقبول في آن واحد. هو جائز، إذا فُهم على أساس أن المسيح كان يفعل فعلاً واحدًا، تشترك فيه ألوهيته وإنسانيته. وهو مخطئ، لأن أفعاله كانت في الواقع مزدوجة، فيها العنصر الإلهي والعنصر الإنساني (خلافًا للمونوفيزية)، فإن لم يتم التمييز بين الإرادتين، لا يتم التمييز بين الطبيعتين، فتتلاشى الإنسانية في الألوهية كما ادّعاه أوطيخس، وتوصّل اللاهوت إلى مثل هذه العبارة: «العمل الواحد» (Monoenergia). لذلك سُحب التعبير بناء على طلب البطريرك الأورشليمي سوفرونيوس (Sophronius).

ولكن الموضوع عاد مرّة أخرى إلى بساط الجدل. وقد دافع سرجيوس عن موقفه مؤكّدًا أن صراع يسوع في بستان الزيتون لا يعود إلى إرادة إنسانية فيه، بل إلى «الميل الطبيعي للجسد»، وهذا هو المعروف بـ«الإرادة الواحدة» (Monothélisme). وفي ذلك عودة إلى الأبوليناريّة(١)، القائلة بأن التجربة في بستان الزيتون كما في البرّية لم يعشها يسوع حقيقة كإنسان ذي إرادة بشرية، بل الجسد هو سببها، وأمّا ما كان يحرّك يسوع فمشيئته الإلهية لا مشيئته البشرية. وبالتالي، تمتصّ الألوهية الإنسانية ولا يعود يسوع وسيطًا حقيقيًا بين الله والبشر.

هذه هي ملامح البدعة «المونوتيلية» ونتائجها، وقد هنّأ البابا

(١) نذكر أن أبوليناريوس جعل الألوهية تحل محلّ النفس العاقلة البشرية، فلم يكن ليسوع نفس عاقلة. وكذلك هنا، لم تكن له إرادة بشرية، بل الجسد هو الذي كان سبب تجاربه.

coptic-books.blogspot.com

هونوريوس (Honorius) البطريرك سرجيوس، موافقًا على تعبيره: «الإرادة الوحيدة في المسيح». غير أن مجمع القسطنطينية الثالث رفض هذه العبارة وأدان البابا لقبوله إيّاها.

تفسير آخر لخلقيدونيا

إن بطل المجمع هو مكسيموس المعترف (Maxime le Confesseur)، وهو راهب من أصل يوناني عاش في شمال أفريقيا في مدينة قرطاجنّة (Carthage). فلقد أقرّ بالإرادة الإنسانية ليسوع انطلاقًا من حادث بستان الزيتون، وذلك في ضوء تمييز خلقيدونيا بين الطبيعتين.

ولقد حُرّر في مجمع لاتران ٦٤٩، بناء على طلب البابا مرتان الأول (Martin I)، النص الآتي: «كما نعترف بطبيعتين متّحدتين دون اختلاط ولا انقسام، كذلك، بناء على الطبيعتين، نقرّ بإرادتين، الإلهية والإنسانية، وكذلك بعلمين طبيعيين الإلهي والإنساني، وذلك يُثبِّت تثبيتًا كاملاً ودون إهمال أن يسوع المسيح ربّنا وإلهنا الوحيد نفسه هو حقًا بطبيعته إله كامل وإنسان كامل - ما عدا الخطيئة - وهكذا كان يريد ويعمل خلاصنا كإله وإنسان في الوقت نفسه».

ويقول القانون ١٠ من مجمع لاتران الشيء نفسه: «من لا يعترف - طبقًا لرأي الآباء وبمعنى واقعي وحقيقي - بإرادتين - الإلهية والإنسانية - للمسيح الإله الإنسان نفسه متَّحدتَين في اتفاق كامل، بما أنه - بحسب كل من طبيعتيه - كان - طبيعيًا - جديرًا بأن يريد خلاصنا، فليكن محرومًا».

والمراد من مجمع لاتران تفسير وتطبيق وتكملة «الطبيعتين» بـ«الإرادتين» وبـ«العملين». فالإرادة والعمل عنصران من عناصر الطبيعة الإلهية، المتجسّدة والإنسانية، ولذلك هما ضروريان، وبالأخص

coptic-books.blogspot.com

من الناحية الايقونومية ليتمّ الخلاص.

ومن التساؤلات التي يمكن طرحها: هل كانت الإرادتان متفقتَين في شخص يسوع؟ فالردّ يأتي في بستان الزيتون، حيث تمّ «الاتفاق الكامل» بينهما، إذ إنّ يسوع قبل إرادة الآب قبولاً أليمًا ولا شك، ولكن قبولاً حرًا كاملاً. فالإرادة البشرية خضعت للإرادة الإلهية. وما النزاع والمقاومة بينهما سوى تأكيد أن الإرادة البشرية لم تمتصها الإرادة الإلهية، فقد عانى يسوع حقًا وتصارعت إرادتاه[٢] وانتهى به الأمر إلى طاعة الآب.

وكان الامبراطور من أنصار «المونوتيليّة»، خلافًا لمارتان الأول ومكسيموس المعرّف. فنفى الامبراطور البابا في القسطنطينية وجرّده من ثيابه البابوية، فمات البابا سنة ٦٥٥ بسبب سوء معاملته. وكذلك حوكم مكسيموس ومات سنة ٦٦٢ بعد تحمّل إهانات جسدية. فالاثنان اللذان دافعا عن آلام المسيح في جتسماني قد عاشا في جسدهما الآلام حتى الموت.

وأما النص الأساسي لمجمع القسطنطينية الثالث فهو الآتي: «نُعلن كل شيء في كلمة وجيزة: فنحن، إذ نؤمن أن واحدًا من الثالث الأقدس هو ـ بعد التجسّد ـ ربنا يسوع المسيح، إلهنا الحق، نقول إن له طبيعتين تشعّان في شخصه الواحد.

ففي شخصه وطيلة وجوده المتجسّد أظهر آلامه ومعجزاته لا بالمظهر ولكن بالحق. والفرق بين الطبيعتين في الشخص الواحد نفسه ظاهر في أن كلاً منهما تريد وتعمل ما هو خاص بها بالشركة مع الأخرى. هكذا، نعلن إرادتين وعملين وطبيعتين يشتركان معًا في خلاص الجنس البشري».

(٢) وإلا وقعنا في «المظهرية»، فكأن يسوع كان يتظاهر بالألم والصراع.

coptic-books.blogspot.com

نحن والقسطنطينية الثالث

بعد عرض مضمون المجمع، نودّ أن نلقي نظرة نقدية عليه.

المجمع بين الكتاب المقدس والمجامع الأخرى

إن للقسطنطينية الثالث صلة وثيقة بالمجامع السابقة، ويُعتبر تفسيرًا ودمجًا لها:

١. أفسس: على مثال القسطنطينية الثاني، فهو عودة إلى أفسس ولا سيّما إلى وحدة شخص المسيح، فينطلق منها ويعود إليها. غير أنه عودة إلى خلقيدونيا أكثر منه إلى أفسس.

٢. خلقيدونيا: بناءً على التمييز بين الطبيعتين، يظهر بوضوح التمييز بين الإرادتين والعملين في شخص يسوع الواحد، وقد توصّل إلى نظرة متّزنة إلى الوحدة/ التمييز.

٣. القسطنطينية الثاني: عاد إلى العبارة «واحد من الثالوث» تألّم.

٤. لاتران: أخذ منه النظرة التاريخية التي كانت ناقصة في خلقيدونيا الذي هو أكثر أنطولوجية.

فعبرة ذلك أن كل مجمع يدمج ما سبقه من مجامع ويتعدّاها في نظرة توضيحية جديدة وعميقة. وهذه هي ظاهرة «التسلّم والتسليم» التي أظهرناها مرارًا في مسيرتنا المجمعية.

غير أن القسطنطينية الثالث عاد رأسًا إلى الكتاب المقدس، ولا سيّما إلى مشهد صراع الإرادتين في بستان الزيتون، مدقّقًا في التمييز بينهما، الذي لا يعني على الإطلاق انقسامًا أو انفصالاً بينهما (وإلاّ وقع في النسطورية)، بل انّ يسوع عاش ما يعيشه كل إنسان من نزاع وآلام بين إرادته وإرادة الله. وهذه العودة إلى الإنجيل تفيد احترام

coptic-books.blogspot.com

إنسانية يسوع، ولا سيّما إرادته البشرية التي لا تتلاشى في الألوهية كما ادّعته «المونوتيلية» (الإرادة الواحدة) التي هي نوع من أنواع «المونوفيزية» (الطبيعة الواحدة). ولولا هذا الصراع ـ شأنه شأن كل إنسان ـ لكانت حياة يسوع تمثيلية تؤكّد «المظهرية»، وتُفقد كل معنى لحياة يسوع الأرضية، وبالتالي للخلاص الذي أتى به تضامنًا مع الله ومع البشر. إذًا مركزان للإرادة ـ للعمل وللكلام ـ مع الحفاظ الكلي على وحدة شخصه.

الإرادتان

نريد في هذه الفقرة إبراز معنى الإرادتين. فقد يبدو من الغريب جدًا أن يتميَّز إنسان بإرادتَين ومركـزَين للعمل والكـلام، حتى يمكن التساؤل هل كـان هذا الشخص لا يـزال إنسانًـا أم هو إلـه متأنّس كالأساطير، أو شخصية مختلّة التوازن النفسي. لذلك عندما نقول إن ليسوع «إرادتَين اثنتَين»، لا نضيف عددَين واحدًا على آخر، ـ بحسب توضيح القسطنطينية الثاني ـ بل نبغي شخصًا واحدًا ووحدة «بحسب الـتركيب» (kata sunthesin). فما هـو «التركيب» هـذا بين الإرادتـين الإلهية الإنسانية؟

الإرادة الإلهية: هي إرادة الابن الوحيد للآب، طاعة حب وارتباط وثيق حتى الوحدة بين الإرادتين. هي طاعة المرسَل لمرسِله. فإن إرادة الآب تسكن في عمق الابن الوحيد المتجسّد، في عمق حرّيته البنوية، فتصبح الإرادتان إرادة واحدة كما أن الآب والابن واحد.

الإرادة الإنسانية: غـير أن وحدة الإرادتـين ـ إرادة الآب والابن ـ تلقائية وطبيعية في الأزل، ولكنها تتحقّق في الزمن ـ بموجب التجسّد ـ لا بطريقة مباشرة، بـل بالصراع والنـزاع، بالألم والمـوت. فالإرادة الإلهية تتحقّق من خلال حياة يسوع الأرضية بكل ما في الإرادة

coptic-books.blogspot.com

الإنسانية من إمكانيات، وطاقات، من تجارب ومعاناة، شأنها شأن أي إرادة بشرية. إن الإرادة الإلهية تتحقق في أعمال يسوع وأقواله، في أفراحه وأتراحه، في تاريخه وصيرورته، في التزاماته وعلاقاته، في بذله وطاعته حتى الموت على الصليب....، بحسب مبدأ «تبادل الخصائص».

لذلك يمكن القول إن حياة يسوع المسيح وموته فقيامته تحقّق بشريًا العلاقة البنوية الإلهية. إن يسوع المسيح هذا يصبح إنسانيًا ابن الآب الأزلي، عندما يمارس إرادته الإنسانية التي تواجه إرادة الآب. فيسوع قد مارس إرادته الإنسانية أمام إرادة الآب كما يمارسها أي إنسان، أي في التجارب والآلام، في الطاعة والخضوع، في البذل والتضحية حتى الموت. فما كان يحياه الابن الوحيد في الأزل من وحدة الطاعة البنوية والأبوية، تعلّم أن يحياه في الزمان بالمعاناة والعذاب، والضيق والتجربة، لا في بستان الزيتون فقط، بل في البرّية أيضًا وعلى الصليب، بل في كل لحظات حياته الأرضية، كما ورد في الرسالة إلى العبرانيين:

«هو الذي في أيام حياته البشرية رفع الدعاء والابتهال بصراخ شديد ودموع ذوارف، إلى الذي بوسعه أن يخلّصه من الموت، فاستجيب طلبه لتقواه. وتعلّم الطاعة، وهو الابن، بما لقي من الألم. ولمّا جُعل كاملاً، صار لجميع الذين يطيعونه علّة خلاص أبدي» (عب ٥/٧ - ٩).

فما من نص كتابيّ أوضح يبيّن مكانة إرادة يسوع الإنسانية في صراع وطاعة أدّيا، في نهاية الأمر، إلى استجابة طلبه، أي إلى القيامة. ففي الآلام ظهرت حرية يسوع المسيح الذي قبل الإرادة الإلهية واتّحد بها، كما كانت واحدة في الأزل. وفي آلامه ظهرت أيضًا المسافة الشاسعة بين إرادة الله وإرادة الإنسان، غير أن هذه الهاوية تحوّلت إلى قبول إنساني للإرادة الإلهية.

coptic-books.blogspot.com

حرّيتان؟

إن جاز لنا التعبير عن «إرادتين»، فهل يجوز لنا أن نتحدث عن «حريتين» في شخص يسوع؟ لا نظن ذلك، لأن الإرادة هي أكثر من جهة الطبيعة، فكما ميّزنا طبيعتَين، يمكننا التمييز بين إرادتَين. وأما الحرية، فهي أكثر من جهة الشخص، وكما أكّدنا أن هناك شخصًا واحدًا، فكذلك هناك حرية واحدة.

فحرية يسوع البنوية اتَّخذت صورة العبد (فل ٢/٧)، وحقّقها يسوع كما يحقّق أي إنسان حريته بالجهد والسعي (la liberté comme tâche)، لا كما يحياها الله دون عناء ولا اكتساب، وذلك بموجب «الافراغ» (kénosis). فتحقَّقت الحرية البنوية المطلقة من خلال حرية بشرية صيرورية كما الأمر هو عند سائر البشر، بالجهد والعناء، بالتجارب والطاعة، خاضعةً للآب ولإرادته. والابن الأزلي قبل ـ بموجب إفراغ تجسّده ـ أن يصير في إنسانيته الابن الوحيد الذي هو منذ الأزل.

فهل معنى ذلك أنه مختلف عن أي إنسان؟ إن حريته بشرية كحرية سائر البشر، مع فرق الخطيئة. فالخطيئة هي فصل الإنسان عن الله، وهذا ما لم يحدث في حياة يسوع الأرضية. كانت متجانسة تمامًا مع حرية الآب، إذ إنّه قال له دائمًا: «نعم»، بمحض حريته وكل حريته. ولذلك يظل للبشر بأسرهم نموذجًا لحرية الإنسان الذي يقبل الله في حياته («نعم») ولا يرفضه («لا»). وبهذا حُرّر الإنسان من الخطيئة التي هي رفض لله من عدم الطاعة والخضوع له.

التاريخ الإلهي/ الإنساني

رأينا أن لغة كل المجامع قبل القسطنطينية الثاني لغة أنطولوجية. فأدخل هذا المجمع البعد التاريخي لحياة يسوع الأرضية في حديثه عن

coptic-books.blogspot.com

آلامه ومعجزاته. وأوضح القسطنطينية الثالث هذا البعد التاريخي الذي سيطوّره اللاهوت الغربي على مدار الأجيال. وسبق لنا أن رأينا أن كلا المستويين مهمان في اللاهوت. فالأنطولوجيا وحدها لا تكفي لأنّها تُهمل الصيرورة البشرية، إذ إنّ الإنسان كائن تاريخي صيروري، والتاريخ من جهته لا يكفي وحده لأن الهويّة من الركائز الأساسية في الشخص. ويظل تعبير يوحنا: «الكلمة صار بشرًا» أنطولوجيتان تشيران إلى الهوية، وأمّا الفعل «صار» (egeneto) فيدلي بالصيرورة والتاريخ والوجود. فعلى كل لاهوت أن يحترم الأنطولوجيا والتاريخ، وهذا ما قام به القسطنطينية الثالث في اتّزان كبير. وهذا الاتّزان نجده، لا في الكتاب المقدّس فقط، بل عند الآباء أيضًا، من أغناطيوس إلى كيرلس، حتى القسطنطينية الثالث.

فبموجب مبدأ «تداخل الخصائص» بحسب القسطنطينية الثاني، يؤثّر التاريخ البشري في التاريخ الإلهي، والإلهي في البشري. وهوية يسوع الحقيقية لم تظهر في الأنطولوجيا وحدها ـ هو إله حقيقي وإنسان حقيقي ـ بل ظهرت أيضًا وخاصةً في تاريخ حياته وموته وقيامته، بمعنى أن حياته الأرضية أظهرت للبشر أن له علاقة خاصّة بالله، ومات لأنه ادّعى أنه واحد مع الله، أنه ابن الآب. وأمّا قيامته فقد بيّنت أنه حقًّا ابن الله الذي استجاب له وثبّت ادّعاءه البنوّة. هكذا يمكن القول إن الهوية تظهر من خلال التاريخ، وتظهر أنطولوجيته، أي أنه إله حقيقي وإنسان حقيقي. إن هويته الأنطولوجية تتحقّق في التاريخ. وكذلك يعرّفنا التاريخ الهوية الأنطولوجية.

هذه العلاقة الوثيقة بين الأنطولوجيا/ التاريخ من ملامح المسيحانية المعاصرة ولا سيما فيما يخصّ هوية يسوع المسيح. وسيتّضح لنا ذلك في الجزء الثالث من هذه المحاضرات.

coptic-books.blogspot.com

ما بعد المجامع

يُعتبر مجمع القسطنطينية الثالث آخر المجامع والعقائد «المسيحانية» الكبرى. إلاَّ أن الفكر اللاهوتي استمرّ بعدها، فلم ينتهِ مع انتهاء المجامع والعقائد[1]، وكذلك نمت الروحانيات المسيحانية، وخاصةً بفضل الرهبانيات التي تمثّلت بجانب من جوانب حياة يسوع[2] الأرضية أو فترة من فترات حياته[3].

ويمكننا أن نتساءل: لماذا انتهت المجامع المسيحانية وحلّ محلّها اللاهوت؟ يعود هذا التعبير إلى أسباب عديدة نذكر منها:

(١) في مصر، استمرّ حتى القرن السابع (أقصى الحدود)، وبعد الفتح العربي، لم يعد للاهوت «المسيحاني» مكانة كما في أيام الآباء الكبار، بل نما اللاهوت «الدفاعي» في «المجادلات» مع المسلمين، واللاهوت «الطقسي» و«الكتابي».

(٢) تتمثّل الرهبانية الفرنسيسكانية مثلاً بيسوع الفقير، والدومينيكانية بيسوع الكارز، واليسوعية بيسوع الحامل صليبه ليتمّم إرادة الآب ويخلّص العالم، واللعازارية بيسوع المهتم بالفقراء والمرضى، والكرملية بيسوع المصلّي المتألم في بستان الزيتون...

(٣) تتمثّل الرهبانية المصرية بيسوع في البريّة، ورهبانية إخوة يسوع الصغار بيسوع في الناصرة...

coptic-books.blogspot.com

١. معظم المفاهيم والمصطلحات المسيحانية قد تحدّدت وتوضّحت في المجامع، وقد درسنا تطوّرها من مفهوم Homoousios («الجوهر نفسه») في نيقيا حتى مصطلح كـ«تداخل الخصائص» في القسطنطينية الثاني... وفي القسطنطينية الثالث، أصبحت المفاهيم والمصطلحات المسيحانية واضحة المعالم، تلمّ بمعظم ما كان يهمّ الكنيسة لمعرفة هوية يسوع المسيح الإلهية الإنسانية وعمله الخلاصي. وقد سيطرت هذه المفاهيم والمصطلحات على العالم المسيحي حتى القرن العشرين، غير أنه، بفضل الاصلاح اللوثري، اكتسبت المسيحانية لغة العصر وإشكالية القرن العشرين. أمَّا الشرق، فقد حافظ على التقليد الذي حُدِّد في القرون المسيحية الأولى.

٢. الاهتمامات الكنسية تغيّرت، فاستنادًا إلى المجامع المسيحانية الواضحة المعالم، ركّزت الكنيسة الغربية على «اللاهوت الكنسي» (Ecclésiologie) «واللاهوت الأسراري» (Théologie Sacramentaire)، كما ركّزت على لاهوت «النعمة» و«التبرير»...، حتى إنّ مجمعًا كمجمع تريدانت (Trente) تطرّق إلى هذه القضايا. ومن الجدير بالذكر أن اللاهوت تحوّل تدريجيًا من اللاهوت المسيحاني المركّز على شخص يسوع المسيح، إلى اللاهوت الايقونومي والأنتروبولوجي المركّز على الإنسان الذي ينال من شخص المسيح الخلاص والبنوّة. وقد رأينا أكثر من مرة أن هذا التحويل مصدره مجمع خلقيدونيا الذي أدخل نبرة خاصة عن إنسانية يسوع، فأضفى على العقيدة وبالتالي على اللاهوت اللاحق البعد الإنساني، وأعار اهتمامًا للمؤمن الذي يحيا في الكنيسة وينال النعمة والتبرير داخلها بفضل الأسرار.

٣. اختلفت العقلية من عصر الآباء إلى العصور الأخرى. ففي أيام الآباء، كان اللاهوت يتقدّم بإشراف وسلطة الآباء أنفسهم، استنادًا إلى الكتاب المقدس أساسًا وباستخدام الفلسفة. وقد وصف توما الأكويني اللاهوت في هذه المرحلة بأنه «سلطوي» (per

coptic-books.blogspot.com

auctoritates). وبعد الآباء، أصبح اللاهوت يستند، لا إلى سلطة الآباء، بل إلى سلطة العقل، فوصفه توما الأكويني بأنه لاهوت «عقلاني» (per rationes) وهو «اللاهوت المدرسي» (Théologie Scolastique) الذي نخصّص له فصلاً كاملاً.

coptic-books.blogspot.com

الجزء الثاني الفصل العاشر

اللاهوت المدرسي

التعريف به

في جو التعبير اللاهوتي التدريجي الذي طرأ على الكنيسة ونقلها من عصر الآباء «السلطوي» إلى عصر المدرسة «العقلاني»، هناك شخص أوغسطينس (+ ٦٠٥) الذي يُعتبر محور هذا التغيير، إذ إنّه جمع ما سبق من تقليد آبائي ووضع حجر أساس ما يليهم من تقليد مدرسي.

فكان منطلق أوغسطينس العقائد الآبائية، وحاول «تعليلها» بالمنطق البشري (reddere rationem-rendre raison) فيقول مثلاً في عقيدة الثالوث: «إذا سألنا: «ثلاثة ماذا؟»، تظل كلمتنا البشرية قاصرة تمامًا. فالردّ هو: «ثلاثة أقانيم . ولكن المراد بذلك أقل أن يقال هذا منه ألاّ يُقال شيء».

فما توصّلت إليه المجامع من ثلاثة أقانيم وإله واحد أصبح إذًا موضع تساؤل. إن العقل البشري يحاول أن يفهم ويعلّل العقيدة، وبوجه عام السرّ المسيحي. أصبح العقل يثير تساؤلات حول التعريفات

coptic-books.blogspot.com

العقائدية المجمعية. أصبح يريد أن «يعلّل» ما حدّدته المجامع كتابيًا باستخدام الفلسفة.

هذه المرحلة العقلية تُعتبر إذًا «تثنية» (Deutérose)، أي تجديد قراءة للعقائد المجمعية، بتحكيم العقل البشري الذي يريد المزيد من الفهم والإيضاح والتعليل.

فإذا عدنا إلى المسيحانية بالذات، رأينا أنها أصبحت في هذه المرحلة تدقّق النظر في إنسانية يسوع المسيح: تحليل كيفية وحدة شخص المسيح والتكوين الأنطولوجي للكلمة المتجسّد، وتحليل علمه وإرادته وأعماله... بحيث ان الجدل الفلسفي حلّ تدريجيًا محل الرجوع المستمر إلى الكتاب المقدس والاستناد إلى النظرة الخلاصية. وبالتالي أصبح تأثير العقلية الفلسفية والثقافة والحضارة... أوضح وأهم مما سبق في عصر الآباء.

ومن أبرز اللاهوتيين المدرسيين توما الاكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) الذي توصّل إلى توازن عظيم، غير أن من خلفوه لم يقتفوا آثاره، بل تمادوا في العقلانية، الأمر الذي يفسّر ردّ فعل لوثر وحركة الإصلاح (القرن ١٦) على اللاهوت والكنيسة.

وفي القرن ١٧، بدأ التفسير العلمي (Exégèse) للكتاب المقدس وعاد الاهتمام بآباء الكنيسة (Patristique).

وفي القرن ١٩، بدأ البحث التاريخي في اللاهوت. وتميّز القرن ٢٠ بالعلوم الثلاثة هذه: التفسير - الآباء - التاريخ، وهذا ما حفر الهاوية الفاصلة بين اللغة العقائدية الآبائية واللاهوت الحديث والمعاصر المبني على هذه العلوم الثلاثة، وكذلك بين اللاهوت المدرسي واللاهوت الحديث والمعاصر. فاللاهوت الآبائي واللاهوت المدرسي أصبحا لا يخاطبان - شكلاً، لا مضمونًا - مؤمن القرن العشرين، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار التغييرات الحضارية الجذرية التي تميّز بها، مما حتّم على

coptic-books.blogspot.com

اللاهوتيّين أن يعبّروا عن اللاهوت، بل عن العقائد السابقة أيضًا، بلغة العصر وعقليته، بفلسفته وحضارته...

علم يسوع

ومن ضمن القضايا اللاهوتية التي عالجها اللاهوت المدرسي، قضية علم يسوع ووعيه. فما هي إشكاليتها في اللاهوت المدرسي ومن قبله في اللاهوت الآبائي؟

أجمع الآباء على أن يسوع جُبل على مثال البشر، بموجب «الافراغ» (kénosis)، ولقد شدَّدت المدرسة الأنطاكية على ذلك أكثر من غيرها. وأما المدرسة الاسكندرانية فتحدَّثت عن جهل يسوع، بحسب ما ورد في الكتاب المقدس: نموّه في الحكمة، تعجّبه، الأسئلة التي كان يطرحها، عدم معرفته ليوم الدينونة... مع الحفاظ على أن جهله هذا كان أيقونوميًا، لا ثيولوجيًا، إذ إنّ يسوع كان يتواضع فيتكلم كلام البشر. وبعد القرن ٦، ازداد الشرق تأكيدًا على ملء علم يسوع المسيح.

وبين ٥٤٠ و٦٠٠، احتدّت أزمة «اللامعرفيّين» (Agnoètes) حول جهل يسوع ليوم الدينونة (مر ١٣/٣٢). وكانت هذه البدعة، في نهاية الأمر، عودة إلى النسطورية، أي إلى الفصل والانقسام بين الألوهية والإنسانية في شخص المسيح، والشك في وحدة شخصه. فأدانها البابا غريغوريوس، مستندًا إلى أن الجهل أيام حياة يسوع الأرضية كان بموجب «الافراغ» ولم يمسّ رسالته الدينية والخلاصية. ويمكن تلخيص لاهوته في النقاط التالية:

١ - لم يتميّز يسوع بالمعرفة الإلهية الكاملة (Omniscience)، لأنه كان إنسانًا له نفس عاقلة، يعرف من خلالها معرفة غير كاملة. وذلك بموجب «الافراغ».

coptic-books.blogspot.com

٢ ـ كان يعرف قصد الله الخلاصي بموجب بنوّته التي كانت تربطه بالآب وتحرّكه كليًا.

٣ ـ أمّا كيفية المزج بين الجهل والمعرفة، فلا توصف، وذلك بموجب «التجسّد» الذي يجمع ما بين الألوهية والإنسانية، وبموجب «تداخل الخصائص» حيث المزج بين مميّزات كل منهما وخصائصه. وأمّا الإنجيل فهو رزين كل الرزانة في حديثه عن المزج، وهو لا يرى أي تناقض بينهما.

وبعد ذلك، لم يقبل الآباء فكرة جهل يسوع. فإن كانوا قد قبلوا «الافراغ» في القدرة والإرادة، كما رأيناه سابقًا، إلاّ أنهم رفضوها فيما يختص بمعرفة يسوع. وسبب ذلك الرفض أن «الإنسان الكامل» في الثقافة اليونانية (وكانوا يونانيي الثقافة) هو ذلك الذي يتميّز بالمعرفة الكاملة أو يقترب منها. لذلك كان اليونانيون يعتبرون الفلاسفة والآباء والمفكرين على أعلى مرتبة وقدر من الاحترام. ويليهم الحكّام الذين يتميَّزون بالقوة والسلطة. وإذا جمع إنسان بين المعرفة والقوة، كان شبه إله. وأمَّا العاملون بأيديهم فكانوا في أسفل الدرجات.

ولقد حملتهم هذه العقلية اليونانية على تحريف معنى خلقيدونيا. فعندما يقول هذا المجمع بأن يسوع «إنسان حقيقي»، أو «إنسان كامل»، يقصد بذلك أنه إنسان مثلنا تمامًا، يشارك في طبيعتنا البشرية كلها، ما عدا الخطيئة، ولكن بما فيها من عدم معرفة كاملة. وأمَّا الآباء فقد فهموا هذا التعبير على نقيض قصده الأول، مفسّرين إيّاه على أن «الكمال» هنا يعني المعرفة الكاملة الكلية (Omniscience)، في حين أن الإنسان الحقيقي، في الأنثروبولوجيا المعاصرة، هو الذي يعرف معرفة ناقصة غير كاملة. فأنثروبولوجيتنا على نقيض الأنثروبولوجيا اليونانية في هذا الأمر، فضلاً عن أنه بموجب مبدأ «تداخل الخصائص»، تمنح الألوهية الإنسانية المعرفة الكاملة. هكذا فقد الآباء معنى «الافراغ» تمامًا في معالجتهم قضية علم يسوع، متأثّرين بالعقلية اليونانية من جهة،

coptic-books.blogspot.com

وبمبدأ «تداخل الخصائص» اللاهوتي من جهة أخرى، فاقدين هكـذا حقيقة التجسّد.

وهذه المعرفة الكاملة، في نظر الآباء، كان يتميّز بها يسوع منذ الأحشاء، في نظر يـوحنا الـدمشقي مثلاً (القـرن ٨). وأمّا في نـظر كانديدس (Candide)، في القرن ٩، فيسوع يتميَّز بـ«رؤيا الأبرار» (Vi-sion béatifique)، تلك الرؤيا التي ينالها الإنسان بعد موته في الأبدية.

هكذا نجد أنفسنا أمام مبدأين لاهوتيين لتحليل علم يسـوع: «المعرفة الكاملة» ـ «رؤيا الأبرار».

وأمّا توما الأكويني، فكان رزينًا للغاية. فلقد ميّز بين علم يسوع برؤيا الأبرار ـ علم موحى به (Science infuse) كعلم الملائكة ـ وعلم مكتسب (Science acquise) كعلم سائر البشر. وهذا العلم قد كان، عند توما الأكويني، موضع أكبر قدر من التحليل والاهتمام.

واليوم: إن لاهوت اليوم يشعر نفسـه بعيدًا كـل البعد عن اللاهوت المدرسي، وذلك لعدّة أسباب، منها:

١ . الاختلاف الثقافي والفلسفي بينهما. فعلى سبيـل المثال، إن تأثّر اللاهوت المدرسي بالفلسفة اليونانية الأرسطاطالية التي تنطلق من «الموضوع» (objet)، في حين أن فلسفة اليوم، منذ ديكارت وكانط، تنطلق من «الذات» (sujet). وفي قضية كقضية علم يسوع التي تطرّقنا إليها، فالفرق في تدارك القضية والبحث فيها شاسع.

٢ . الاختلاف في فهم خلقيدونيا، فيما يختص «بالإنسان الحق»، وبوجه عام ببعد يسوع الإنساني. نحن نذكر أن خلقيدونيا وما تبعه من القسطنطينية ٢ و٣ قد أكّد على إنسانية يسوع بموجب «الافراغ». وهذا ما فقده اللاهوت المدرسي كما رأينا.

واليوم نميّز بوضوح بـين حياة يسـوع الأرضية حيث شـارك في

coptic-books.blogspot.com

حياتنا البشرية ووضعنا الإنساني، وحياة يسوع المجيد بعد قيامته. ففي حياته قبل القيامة، كان يحيا التجسّد في «الافراغ» التام، على خلاف حياته بعد القيامة، حياة التمجيد.

فاللاهوت المدرسي لا يميّز بهذا الوضوح بين حالته قبل القيامة وحالته بعدها، مانحًا إيّاه، قبل القيامة، خصائص القيامة.

وهكذا فإن لاهوت اليوم يعيد النظر في اللاهوت المدرسي، وكذلك في اللاهوت الآبائي، مؤكّدًا على حقيقة إنسانية يسوع (على غرار المدرسة الأنطاكية) من جهة، وعلى ضرورة استخدام عقلية العصر وفلسفته من جهة أخرى[٤].

(٤) في حديثنا عن المسيحانية المعاصرة، سنعود إلى قضية علم يسوع ووعيه من منظار عصري.

coptic-books.blogspot.com

الجزء الثالث

النظرة المسيحانية المعاصرة

إن النظرة التاريخية إلى التقليد الكنسي في مختلف مراحله قادتنا إلى تدوين فهم اللاهوت المعاصر، بل وردود فعله، إزاء هذا التقليد. واللاهوت المعاصر جزء لا يتجزأ من هذا التقليد، فهو يدخل في عملية «التسلّم والتسليم» التي وجدناها في كل عصر من عصور الكنيسة. وليس هذا اللاهوت أفضل من غيره، ولا هو تقليل من أهمية اللاهوت السابق، ولكنه، على غرار ما سبق، «تثنية» (deutérose) للكتاب المقدس ولسائر المجامع وللفكر اللاهوتي السابق على اختلاف أنواعه، أي «تجديد قراءة» لِما سبق، في ضوء العقلية والفلسفة واللغة المعاصرة.

هكذا يتّضح أن لاهوت اليوم لاهوت نسبي كأي لاهوت آخر، وهو يستند إلى ما سبقه، مستفيدًا من السلف، متحاشيًا ما وقعوا فيه من أخطاء.

كما يتّضح لنا أن لاهوت اليوم لاهوت عصري يستخدم - بين ما يستخدم - العلوم اللاهوتية - كالتفسير والآباء -، والعلوم الإنسانية - كالتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع... -، والفلسفة المعاصرة،

coptic-books.blogspot.com

والاهتمامات اللاهوتية المعاصرة - كالروحانيات والرعويات والخُلُقيات . . .

وأمّا تصميم المسيحانية المعاصرة التي نبغي إظهارها، فهو الآتي:

١ - المنطلق: خلقيدونيا كمعيار.
٢ - حياة يسوع على الأرض.
٣ - قيامة يسوع المسيح.
٤ - «جمع - دمج» (Récapitulation) يسوع المسيح للبشرية.

أي أننا، انطلاقًا من المجامع، وخاصةً مجمع خلقيدونيا الشامل لسائر المجامع، نلقي نظرة إلى يسوع المسيح في المراحل الثلاث: حياته على الأرض، قيامته، مجيئه الثاني.

coptic-books.blogspot.com

الجزء الثالث — الفصل الحادي عشر

خلقيدونيا كمعيار

يظل مجمع خلقيدونيا، بالنظر إلى اللاهوت المعاصر، المعيار الأمثل. فعلينا:

١ ـ أن نوضّح ما نعنيه بـ«خلقيدونيا».
٢ ـ أن نُظهر في ايّ شيء هو «معيار».
٣ ـ أن نطبّق ذلك على بعض قضايا اللاهوت المعاصر.
٤ ـ أن نرسم ملامح «المسيحانية المعاصرة».

ما نعنيه بـ«خلقيدونيا»

عندما نتحدث عن «خلقيدونيا»، لا نقصد مجمع ٤٥١ فحسب، بل ما ترتّب عليه من القسطنطينية الثاني والثالث اللذين هما «تثنية» ـ كما رأينا ـ لمجمع ٤٥١. ويُعتبر مجمع سنة ٤٥١ ذروة الحركة المجمعية السابقة واللاحقة، إذ اكتملت فيه الصيغة العقائدية. أمّا مجمعا نيقيا وأفسس فقادا إلى مجمع ٤٥١، وأما القسطنطينية ٢ و٣ فقد وضّحا ما تضمّنه مجمع ٤٥١.

coptic-books.blogspot.com

ما نعنيه بخلقيدونيا كـ«معيار»

فبأيّ معنى يمكننا أن نعتبر «خلقيدونيا» «معيارًا»؟ إنه معيار في نقطتَين بـالغتَي الأهمية: التـوازن بين الـوحدة/ التمييـز بين الألـوهية والإنسانية، كما بدا لنا في نظرتنا النقدية إلى مجمع خلقيدونيا.

١ . التوازن بين الوحدة/ التمييز: على أي لاهـوت، واللاهوت المعاصر خاصة، أن يجد التوازن بين وحدة شخص يسوع المسيـح من جهة، وتمييـز قطبَي شخصـه الإلهي والإنساني من جهـة أخرى:

فدراسة التقليد المسيحاني أفادتنا في أنها أظهرت لنا جليًا وجوب تحاشي تطرّفين في المسيحانية: النسطورية التي لا تراعي وحدة شخص يسوع المسيح، والأوطيخيـة التي لا تراعي تمييـز ألوهيتـه وإنسانيتـه. فالنسطورية توقعنا في النزعة «الثنائية» (Dualisme) في شخص المسيح، والأوطيخية في النزعة «الوحدوية» (Monisme)، وكلاهما خطأ مسيحاني فادح. فعلى كل مسيحانية أن تتّسم، لا بالثنائية ولا بالوحدوية، بل بـ«الازدواجيـة» (Dualité)، ازدواجية الألـوهية والإنسـانية في شخص يسوع المسيح الواحد. ولا ننسى أن ما هو «واقعي» (Réel) «وعيني» (Concret) إنّمـا هـو وحـدة الشخص. وأمـا التمييـز فهـو «نـظري» (Theoria). فالمنطلق ونقطة الوصول هما الـوحدة، وأمـا التمييز فهـو داخل الوحدة.

٢ . التـوازن بين الألـوهية والإنسـانيـة: من ميـزات «التمييز» أنه لا يوقعنا في خطر تلاشي إنسانية يسوع المسيح في ألوهيته، خاصة وأن الألوهية أسمى وأسبق على الإنسانية، فتستطيع أن تمتصها في اللاهوت. لذلك يجب على أي لاهوت، واللاهوت المعاصر خاصة، أن يدافع عن إنسانية يسوع المسيح. فخطر تلاشي الإنسانية يهدّد كل لاهوت، وبصفة خاصة اللاهوت المصري الذي يولي الولاء لكيرلس

coptic-books.blogspot.com

والمدرسة الاسكندرانية، أي لوحدة شخص يسوع المسيح، مع خطر عدم الحفاظ الكافي على الإنسانية.

وذلك على نقيض اللاهوت الغربي بعد خلقيدونيا والقسطنطينية ٢ و٣، الذي شدَّد على الإنسانية، وقد يكون ذلك أحيانًا على حساب الألوهية.

فالتوازن الحقيقي ـ وهو توازن «التجسّد» و«الوساطة» ـ إنَّما هو التأكيد على الألوهية والإنسانية على حد سواء. فعلى كل لاهوت أن يتّسم بهذا التوازن، مع التشديد على ما ينقصه، أي على الألوهية، إن كان لاهوتًا أنطاكيًا أو غربيًا، أو على الإنسانية إن كان لاهوتًا اسكندرانيًا.

أو بعبارة أخرى، على كل لاهوت أن يتميّز بالحركة التصاعدية (من الإنسان إلى الإله)، وبالحركة التنازلية (من الإله إلى الإنسان). فعلى المسيحانية المعاصرة ـ غربية كانت أم شرقية، أنطاكية أم اسكندرانية ـ أن تحترم كلتا الحركتين كما احترمها الكتاب المقدس تمامًا في عهده الجديد.

فعندما ندّعي أن خلقيدونيا «معيار»، إنَّما نقصد أن نأخذ في عين الاعتبار هاتَين السمتَين، الوحدة/ التمييز من جهة، الألوهية/ الإنسانية من جهة أخرى. وهما سمتان تَحَلَّى بهما «خلقيدونيا». لذلك اعتبرناه معيارًا، أي أن يقيس كل لاهوت حقيقته وأمانته لوديعة الإيمان بالنسبة إلى هاتين السمتَين الأساسيَتين.

تطبيق معيار خلقيدونيا على لاهوت اليوم

وبناء على ما سبق، إننا نبغي أن نطبّق معيار «خلقيدونيا» على ثلاث قضايا معاصرة في لاهوت اليوم: النظرة إلى الإنسان، النظرة إلى الإنسان بين الإيمان والأعمال، النظرة إلى الكنيسة.

coptic-books.blogspot.com

١ . **الأنثروبولوجيا**: إن أيّة نظرة لاهوتية إلى الإنسان عليها أن تكون أمينة للنظرة إلى شخص يسوع المسيح نفسه، ولا سيّما إلى التمييز فيه بين الألوهية والإنسانية. فالعلاقة داخل يسوع المسيح بين ألوهيته وإنسانيته، إنّما هي معيار علاقة الإنسان بالله: فهما متميّزان (التمييز) ومتّحدان (الوحدة) في الوقت نفسه.

فالتشديد على «التمييز» لا يجعل الله يمتصّ الإنسان، فالإنسان لا يذوب ولا يتلاشى ولا ينسحق في الله، بل يظل متميّزًا عنه.

والتشديد على «الوحدة» يجعل الإنسان يصبو إلى الاتحاد بالله، لأن هذا القصد الإلهي هو أن يوحّد البشرية به في شخص يسوع المسيح (اف ١/١٠)، أو - بعبارة آباء الكنيسة - يقصد الله أن يؤله البشر.

غير أن تأليه الإنسان لا يعني أبدًا ذوبانه في الله أو فقدان ذاتيته فيه، بل يعني اكتماله وقمّته وتكليله فيه. إن تأليه الإنسان يتماشى وأنسنته (humanisation). بمعنى أنه كلّما اتّحد الإنسان بالله، أصبح أكثر إنسانية، أصبح إنسانًا حقيقيًا كاملاً، كما أراده الله منذ البدء وكما عاشه يسوع المسيح الإله المتأنّس. ولإيريناوس (Irénée) هذه العبارة الشهيرة: «مجد الله هو الإنسان الحي، وحياة الإنسان هي رؤية الله». فالله يتمجّد كلما كان الإنسان أكثر إنسانية. فليس الله والإنسان في نسبة عكسية، أي كلما ازداد الواحد نقص الآخر، بل بالعكس، كلما ازداد الواحد ازداد الآخر، كلما نما الواحد نما الآخر.

ومن جهة أخرى، على كل لاهوت مراعاة التوازن بين الجانب الإلهي والجانب الإنساني، بين الروحيات والزمنيات، بين السماويات والأرضيات، بين الأبدية والزمنية...، وإلاّ وقع اللاهوت في النسطورية أو الأوطيخية، في «الثنائية» أو «الوحدوية». فقد تؤدّي النسطورية - الإنسان على حساب الله - إلى نظرة «تقدّمية مزيّفة»

coptic-books.blogspot.com

(progressisme) أو «إباحية» (laxisme)، وقد تؤدّي الأوطيخية ـ الله على حساب الإنسان ـ إلى نظرة «رجعية» (intégrisme) أو «تزمّتية» (puritanisme).

٢ . الإنسان بين الإيمان والأعمال: نذكر القضية البولسية في «الإيمان» و«الأعمال». وإلى اليوم يتناول اللاهوتيون والروحانيون هذه القضية، فكثيرًا ما يقعون في خطر النسطورية (الأعمال) أو الأوطيخية (الإيمان)، مدقّقين إمّا في دور الإنسان، وإمّا في دور الله. فهنا أيضًا يجب العودة الأمينة إلى شخص يسوع المسيح والتوازن في ألوهيته/ إنسانيته. فكلا العنصرين أساسيان.

إن الإيمان نفسه هو نتيجة تضامن الله والإنسان. فالإيمان هبة من الله من جهة، وهو ردّ الإنسان من جهة أخرى. هو ثمرة نعمة الله وحرية الإنسان معًا[١].

والأعمال كذلك هي ثمرة نعمة الله وحرية الإنسان معًا، لا الواحدة على حساب الأخرى أو دون الأخرى[٢].

ولنطبّق ذلك على قضية الخلاص الإلهي/ التحرّر الإنساني، وهي محور «لاهوت التحرّر» المعروف في أمريكا اللاتينية خاصة. فإن كان الله هو مخلّص الإنسان خلاصًا شاملاً لكل أبعاده (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، الروحية والنفسية والجسدية...)، إلاّ أن الله يُشرك الإنسان في عملية الخلاص والتحرر من كل القيود

(١) راجع محاضراتنا عن «اللاهوت الأساسي» ـ المعهد الإكليريكي بالمعادي ـ ١٩٨١ ـ ١٩٨٢.

(٢) المنطق نفسه ينطبق على تأليف الكتاب المقدس الذي هو مزيج من إلهام الروح القدس وشخصية الكاتب المقدس، وذلك في المنظار اليهودي والمسيحي. وأمّا المنظار الإسلامي، فيؤكّد أن الله هو المؤلف دون الإنسان ودون محمد الذي هو مجرّد «موصِل» للقرآن.

coptic-books.blogspot.com

(الاجتماعية. . ، الروحية. . .). أو، بمعنى آخر، لا يخلّص الله وحده الإنسان، بل يشرك الإنسان في خلاص نفسه، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، يشمل الخلاص والتحرّر، لا البعد الروحي فقط للإنسان، بل كل أبعاد حياته.

ويظهر الخطر إذا كان التشديد على أحد الطرفَين على حساب الطرف الآخر. فإذا كانَ فاعل الخلاص هو الله وحده، وقع اللاهوت في خطر الأوطيخية والروح السحرية. وإذا كان فاعل التحرّر هو الإنسان وحده، وقع اللاهوت في خطر النسطورية والروح النفعية. وكذلك إذا كان الخلاص لا يهمّ إلاَّ روح الإنسان دون أبعاده الأخرى، وقع اللاهوت في الخطر الأوطيخي. وإذا كان التحرّر لا يهمّ إلاَّ أبعاد الإنسان الزمنية دون بعده الروحي والأبدي، وقع اللاهوت في الخطر النسطوري.

فالنظرة اللاهوتية الصائبة هي التي تميّز بين الله/ الإنسان، الإيمان/ الأعمال، الروح/ الجسد، الروحيات/ الزمنيات. . في الإنسان الواحد، كما تميّز المسيحانية بين الألوهية/ الإنسانية في شخص يسوع المسيح الواحد.

٣. **الكنيسة**: إن للنظرة إلى يسوع المسيح كإله/ إنسان، واحد الشخص/ متميّز الطبيعتين، تأثيرًا واضحًا في النظرة إلى الكنيسة[٣].

فمن جهة نعرف أن الكنيسة متّحدة بالمسيح، لأنّها جسده وغصن الكرمة. ومن جهة أخرى، هي متميّزة عنه لأنها جسد وهو رأسها، هي العروس وهو عريسها. لذلك يجب مراعاة عنصرَي

(٣) راجع في هذا الموضوع محاضراتنا: «من أنتِ، أيتها الكنيسة؟». معهد الدراسات اللاهوتية ـ السكاكيني ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧.

coptic-books.blogspot.com

الوحدة/ التمييز في الحديث عن العلاقة بين المسيح وكنيسته.

ومن جهة أخرى، يجب أن نراعي، في هوية الكنيسة، العنصر الإلهي/ الإنساني، اللامرئي/ المرئي، الروحي/ الزمني، القداسة/ الخطيئة...

وهنا أيضًا يجب تحاشي الخطر النسطوري والأوطيخي. فالنسطورية الكنسية تشدّد على دورها البشري والزمني والمرئي والاجتماعي...، على حساب البُعد الإلهي. والأوطيخية الكنسية تشدّد على الناحية الإلهية والروحية واللامرئية... على حساب الجانب الإنساني.

وإذا طبّقنا ذلك على الأسرار، فقد نقع في خطر الروح السحرية، إذا رأينا فيها البُعد الإلهي فقط (الأوطيخية)، كما قد نقع في خطر الروح النفعية، إذا رأينا فيها البُعد الإنساني فقط (النسطورية).

فكل حديث لاهوتي عن الكنيسة، عليه أن يراعي تمامًا البُعدين الإلهي/ الإنساني، دون تفضيل أحد العنصرين على الآخر، كما أن شخص يسوع المسيح الواحد إله/ إنسان دون تفضيل أحد العنصرَين على الآخر.

وخلاصة كلامنا أن على اللاهوت المعاصر أن يتمثّل باللاهوت المسيحاني، كما اتّضح لنا في مسيرتنا التاريخية لتقليد الكنيسة. ولقد أظهر لنا تاريخ الكنيسة صعوبة التوازن الحقيقي بين الألوهية/ الإنسانية، الوحدة/ التمييز... لذلك على اللاهوت المعاصر أن يتّعظ بصعوبة الماضي وأخطائه، ليأخذ منها عبرة، كي يتحاشى هو أيضًا كل لون من ألوان النسطورية أو الأوطيخية الماضية أو الحاضرة. فإن كانت النظرة التاريخية قد ساعدتنا على اكتشاف المخاطر بغية تحاشيها، فقد أدّى التاريخ دوره خير تأدية.

coptic-books.blogspot.com

وبناء على كل ذلك، يمكننا الآن أن نرسم ملامح «مسيحانية معاصرة».

ملامح المسيحانية المعاصرة

بوسعنا أن ننطلق من كلمة لبولس هي بمثابة اعتراف إيماني لإدراك أهم ملامح كل حديث لاهوتي عن يسوع المسيح:

«يسوع ابنه الذي وُلد من ذرية داود من حيث إنّه بشر، جُعل ابن الله في القوة من حيث إنه روح القداسة، بقيامته من بين الأموات. ألا وهو ربّنا يسوع المسيح» (روم ١/٣ - ٤).

إذا حلَّلنا هذا النص، رأينا ما يلي:

١، ٤: نقطة الانطلاق وكذلك نقطة الوصول هما الوحدة. وهما يخصّان هويّة يسوع المسيح الابن.

٢، ٣: التمييز بين الإنسانية (٢) والألوهية (٣) واضح ومهمّ. وأما الإنسانية فمرتبطة بحياة يسوع المسيح على الأرض وبشعبه. وأما الألوهية فبكونه ابنًا مملوءًا بالروح القدس.

٤: الحدث (Evénement) وهو القيامة.

فمن الجدير بالذكر أن بولس يراعي في نصّه المسيحاني هذه الوحدة/ التمييز، الألوهية/ الإنسانية، الهويّة/ الحدث، الحياة الأرضية (من تجسّد ورسالة)/ القيامة: فكل مسيحانية عليها أن تأخذ بعين الاعتبار هذه العناصر الأربعة المهمّة.

وثمّة عناصر أخرى مهمّة في كل حديث عن المسيح:

العنصر الخامس: كون يسوع المسيح لأجله (الثيولوجيا، الهويّة)، لأجلنا (الايقونوميّا، الغيرية).

coptic-books.blogspot.com

العنصر السادس: التاريخ/ الاسكاتولوجيا: فيسوع هو البداية والنهاية، الألف والياء، الذي كان ويكون ويأتي (رؤ ١/٨ و١٧ و٢/٨ و٢١/٦ و٢٢/١٣).

ويقول إيريناوس في هذا الصدد: «الذي أتى بالنهاية هو الذي حقق البداية أيضًا». «كان يجمع البداية بالنهاية، إذ هو سيد الواحدة والأخرى».

ففي البداية، لم يكن متجسّدًا، بل كان الابن الكلمة. وفي النهاية دخلت الإنسانية في الثالوث، فالتاريخ البشري - ويسوع المسيح هو ألفه وياؤه - دخل هكذا في الثالوث، في الاسكاتولوجيا. فكل حديث عن يسوع المسيح لا يقتصر على حياته الأرضية، بل ولا على قيامته من بين الأموات، بل يشمل أيضًا التحقيق المطلق لقيامته في نهاية التاريخ، وهذا هو مجيئه الثاني.

العنصر السابع: لا ينحصر الحديث عن يسوع المسيح في شخصه، دون أن ينفتح على الثالوث. فالمسيح يدخل البشرية في أحضان الثالوث، لأنه صعد بجسده المجيد إلى يمين الآب. ومن جهة أخرى، هي المسيحانية التي تعلن وتشرح الثالوث، فلا معرفة للثالوث إلاّ عن طريق يسوع المسيح. وقد تتّبع هذا الإعلان خطوات، الأولى هي البشارة حيث يظهر الآب (المتمثّل في الملاك) والروح (الذي يحلّ في أحشاء مريم)، ثم العماد والتجلّي. واكتمل هذا الإعلان على الصليب حيث أسلم روحه للآب، ومنح البشر روحه القدوس، فردّ عليه الآب بأن أقامه من بين الأموات.

العنصر الثامن: ما من مسيحانية حقيقية خارج الكنيسة التي تتسلّم وديعة الإيمان من الجيل السابق، لتسلّمها للجيل اللاحق. فالإيمان بيسوع المسيح إيمان كنسي، وبالتالي فإن اللاهوت المسيحاني لاهوت كنسي حتمًا. وعملية «التسلّم والتسليم» إنّما تتمّ بلغة العصر

coptic-books.blogspot.com

وعقليته واهتماماته، كما رأينا مرارًا.

هـذه هي أهم العناصر التي تكـوّن المسيحانيـة، أي الحـديث اللاهوتي عن يسوع المسيح. وسنـطبّق كل هـذه العناصر في حـديث متكامل شامل مبني على المراحل الثلاث لحياة يسوع المسيح: حياته على الأرض - قيـامته من بـين الأموات - «جمعه - دمجه» (Récapitulation) للبشرية.

فانطلاقًا من هذه المراحل، سنجد في تحليلنا العنـاصر الأخرى التي ميّزناها، وسنتّبع للحديث عنه تقسيمًا يستند إلى كونه وسيطًا بين الله والبشر. فهناك ثلاثة أقطاب إذًا: قطب الذات (le même)، أي أنه هو هو (هويّته)، هو الوسيط - قطب الغير (l'autre)، أي كونه في علاقة مع الإنسان (غيريته) - قطب الآخر (l'Autre)، أي علاقته بالله (غيريته المطلقة). ففي كل مرحلة من المراحل الثلاث سنميّز الأقطاب الثلاثة فيه.

coptic-books.blogspot.com

يسوع في أيام حياته على الأرض

كما رأينا في شرحنا لمسيرتنا المسيحانية المعاصرة، علينا أن نميّز بين ثلاثه أقطاب في شخص يسوع المسيح: قطب الذات (le même)، أي هويّته، وقطب الغير (l'autre)، أي علاقته بالبشر، وقطب الآخر (l'Autre)، أي علاقته بالله، وذلك لإظهار ازدواجيته الإلهية الإنسانية. فنتناول هذه الأقطاب الثلاثة بالتتالي.

يسوع إنسان حقيقي = «الذات»

ظهر يسوع كإنسان حق، أي مثلنا في كل شيء (ما عدا الخطيئة). هذه هي شهادة الأناجيل التي تُجمع على أن اسمه كان يسوع، شأنه شأن كل إنسان يولد ويُطلق عليه اسم. وكان، بحسب شهادة الأناجيل، ابن مريم، وكان معروفًا بأنه ابن يوسف النجار. أما ميلاده ففي بيت لحم، وأما طفولته ففي الناصرة حيث كبر ونما بالنعمة والقامة والحكمة كسائر أطفال عصره.

وكانت حياته حياة بشرية عادية من حيث الاحتياجات ـ من عطش وجوع، من تعب ونوم. . . ـ ومن حيث المشاعر ـ من فرح

coptic-books.blogspot.com

وتهلّل، من تعجّب وتحنّن، من حزن وبكاء، من غضب وتأنيب. . . ـ ومن حيث العلاقات ـ من أصدقاء كلعازر ومرتا ومريم، كيوحنا العزيز، كالتلاميذ الاثني عشر. . .

وكان مرتبطًا بشعبه وتاريخه، وقد درس كتابه المقدس. وما حدث له في هيكل أورشليم، عندما بلغ ١٢ سنة، ما هو إلاّ امتحان أي طفل عند دخوله سن المراهقة في الكتاب المقدس والمعلومات الدينية.

وكانت له رسالة معيّنة كأي إنسان في مجتمعه، وإن كانت هذه الرسالة خاصة، وهي رسالة إعلان ملكوت الله بين البشر، وتحقيقه على وجه الأرض بالمحبة الأخوية بين أبناء الله. وكما كانت له بداية بميلاده، كانت له نهاية كأي إنسان ـ وإن كان موته موتًا خاصًا ـ بعد آلام جسدية ومعنوية بالغة. وهنا علينا أن نتوقّف عند وعي يسوع لآلامه وموته وقيامته.

إن مختصر قولنا عن وعي يسوع لما سيحدث له أنه وجد نفسه يثير غضب الرئاسات الدينية والمدنية، شأنه شأن الأنبياء الذين اضطُهدوا وقُتلوا. أو، بعبارة أخرى، بيّنت له معرفته للكتب مصير الأنبياء لتمسّكهم برسالتهم الإلهية، فأيقن أنه ذاهب إلى المصير نفسه.

(١) ففي العهد القديم، لم يقبل بنو الشعب رسالة الأنبياء، بل اضطهدوهم وقتلوهم. وهذا ما يذكر يسوع لمستمعيه: «الويل لكم، تبنون قبور الأنبياء، وآباؤكم هم الذين قتلوهم. فأنتم شهود وأنتم على أعمال آبائكم توافقون: هم قتلوهم، وأنتم تبنون. لذلك قالت حكمة الله: أرسل إليهم الأنبياء والرسل، وسيقتلون منهم ويضطهدون، حتى يُطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء الذي سُفك منذ إنشاء العالم» (لو ١١/٤٧ ـ ٥١ ومتى ٢٣/٢٩ و٣٤ +). فيسوع يضع نفسه مع الأنبياء في قوله مثلاً: «لا يُزدرى نبيّ إلاّ في وطنه وذوي قرابته وبيته» (مر ٦/٤)، شاعرًا بأن مصيره واحد ومصير سائر الأنبياء، بل وكأنه يوقن

coptic-books.blogspot.com

بأن مصيره يشمل مصير جميع الأنبياء (يتطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء).

وبلهجة عنيفة يصرخ: «أورشليم أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها! كم من مرة أردت أن أجمع أبناءك، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا» (متى ٢٣/٣٧ ـ ٣٨ ولو ١٣/٣٤ +).

فعندما قال يسوع ذلك، كان يشعر بأنه يذهب إلى الموت، أي أنه يثير غضب اليهود وأن مصيره سيكون مصير الأنبياء.

وكانت أمامه صورة يوحنا المعمدان النبي أيضًا، وقد «فعلوا به على هواهم» (مر ٩/١٢ ـ ١٣)، وهو إيليا الجديد الذي عانى آلامًا شديدة. بل إن مصير يسوع نفسه مصير يوحنا المعمدان.

ولم يكتفِ يسوع بصورة الأنبياء ويوحنا، بل وضع نفسه في مرتبة الابن الذي سيُقتل، في مثل «الكرامين القتلة» (لو ٢٠/٩ +).

(٢) وفي العهد القديم أيضًا، وجد يسوع صورة أخرى تطابق رسالته، وهي صورة البار المضطهَد الواردة في مراثي أرميا أو المزمور ٢٢ أو أناشيد عبد يهوه... فاستلهم يسوع هذه الصور المعروفة عند اليهود معاصريه، وتنبّأ بآلامه وموته وقيامته انطلاقًا منها. وعندما كتب الإنجيليون أناجيلهم، استوحوا منها وصفهم آلام يسوع وموته.

وفي تنبّؤات يسوع عن موته/ قيامته، يمكن أن نستخلص تيارَين متكاملَين:

١ ـ تيار «يجب عليه أن»: (مر ٨/٣١: التنبّؤ الأول، لو ٢٤/٢٦: تلميذا عمّاوس، الخ...). وكلمة «يجب» لا تعني الحتمية على الإطلاق، بل يقصد يسوع من خلالها معنى إتمام قصد الله[1].

(١) وكذلك التعبير «كما في الكتب» لا يعني الحتمية إطلاقًا، بل «كما يريده الآب».

coptic-books.blogspot.com

فعندما تنبّأ يسوع بآلامه وموته، كان يعني أنه يتمّم مشيئة الآب.

٢ ـ تيار «ابن الإنسان» (مر ٩/٣١: التنبّؤ/ الثاني، الخ...). والمراد من ذلك أن يسوع يذهب بمحض إرادته إلى الآلام والموت، وأنه يختارها.

فالتياران متكاملان، بمعنى أن يسوع يُتمّ مشيئة أبيه ويختار هذه المشيئة فتصبح مشيئته الشخصية، اختياره الشخصي. لذلك صوّره الإنجيليون ذاهبًا إلى الموت (لوقا: الصعود إلى أورشليم ـ يوحنا: «طعامي أن أعمل مشيئة ...» ـ «الساعة»...).

٣ ـ وقد يتبادر إلى ذهن بعض الناس هذا السؤال: هل كان يسوع يعلم بما سيحدث له من آلام بكل التفاصيل التي وردت في الأناجيل، خاصة في تنبّؤاته الثلاثة؟

قلنا سابقًا إن يسوع قرأ مصيره في الكتب، شأنه شأن الأنبياء، فعلاقته باليهود، وقد أثار غضبهم، علاقة الأنبياء بشعبهم. والأفضل أن نفهم تنبؤاته من هذه الزاوية، لا من زاوية «علم مسبق» يجعل يسوع يعلم تفاصيل آلامه وموته بكل دقة، فقد تخلّى عن هذا الامتياز. ولكن الإنجيليين، في ضوء القيامة، وضعوا على لسانه التفاصيل الواردة حاليًا في الأناجيل. فبطبيعة الحال، لم يتصوّر يسوع أن موته سيكون على الصليب، لأن الأنبياء لم يموتوا هكذا، بل بالرجم. وكان الصلب عقابًا رومانيًا، لا يهوديًا. كان يعلم أنه ذاهب إلى الموت، ولكن دون التفاصيل.

وكذلك كان يعلم أنه سيقوم[٢] ولكن بدون التفاصيل، بل إن

(٢) فكرة «القيامة» جديدة في اليهودية، ظهرت في القرون الأخيرة قبل تجسّد المسيح. فكان كل يهودي يؤمن بها، وفي العهد القديم ملامح عنها (مثلاً أناشيد عبد يهوه ـ المزمور ٢٢، الخ). وفي الإنجيل إشارة إلى فئة الصدّوقيين الذين لم يكونوا يؤمنون بالقيامة (متى ٢٢/٢٣ +).

coptic-books.blogspot.com

قيامته لم تحدث كما عبّر عنها. فقال لعظيم الأحبار: «سوف ترون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القدرة، وآتيًا على غمام السماء» (مر ١٤/٦٢)، مستعينًا بالتعابير الكتابية (خاصة دانيال ١٣/٧ ومزمور ١/١٠٩)، ولكن لم تتحقق القيامة بهذه الطريقة[٣]. فلم يقصد يسوع إعطاء تفاصيل عن قيامته (وعن آلامه وموته)، بل استخدم التعابير الكتابية.

٤ ـ الذبيحة والموت عند يسوع في البذل الكلي: مهما كان الأمر من تفاصيل التنبؤات، فهناك أمر واضح كل الوضوح في الأناجيل، وهو أن يسوع اختار بمحض حريته موتًا كان بوسعه أن يخفف من غضب السلطات عليه، ولكنه، إخلاصًا لرسالته («مشيئة أبي» - «الساعة» ـ «يجب أن» ـ «كما في الكتب»)، قبل إتمام رسالته وتحمّل نتائجها عليه من آلام وموت[٤]. ونجد في كلامه إشارات واضحة إلى اختياره الموت الذي يعبّر عن الحب إلى «أقصى الحدود» (يو ١/١٣): «ما من حب أعظم من حب من يبذل حياته في سبيل أحبائه» (يو ١٣/١٥)، «الراعي الصالح يبذل حياته في سبيل خرافه» (يو ١٠/١٠)، «إن لم تقع الحبة من الحنطة في الأرض وتمت، تبق وحدها، وإذا ماتت أخرجت حبًا كثيرًا» (يو ٢٤/١٢)[٥].

(٣) إن التعبير «في اليوم الثالث» تعبير كتابي، يجب عدم فهمه حرفيًا كتوقيت زمني.

(٤) موت يسوع نتيجة إرادة الإنسان وقبول الله لهذه الإرادة. أو، بعبارة يوحنا، موته قد حرّض عليه «رئيس هذا العالم» بأنه حثّ اليهود على أن يطلبوا قتله. فيوحنا يصوّر في إنجيله المعركة بين الظلام/ النور/، الحق/ الكذب (الشيطان «أبو الكذب»)، الموت/ الحياة... في الظاهر، انتصر الشيطان ومن حرّضهم على قتل يسوع، ولكن في النهاية وفي العمق هو الذي غلب العالم (يو ٣٣/١٦).

(٥) كشف يسوع بذلك للإنسانية جمعاء (لا للمسيحيّين فقط) بُعدًا إنسانيًا في منتهى العمق، وهو أن الحياة الإنسانية الحقيقية (لا المثالية، بل الواقعية) هي عطاء وبذل إلى الغاية، أي إلى الموت. فكلما بذل الإنسان، أصبح أكثر إنسانية (لا أكثر مسيحية فقط)، وحقق ذاته على أعمق مستوى. والفلاسفة يقولون اليوم ان الشيء الخاص جدًا عند الشخص هو موته (أكثر من ميلاده أو حبه..). فيسوع أعطى =

coptic-books.blogspot.com

وفي الافخارستيا، يتحقّق بذل يسوع وعطاؤه وتضحيته، كما على الصليب. فهو يبذل حياته إلى الغاية في كل أفخارستيا. ويُرمز إلى موته فيها بانفصال الخبز والخمر، اللحم والدم[٦]. ولقد فهم بعض المفسّرين كلام يسوع «هذا هو جسدي» «هذا هو دمي»، على أن «هذا» لا يعني الخبز والخمر فقط، بل العطاء والبذل أيضًا، فيكون يسوع قد قصد أن يقول: جسدي ودمي أن أعطي ذاتي وأبذل نفسي، حياتي كلها (اللحم/ الدم) هي هذا العطاء والبذل والتضحية والذبيحة.

هذا وقد أنهى يسوع عهد الذبائح الحيوانية، ليكون هو الذبيحة الوحيدة والكاهن الوحيد الذي يقبل الله منه الذبيحة، كما توضّحه الرسالة إلى العبرانيين خاصةً. وقد استعاض يسوع عن ذبائح الحيوانات بالخدمة (غسل الأرجل مثلاً) والبذل الكلي إلى أقصى الحدود.

ومختصر القول أن يسوع كان إنسانًا كسائر البشر. هذا هو قطب هويّته، قطب الذات. فظهر للبشر ـ حتى في رسالته التي جلبت له الآلام والموت ـ إنسانًا.

يسوع الإنسان الحقيقي = «الغير»

ويقول لنا بولس إنه كان مثلنا في كل شيء، ما عدا الخطيئة، فكان يعيش في شفافية كاملة مع الله ومع البشر. بهذا المعنى، لم يكن إنسانًا حقيقيًا (أي مثلنا) فحسب، بل كان «الإنسان الحقيقي»، الإنسان الكامل، الإنسان المثالي الأعلى الذي يقتدي به الآخرون.

= البشر ذلك، وهو يدعو كل إنسان إلى اقتفاء أثره. هكذا لم يأتِ يسوع الكلمة لإعلان سر الله فقط (الله محبة ـ الله ثالوث)، بل لإعلان سر الإنسان أيضًا، إذ إنّه كان «يعلم ما في الإنسان» (يو ٢ / ٢٥).

(٦) يجمعها خادم الأفخارستيا ليرمز إلى أن الكلمة الأخيرة ليست للموت (انفصال العنصرَين)، بل للحياة (جمعها) التي تُعطى للكنيسة.

coptic-books.blogspot.com

هكذا ظهر للعديد من معاصريه. وهذا هو قطب الغيرية، أي علاقته بالغير وكقدوة لهم.

ويتمثّل هذا القطب في رسالته خاصةً، ولا سيّما في كلامه الذي كان يطابق أعماله، وأعماله التي كانت تطابق كلامه، وهما تعبيران متكاملان لنمط في الوجود والعلاقات مع الغير.

ويُجمع المفسّرون على أن رسالته هذه تنقسم إلى قسمين: في المرحلة الأولى من حياته الرسولية التي مضاها في الجليل (وهي الأطول)، بشّر بملكوت الله. وأمّا المرحلة الثانية التي صعد فيها إلى أورشليم، فقد بشَّر بشخصه[7]. ولنتناول هاتين الفترتين.

١ . **التبشير بملكوت الله**: أعلن يسوع الملكوت بأربع طرق مختلفة: التعليم ـ الاشفية ـ الأمثال ـ المائدة.

آ) **التعليم**: وضع يسوع أمام الجموع ميثاق الملكوت في العظة على الجبل ولا سيّما في التطويبات التي لخّصها في وصيته: «كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي كامل» (متى ٥/٤٨). ولأن الملكوت قريب، فقد نادى بتوبة القلب وتغيير الفكر فالإيمان (مر ١/١٥). وجميع القضايا البشرية (العلاقات بين البشر، العلاقة بالمال والجنس. .) إنما محورها الملكوت. لذلك أوصى: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، تُزادوا هذا كله» (متى ٦/٣٣). ولقد عاش يسوع نفسه التطويبات والملكوت على الأرض، هو «الوديع والمتواضع القلب»، لذلك قال: «تتلمذوا لي» (متى ١١/٢٩).

ب) **الأمثال**: ولقد دارت معظم أمثاله حول الملكوت: «يشبه ملكوت السموات. . .». وكان يسوع يحترم حرية المستمع.

(٧) راجع محاضراتنا في «تكوين الأناجيل» ـ السكاكيني ـ ١٩٨١ ـ ١٩٨٢. صدر في سلسلة «دراسات في الكتاب المقدس» رقم ١٨، دار المشرق ـ بيروت.

coptic-books.blogspot.com

لذلك خاطب الجموع بالأمثال لعلّهم يطلبون تفسيرها ليُدركوا معناها فيهتدوا (مر ٤/ ١٠ +). وكان منطلق أمثاله أبسط الأمور البشرية: الحياة الزراعية، العلاقات الاجتماعية... فلم يكن يسوع لاهوتيًا محنّكًا، بقدر ما اختبر الله في صميم حياته اليومية، فأعلنه. فأتت الأمثال غاية في البساطة والعمق والحقيقة في آن واحد. وكان يسوع هو نفسه «المثل» الحيّ، المثل الحقيقي، إذ كانت حياته تشير إلى الملكوت وتفهم الملكوت بشفافية تامة.

ج) **الاشفية**: جميع معجزات الشفاء التي قام بها يسوع كانت تشير إلى الملكوت وتحقّقه، فكانت علامة له. وعندما أوفد إليه يوحنا المعمدان تلاميذه يسألونه: «أأنت الآتي، أم «آخر ننتظر؟»، أجابهم: «العميان يُبصرون، والعرج...، والبُرص... والصُم... والموتى...، والفقراء يبشَّرون» (متى ١١/ ٢ +). فجميع هذه المعجزات إنّما تدل على أنه المسيح المنتظَر، وأن الملكوت لم يقترب فحسب، بل حلّ وتحقّق عن يده. لذلك استهلّ رسالته، كما ورد في لوقا، بآية أشعيا: «روح الرب نازل عليَّ لأنه مسحني لأبشِّر الفقراء وأرسلني لأعلن... للعميان... وأعلن سنة مرضية عند الرب» (لو ٤/ ١٨ +).

ولذلك أيضًا حين أُتي إليه بمُقعد، خاطبه بقوله أولاً: «مغفورة لك خطاياك»، ثم قال له: «قم واحمل سريرك» (مر ٢/ ١٠ +). فما الشفاء الجسدي إلاّ علامة وإشارة إلى الشفاء الروحي، أي إلى حلول ملكوت الله على الأرض، ذلك الملكوت الذي يصالح الإنسان مع نفسه (الشفاء الجسدي) ومع الله (مغفرة الخطايا) ومع الآخرين (مثل الممسوسين والبُرص مثلاً). وذلك لأن المرض هو علامة للخطيئة والموت، وأمّا الشفاء منه فعلامة لانتصار الملكوت، وآية لقيامة المسيح المقبلة.

coptic-books.blogspot.com

د) **المائدة**: كان يسوع يؤاكل الخطأة، من فريسيّين وعشّارين...، حتى عيب عليه ذلك. وكان يؤاكلهم لأنّه لم يأتِ ليدعو الأبرار، بل الخطأة (متى ٩/١٠ ـ ١٣). ومن جهة أخرى، كثّر مرتين الخبز والسمك للجميع. وخاطبهم بأنه هو خبز الحياة (يو ٦). وما ذلك إلاّ أنه شبَّه ملكوت الله بوليمة يدعو الله إليها جميع الناس، بما فيهم الفقراء والكسحان والعميان والعرجان، بل والخطأة (لو ١٤/١٥ +). فمؤاكلته الخطأة إنَّما هي علامة لتحقيق هذا الملكوت وتسبيق لملكوت السموات.

٢. **إعلان شخص يسوع**: في الفترة التالية لحياته، ركّز يسوع على إعلان ذاته، ولا سيّما لتلاميذه المقرَّبين إليه. ففيها شعر رفض اليهود له وحقدهم وحقد السلطات الدينية والسياسية. ولقد بادل هذا الحقد بالتسامح والمحبة. وذهبت به المحبة إلى أقصى الحدود، حتى إنَّه بذل حياته للبشر. وما الافخارستيا إلاَّ هذا العطاء: «خذوا وكلوا، هذا هو جسدي... هذا هو دمي...»، هذا العطاء الذي وصل إلى الغاية، أي إلى الصليب. والصليب هو رمز للفشل والحقد والموت» لكن القيامة حوّلته إلى رمز الانتصار والمحبة والحياة.

بمصير يسوع هذا، يمكن القول حقًا إنه «الإنسان الحقيقي». فعندما قال بيلاطس: «هذا هو الإنسان» (يو ١٩/٥)، أو قائد المائة: «حقًا، هذا الإنسان كان بارًا» (لو ٢٣/٤٧)[٨]، يظهر يسوع أسمى مثال للبشرية وأعظم قدوة لها، إذْ إنَّه عاش ما يعيشه أي إنسان بطريقة مثلى.

يسوع الابن = «الآخر»

ليس شخص يسوع هو «الذات» و«الغير» فحسب، بل هو «الآخر» أيضًا، أي في علاقة فريدة من نوعها مع الله، الآب والروح.

(٨) الترجمة الصحيحة لكلمة Anthropos هي «الإنسان»، لا «الرجل».

coptic-books.blogspot.com

وإن كان هو «الإنسان الحقيقي»، فلأنه «الإله الحقيقي»، ابن الآب، الذي يملأه ويقوده الروح.

١ . **سلطة يسوع**: ظهرت سلطة يسوع الإلهية في مواقف عديدة من حياته الأرضية. ففي عظته على الجبل، قدّم نفسه كموسى الجديد: الذي يُعطي الشريعة الجديدة، بل كإله، حين قال: «قيل لكم. . . أما أنا فأقول لكم. . .». وله سلطة مغفرة الخطايا (في شفاء المُقعد مثلاً) والدينونة ومنح الحياة الأبدية. . . (في إنجيل يوحنا خاصةً)، وهي سلطة الهية لا بشرية، كما أنه يدعو بسلطان إلى ترك كل شيء واتّباعه. . .

٢ . **علاقته بالآب**: كان يسوع يدعو نفسه «الابن» (إنجيل يوحنا)، وذلك منذ طفولته (حادث الهيكل وعمره ١٢ سنة). وفي صلاته، كان يدعو الله «أبًا». وفي مثل الكرّامين القتلة، اعتبر نفسه ابن صاحب الكرمة. في العهد القديم، الكرمة هي إسرائيل وصاحبها هو الله. وفي أحاديثه قال إن طعامه أن يعمل بمشيئة أبيه، وقد تمثّلت هذه الطاعة في أقصى حدودها في بستان الزيتون حيث قال له: «لا مشيئتي، بل مشيئتك». وهذا ما يعنيه عندما كان يقول: «يجب على ابن الإنسان أن يُسلم إلى أيدي. . .». فلفظة «يجب» لا تعني على الإطلاق استسلامًا أو قضاء وقدَرًا، بل الطاعة للآب، وقد اختار هذه الطاعة. هذا وقد مثّل يوحنا يسوع قاصدًا وعازمًا على الذهاب إلى الموت، عانيًا بذلك اختياره الحر لطاعة الآب.

وقد يتبادر هذا السؤال: متى وعى يسوع أنه ابن الآب؟ هل كما قال بعض الآباء: منذ الأحشاء؟ يأتينا الردّ من لوقا خاصةً، وهو الذي تحدث عن «نموّ» الطفل يسوع. فلا غرابة بالتالي أن يكون وعيه لألوهيته ولبنوّته تدريجيًا، كأي إنسان ينمو ويعي تدريجيًا. فالوعي التدريجي لألوهيته لا يعني إطلاقًا أنه لم يكن إلهًا فأصبح إلهًا (بدعة

coptic-books.blogspot.com

أريوس)، بل كان وعيه تدريجيًا. فالنمو لا يخص الكينونة الإلْهية، بل الوعي لهذه الكينونة الإلْهية. وتقول الرسالة إلى العبرانيّين إنه «تعلّم الطاعة» (عب ٥/٨)، قاصدة هذا النمو في حياته وفي علاقته بالآب. ويؤكّد مرقس أن يسوع كان يجهل الأزمنة والآونة (مر ١٣/٣٢، وأكثر منه متى ١١/٢٧ أو لوقا أو حتى يوحنا ٥). إلاّ أنّه من المستحيل أن نعرف متى بدأ يسوع يعي ألوهيته. فالأناجيل لا تأتينا بأي ردّ على سؤالنا هذا، ولكن ثمّة حوادث في حياته تُظهر لنا وعيه هذا: حادث الهيكل وسنّه ١٢ سنة، العماد، التجلّي...

٣. علاقته بالروح: وتُظهر لنا الأناجيل علاقة يسوع بالروح القدس. ففي البشارة يتدخّل الروح لتحبل به مريم العذراء. ورسالته كلها يقودها الروح: من عماد وذهاب إلى البرّية..، حتى انه استعان، في أول عظة له في مجمع كفرناحوم، بنص أشعيا الذي ورد فيه أن «روح الله نازل عليّ». وكان يعمل بالفعل بقوة الروح القدس (لو ٤/١٤ و١٨).

ووعد تلاميذه بمجيء الروح الذي يرسله بسلطان من الآب (يو ١٤ ـ ١٦ و٧/٣٨ ـ ٣٩). وقد منحه حقًا على الصليب، إذ «أسلم الروح» (يو ١٩/٣٠) وخرج ـ رمزًا إليه ـ «ماء» من جنبه المطعون (يو ١٩/٣٤)، ووهبه لتلاميذه بعد قيامته، عندما نفخ فيهم ليقبلوه (يو ٢٠/٢٢)، في انتظار العنصرة التي هي نشأة التبشير بموته وقيامته (رسل ٢). فكل ذلك قد أعلن عنه يسوع إعلانًا تدريجيًا، لأنه وعاه وعيًا تدريجيًا، كما أن تلاميذه فهموه فهمًا تدريجيًا، حتى نالوا الروح القدس.

وهذه العلاقة الوثيقة بين يسوع والآب والروح ليست علاقة خارجية، بل هي علاقة داخلية، داخل الثالوث، نابعة من أنهما أقنومان من الثالوث، بحسب تعبير اللاهوت العقائدي.

coptic-books.blogspot.com

الخلاصة

بين هويّته الإنسانية (الذات) والإلٰهية (الآخر)، هناك إذًا حياة يسوع المثلى (الغير). ويسوع المسيح (الذات) هو الوسيط الحقيقي بين الله (الآخر) والإنسان (الغير). ومعنى ذلك أن الله ينكشف في حياة إنسان هو بالفعل إله أيضًا.

ولكن هناك حادثًا متعاليًا يفوق كل وساطة بشرية، ولم يتصوّره العقل البشري ولم يتنبّأ به العهد القـديم، ألا وهو القيـامة من بـين الأموات. وهذا هو موضوع الفصل القادم.

coptic-books.blogspot.com

يسوع المسيح القائم من الموت

إن القيامة حدث اسكاتولوجي، أي خاصّ بنهاية حياة يسوع المسيح على الأرض، بل وبنهاية الأزمنة البشرية التي تدخل مع يسوع المسيح في ملكوت الله وتصعد إلى يمينه. فنتناول في هذا الفصل صفة يسوع المسيح الاسكاتولوجية، تاركين للفصل القادم الحديث عن الاسكاتولوجيا البشرية.

إن القيامة تُظهر يسوع المسيح في القوة والمجد والانتصار والحياة، ذاك الذي ظهر أيام حياته على الأرض، ولا سيّما في صلبه، ضعيفًا، مُفرَغًا، فاشلاً. لذلك، علينا ألاّ ننطلق في هذا الفصل من حياة يسوع على الأرض، بل من مجد قيامته، لا من ذاتيته الإنسانية التي كانت تظهر للبشر، بل من ذاتيته الإلهية التي ظهرت لتلاميذه حين تراءى لهم. فالمنطلق هو قطب «الآخَر» (l'Autre)، أي علاقته المجيدة بالله، ومنه ننتقل إلى قطب «الغير» (l'autre)، أي علاقته الخلاصية بالبشر، حتى نصل إلى قطب «الذات»، أي أنه هو يسوع نفسه الذي عاش ومات بين البشر. فلنتتبع هذه المراحل الثلاث. فمسيرتنا إذًا تنازلية: من الإلـه إلى الإنسان، في حين أن مسيرتنا في الفصل السابق كانت

coptic-books.blogspot.com

تصاعدية: من الإنسان إلى الإله. وهما حركتان متكاملتان، كما ذكرنا مرارًا.

يسوع المسيح الابن = «الآخر»

بفعل القيامة، تظهر هويّة يسوع الحقيقيـة، المحجوبـة في أيام حياته على الأرض، أي أنه ابن الآب حقًا. هذا ما لم يظهـر للبشر الذين لم يروا فيه إلاّ إنسانًا، وإن كان إنسانًا حقيقيًا، وإن كان أعلن لهم أن له علاقة خاصّة بالآب فلم يفهموه. هذه الهوية الإلهية نريد أن نحلّلها.

من الخادم المتألم إلى الرب المجيد: ظهر يسوع في حياته على الأرض، ولا سيّما في آلامه وصلبه وموته خادمًا متألّمًا، «عبدَ يهوه»، كما وصفه أشعيا في أناشيده الأربعة. غير أن بعض الملامح التي وردت في الأناجيل الإزائية أظهرت ألوهيته، كالعماد والتجلّي: «هذا هو ابني الحبيب». والقيامة هي التي أظهرته جليًا كالسيد المنتصر المجيد.

فالقيامـة تثبّت ادّعاء يسـوع بأنـه الابن. بسبب ادّعائـه هذا، استوجب الموت عن يد البشر. وبقيامته أثبت الله أنه ابنه حقًا. إن الذي مات لأنه قال إنه ابن الله، قد قام. ومعنى ذلك أن الله أكّد أن كلامه حقيقي، فإنه ابن الله حقًا. إن القيامة هي حكم الله النهائي لصالح يسوع، ردًّا على طاعته (عب ٥/٧). ولقد حاول الرسـل أن يعبّروا عن ذلك في خطبهم الواردة في سفر أعمال الرسل، عندما أعلنوا أن يسـوع النـاصري قـد «أقـامـه الله»، مستعينـين بـألقـاب (Titres-Titulature) كـ«السيّد»، «الديّـان»، «المسيح»، «الابن»...، وواصفين ما حـدث له: التمجيـد والرفـع والصعود عن يمين الآب والسجود له...

إلاّ أنّ إثبات ما قاله يسوع لم يكن العنصر الوحيد في القيامة،

coptic-books.blogspot.com

فللقيامة طابع جديد أيضًا، عبّر عنه الرسل بقولهم: «جعله الله سيّدًا وديّانًا» (رسل ٢/٣٦) - «جُعل ابن الله» (روم ١/٤) - «جُعـل وارثًا للكل» (عب ١/٢)، «منحه الله الاسم الذي يفوق كـل اسم» (فل ٢/٩)... ونحن نذكر أن مثل هذه التعابير قد حملت أريوس عـلى اعتبار يسوع إنسانًا فقط أصبـح إلهًا فيـما بعد، في حـين أن التقليد الكنسي رأى منذ أول لحظة أنه إله منذ البدء. فالمراد بهذه التعابير هو الادلاء بأنه قد طرأ على يسوع شيء جديد للغاية كانت تخفيه حياته الإنسانية بين البشر، ويعني ذلك أن الجديد خاص بإنسانية يسوع التي قامت (روم ١/٣ - ٤)، هذه الإنسانية التي أخفت ألـوهيته وهـويته الحقيقية بموجب «الافراغ» (kenosis)، إذ إنّه أفرغ ذاته من كل مظاهر الألوهية. لأن يسوع إنسان حقًّا، فقد مرّ بمراحل التطوّر البشري كسائر البشر، وظهرت ألوهيته للبشر بالتدريج حتى اكتملت في قيامته وصعوده وحلول الروح القدس على التلاميذ. احترم يسوع التطوّر البشري فلم يعلن عن ألوهيته إلاّ تدريجيًا خطوةً خطوة، لكي يدرك ويستوعب البشر ألوهيته هذه تدريجيًا، وإلاّ لما فهموا شيئًا، كما لم يفهمه الذين صلبوه وقتلوه، فلم يؤمنوا به كابن الله الآب إلاّ في ضوء قيامته وظهوره لهم.

القيامة والبنوّة: بين جميع الألقاب التي عبّر بها الرسل عن ألوهية يسوع المسيح، ثمّة «الابن» الذي هو أكثر من لقب، إنه لبّ هوية يسوع المسيح (راجع رسل ١٣/٣٣ وعب ١/٥ و٥/٥) وارتباطه بالآب.

فالقيامة هي التي مكّنته من الصعود إلى يمين الآب: وبهذا المعنى يجوز القول إن القيامة حقّقت البنوّة، لا بمعنى أن يسوع لم يكن فأصبح ابنًا للآب، بل بمعنى أن يسوع الذي خرج من الآب يعود إلى الآب (راجع يو ١٣/١ + و١٧/١ +).

ثم إنّ القيامة كشفت عن البنوّة الإلهية الحقيقية التي لم تظهـر

coptic-books.blogspot.com

للبشر في أيام حياة يسوع على الأرض، بل لم يفهموها رغم إعلان يسوع عنها ورغم بعض المشاهد كحادث الهيكل وسنّ يسوع ١٢ سنة، أو العماد والتجلّي وهما مشهدان يستبقان مجد قيامته. وعلى الصليب، أسلم يسوع لأبيه روحه (لو ٢٣/٤٦) بعد أن أتمّ مشيئته تمامًا (يو ١٩/٢٩)، وبالقيامة ولد الآب ابنه في جسده للحياة الجديدة الأبدية. فالصليب والقيامة قد أظهرا وكشفا التبادل بين الآب والابن: والابن يعطي الآب والآب يعطي الابن، الابن يأتي من الآب ويعود إليه.

القيامة والروح

كشف الصليب حقًا للبشر أن يسوع يملك الروح القدس. فهذا الروح، الذي حبلت منه مريم بيسوع، قد «أسلمه» يسوع على الصليب (يو ١٩/٣٠)، ممّا يُظهر جليًا أن بين يسوع المسيح والروح القدس علاقة خاصة وهي علاقة الألوهية. فلكل منهما دور تكويني بالنظر إلى الآخر: الروح يحلّ في أحشاء مريم لتحبل بيسوع، ويسوع على الصليب يهب الروح للعالم[1]. فيهب يسوع لتلاميذه هذا الروح (يو ٢٠/٢٢ ـ ٢٣ ورسل ١/٥)، ذلك الروح الذي وعد به يسوع قبل موته (يو ١٤/٢٦ و١٥/٢٦ و٧/٣٨ ـ ٣٩). فلا يستطيع يسوع المسيح أن يهب الروح القدس، روح الآب والابن، إن لم يكن هو نفسه الله. فالقيامة كشفت للبشر تلك الألوهية التي تهب الروح القدس. هكذا ظهرت العلاقة الخاصة بين يسوع المسيح والروح القدس، كما ظهرت العلاقة بينه وبين الآب.

(١) قد يكون ذلك حلاً للجدال اللاهوتي الخاص «بانبثاق الروح القدس من الابن» (Filioque). ينبثق الروح من الابن على الصليب وبعد القيامة، وينبثق الابن من الروح بحلول الروح في أحشاء مريم لتحبل بيسوع. إن هذا الانبثاق المتبادل خاص «بالايقونوميّا»، غير أنها تعبّر عن «الثيولوجيّا».

coptic-books.blogspot.com

يسوع المسيح المخلّص = «الغير»

تتحوّل هنا نظرتنا من الناحية الثيولوجية (هوية يسوع المسيح الإلهية) إلى الناحية الايقونومية (غيريّته الخلاصية). فالقيامة أظهرت ملء هذا البعد الخلاصيّ من حياته.

في أيام حياته على الأرض، كان يسوع يقوم بأقوال وأعمال خلاصية اكتملت على الصليب حيث سلّم كل شيء إلى الآب، مطيعًا إيّاه، وبذلك خلّص البشر فأصعدهم معه إلى يمين الآب. فحركة خروجه من الآب، فعودته إليه بموته وقيامته، هي حركة صعود البشرية إلى أحضان الآب، وهذا هو الخلاص. إن الخطيئة هي استقلال آدم عن الله، على نقيض يسوع الذي سلّم حياته للآب وأطاعه كل الطاعة. ويسوع، بتسليمه كل شي للآب، خلّص البشر من هذه الخطيئة. الخطيئة هي عصيان آدم لله، وأما يسوع فأطاع الآب حتى الموت على الصليب. الخطيئة ولّدت الأنانية والبغض عند آدم وحواء، قايين وهابيل، وأما يسوع فانتصر عليهما بالحب والتسامح. فالقيامة هي إذًا تصديق من لدن الآب على كل ما فعله يسوع المسيح نحو الآب ونحو البشر. القيامة هي انتصار على الخطيئة، وذلك بالمصالحة التي تمّت، بفضل يسوع المسيح، بين الله والبشر، بين البشر أنفسهم. فإذا قال يسوع على الصليب «نعم» للآب (٢ قور ١/١٩)، فبالقيامة يقول الآب لابنه وبالتالي لأبنائه البشر: «نعم». وإذا بذل يسوع حياته على الصليب محبةً للبشر (يو ١٥/١٣) وسامحهم باضطهادهم وبغضهم له (لو ٢٣/٣٤)، فبالقيامة يسامح الآب البشر ويتصالح معهم. وإذا كان يسوع على الصليب هو الذبيحة والكاهن معًا (عب ٩/١١ ـ ١٢ مثلاً)، فبالقيامة يقبل الآب ذبيحة هذا الكاهن الأعظم والوحيد ـ أي الوسيط ـ إلى الأبد، عن كل خطايا البشر. لذلك كله، لم يمت يسوع «بسبب خطايانا» فحسب (هذا ما قالته الاعترافات الإيمانية القديمة، مثلاً ١ قور ١٥/٣)، بل «لأجل خطايانا» أيضًا (روم ٤/٢٥)، أي

coptic-books.blogspot.com

لكي يحرّرنا من الخطيئة وليصالحنا مع الآب.

والقيامة هي انتصار على الموت أيضًا. فما الخطيئة والمرض والألم وعدم المحبة إلاً علامات للموت. حين كان يسوع يشفي المرضى ويخفّف الألم ويغفر الخطايا ويبشّر بالمحبة ويحقّقها في حياته... إنّما كان يرمز بالفعل إلى الانتصار على الموت. وما كان يرمز إليه في أقواله وتعاليمه، بل وفي أعماله، قد تحقّق بصفة مطلقة في قيامته وبها. وبما أنّ القيامة هي ردّ الآب على ابنه، فهي إذًا تثبيت وتصديق من الآب أن كل ما قام به ابنه في حياته حقيقي، وأن حياته، بل وموته على الصليب فقيامته من بين الأموات، انتصار كلّي على الموت وكل علامات الموت.

والقيامة هي ملء الحياة في الله. فإن الصليب والموت هما بسبب الخطيئة، بل هما صورة للخطيئة، أي الابتعاد عن الله. وأمّا القيامة فهي، على عكس ذلك، ملء الحياة في الله، والمسيح، الذي أصبح يحيا حياة الله، أشرك فيها البشر الذين أصبحت حياتهم محتجبة في الله مع المسيح (قول ٣/٣) ونالوا البنوّة الحقيقية (روم ٨) وشاركوا في الطبيعة الإلهية (١ بط ١/٤). وهذا ما قاله الآباء: «جعل الله نفسه حاملاً للجسد (Sarcophoros)، ليصبح الإنسان حاملاً للروح (Pneumatophoros)». وقال إيريناوس ومن بعده العديد من الآباء: «كلمة الله... جعل نفسه ما نحن (ce que nous sommes)، ليجعل منّا ما هو (ce qu'il est)». إن قيامة المسيح هي، بهذا المعنى، وضع البشرية المكتمل، إذ إنّه، بصعوده الى يمين الآب، أصعدنا معه، «أجلسنا في السموات» (اف ٢/٦). وهذا ما كان قد وعد به حين قال: «إذا رُفعت من الأرض (أي على الصليب وعن يمين الآب في آن واحد)، جذبت إليّ الناس أجمعين» (يو ١٢/٣٢). فحركة صعود يسوع المسيح من الدنيا إلى الآب، مرورًا بالصليب، إنّما هي إصعاد

coptic-books.blogspot.com

البشرية أيضًا إلى أحضان الآب، واكتمالها حيث يصبح الله «الكل في الكل».

يسوع المسيح القائم من الموت هو يسوع الناصري = «الذات»

إن يسوع المسيح، الذي قام من بين الأموات، هو يسوع نفسه الذي عرفه التلاميذ وعاشوا معه. لم تُفقده قيامته هويّته ولا إنسانيته بالأخص، بل ظل بعد قيامته ما كان قبلها في أيام حياته على الأرض، وإن كان ذلك بطريقة مختلفة. وذلك ما يستدعي شيئًا من الشرح.

إن القائم من الموت هو الذي عاش بين البشر. فمجد قيامته لم يُزِل عنه ملامح إنسانيته وشخصيته، بل ظلّ إنسانًا بكل معنى الكلمة. وهذا هو مغزى إظهار أثر المسامير والجروحات في يديه ورجليه وجنبه. ظنّ التلاميذ أنه شبح، فأراهم آثار الصلب[٢]، فضلاً عن أنه كرَّر الحركات التي كان يفعلها في أيام حياته على الأرض، من مباركة الخبز وإعطائه وأكله... وهذا ما جعل تلاميذه يؤمنون بأن الذي أمامم في ترائيه لهم هو يسوع الناصري نفسه. ثم إنّه فسَّر لهم الكتب (لو ٢٤/٢٥ و٢٧ و٤٤ مثلاً) ـ وقد حققها تحقيقًا تامًّا ونهائيًا ـ كما كان يفسّرها ويحقّقها في أيام حياته على الأرض. وقصد الله باختياره شعب إسرائيل قد تمّ كاملاً به في موته وقيامته، وهذا ما عبّر عنه كاتب رسالة العبرانيّين في قوله: «يسوع المسيح هو ذاته الأمس واليوم وإلى الأبد» (١٣/٨). هو يسوع الناصري نفسه قبل موته وبعد قيامته وإلى انقضاء الدهر.

(٢) إن لوجود أثر الآلام في جسده المجيد معنًى روحيًا عميقًا جدًا، وهو أن آلام البشرية كلها لا تزال موجودة في مجده، فلا يغيب عن مخاض البشرية، ولا ينفي وجود الشر ونتائجه من ألم وعذاب وخطيئة... فالشر لا يزال حاضرًا وعاملاً في البشرية، وعلامته في جروحات يسوع المسيح، لكن القائم من الموت قد انتصر عليه انتصارًا.

coptic-books.blogspot.com

فليس يسوع المسيح القائم من الموت شخصًا «آخر» (un autre)، بل هو شخص «مختلف» (autre)، شخص بشكل آخر، أي أن ملامحه البشرية قد تغيّرت، ولكنه ظلّ الشخص نفسه. إنه يسوع الناصري نفسه، ولكن بطريقة مختلفة. هذا ما نعبّر عنه في المفهوم اللاهوتي: «الجسد المجيد» (Corps glorieux). فبعد قيامته، احتفظ يسوع المسيح القائم من الموت بجسده نفسه قبل موته، ولكن هذا الجسد أصبح مجيدًا، أي تحوّل جسد «عبد يهوه» إلى جسد السيّد والرب. وعندما بشّر الرسل بيسوع المسيح المجيد، قالوا إنّه يسوع الناصري (راجع ١ يو ١/١ + مثلاً).

الجسد المجيد

١. تمجّد جسد يسوع، أي أن جسده البشري المجيد أصبح غير خاضع للزمان والمكان وللعناصر الطبيعية، خارجًا عن عالمنا هذا وعن حدوده وقوانينه وشروطه وقيوده، حرًا من عالم الدنيا حيث تجسّد وعاش. وهذا ما تعبّر عنه الأناجيل عندما تصوّر لنا يسوع المسيح القائم من الموت يتراءى لتلاميذه «والابواب مغلقة». فلم يعد هناك ما يقيّد جسده، ولم يعد جسده في قبضة العالم الطبيعي.

٢. ثم إنّ الجسد البشري عامّة هو مركز العلاقات البشرية. فالإنسان يدخل في علاقة مع إنسان آخر بواسطة جسده، كما أنه يحضر لإنسان آخر من خلال جسده. وبما أن الإنسان هو في الزمان والمكان، فجسده خاضع لهما، وبالتالي لا يستطيع أن يحضر لإنسان آخر إلاّ في زمن معيّن وفي مكان معيّن. أمّا الجسد المجيد فيصبح حاضرًا كلّيًا لكل الزمان ولكل المكان، وبوجه مطلق، وبحرية تامة، دون أي حد أو قيد. وهذا ما يعجز أن يفعله الجسد البشري العادي، إذ إنّ الأجساد منفصلة بعضها عن بعض بسبب الزمان والمكان. وأمّا الجسد المجيد فبوسعه أن يدخل في علاقة مع الأجساد البشرية الأخرى، مع البشر،

coptic-books.blogspot.com

من كل زمان وكل مكان. إذ إنّه خارجها ويشملها. لذلك تمكّن يسوع من القول: «إذا رُفعت من هذه الأرض، جذبتُ إليَّ الناس أجمعين» (يو ١٢/٣٢). فإنه يستطيع أن يجذب البشر بأجمعهم من كل العصور[٣] وكل الأماكن[٤]، وذلك بفضل جسده المجيد. هذا ما لم يستطعه بجسده البشري قبل القيامة، إذ إنّه كان محدودًا في زمن معيّن ومكان معيّن. فالقيامة بدّلت جسده من جسد خاص إلى جسد كلّي، شامل، أو- بعبارة بولس- من «الجسد البشري» (أو «النفسي») إلى «الجسد الروحاني» (١ قور ١٥/٤٤ - ٤٩). والجسد الروحاني يستطيع أن يدخل في علاقة مع كل البشر.

٣. وليست الأجساد البشرية منفصلة بعضها عن بعض بسبب الزمان والمكان فقط، بل بسبب الخطيئة أيضًا. فالخطيئة فاصل بين الله والبشر، وبين البشر أنفسهم. وأما القيامة من بين الأموات، فإنها تُزيل سلطان الخطيئة: «إذا لم يكن المسيح قد قام، فإيمانكم باطل ولا تزالون بخطاياكم» (١ قور ١٥/١٧)- بموته قد مات عن الخطيئة» (روم ٦/٩). فبانتصاره على الخطيئة بفضل موته وقيامته، وبإبطال سلطان الخطيئة، تكتسب الأجساد القائمة من الموت شفافية كاملة تسمح لها بالاتصال بعضها ببعض، دون أي عائق. وبقيامته المجيدة، اكتسب جسد يسوع شفافية مطلقة تجعله يدخل في علاقة مع كل البشر بدون أي حد ولا قيد. هذا ما لم يحدث في أيام حياته على الأرض، لأن جسده كان «جسدًا شبه جسدنا الخاطئ» (روم ٨/٣)- «هذا الذي لم يعرف الخطيئة، جعله الله خطيئة من أجلنا» (٢/قور ٥/٢١)- «صار جسدًا ولعنة من أجلنا» (غل ٣/١٣)، فكان جسده خاضعًا لآثار الخطيئة. وأما بالقيامة، فقد أصبح جسده مجيدًا، لا تحدّه الخطيئة على الإطلاق. فيستطيع أن «يسكن في» الإنسان (راجع يوحنا)، أن «يحيا

(٣) «هاءنذا معكم طوال الأيام إلى انقضاء الدهر» (متى ٢٨/٢٠).
(٤) «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، كنت هناك بينهم» (متى ١٨/٢٠).

coptic-books.blogspot.com

في» الإنسان (راجع بولس)، أن يظهر في صورة الإنسـان، ولا سيّما الصغير والفقير (راجع الدينونة العظمى في متى ٢٥)....

وهذه الشفافية تسمح للمسيح بأن يدمج في شخصه المجيد كل البشر، وهذا ما سنراه في الفصل الرابع عشر.

coptic-books.blogspot.com

الجزء الثالث — **الفصل الرابع عشر**

يسوع المسيح «يجمع يدمج» البشرية

لا يطرأ جديد على «ذات» يسوع المسيح بعد قيامته، بل على «غيريّته» البشرية، أي على علاقته بالبشر، ونوعية هذه العلاقة، إذ تصبح غيريّته هي البشرية الممثّلة بالكنيسة وهي جسده وعروسه بحسب تشابيه بولس. فما تمّ بالقيامة ليسوع المسيح من رفع وتمجيد وصعود إلى يمين الآب، يتحقّق في البشرية على مرّ الأجيال والعصور، أي في التاريخ البشري.

إن تاريخ البشرية يحقّق لها ما تحقّق نهائيًا ليسوع المسيح بقيامته. فإذا انتصر يسوع المسيح على الخطيئة والموت، فعلى البشرية أن تنتصر عليهما في مسيرتها نحو الآب. وكما أن يسوع المسيح، الذي خرج من الآب، عاد إليه بقيامته، كذلك على البشرية أن تعود إلى الآب وتحيا حياته. وخلاصة القول انّ نهاية يسوع المسيح (القيامة والصعود) هي بداية البشرية الجديدة (مسيرة الصعود نحو الآب). إن البشرية تحقّق تاريخيًا ما حدث ليسوع المسيح. فهي، بهذا المعنى، تكملة له وامتداد له، حتى إن ذاتية يسوع المسيح تصبح البشرية نفسها، لأنها أصبحت جسده وعروسه، فإن تاريخه يصبح تاريخها، ومصيره مصيرها. وتكتمل

coptic-books.blogspot.com

هذه المسيرة التاريخية عندما «يجمع - يدمج» يسوع المسيح كل شيء (اف ١/ ١٠) ليسلّمه إلى الآب.

وسنتّبع في هذا الفصل الأخير خطوات الرسل الذين تساءلوا عن بداية يسوع المسيح بعد أن عاشوا نهايته. فإذا كشفت قيامته عن بنوّته الإلهية، فهذا يعني أنه كان الله قبل حياته البشرية، في أزليته، فكان في علاقة خاصة مع الآب منذ الأزل (قطب «الآخر») وفي علاقة خاصة بالخليقة التي خلقها الآب (قطب «الغير»). فهذه الحركة هي حركة تصاعدية من «الياء» (نهايته) إلى «الألف» (بدايته). وثمّة أخيرًا حركة تنازلية، وهي من «ألف» الكلمة الأزلي إلى «ياء» البشرية التي تكمّله، أي انقضاء الدهر، حيث «يجمع - يدمج» هذه البشرية في مسيرتها نحو الآب، وطيلة هذه المسيرة تصبح البشرية قطب «الذات» ليسوع المسيح: هو في السموات وهي على الأرض.

من الياء إلى الألف = «الآخر»

بعد أن قام يسوع المسيح وصعد إلى يمين الآب، ولم يعد يظهر للرسل، تساءلوا عن بداية يسوع المسيح. فإن كان النهاية («الاسكاتولوجيا») فهو البداية («البروتولوجيا») أيضًا. لو لم يكن البداية، لما أصبح النهاية. وقد تتبّع تبشيرهم به، بل وتساؤلهم عنه، أربع مراحل: موته وقيامته، ثم حياته العلنية، ثم ميلاده، وأخيرًا ما قبل ميلاده. هكذا تعمّق الرسل في فهم سرّ يسوع المسيح، فعبّروا عنه بتعابير مختلفة:

الآب أبو يسوع: عندما تساءل الرسل عن أصل يسوع، أيقنوا أنه مزدوج وعبّروا عن ذلك في الأناجيل الإزائية حين أوردوا أصله البشري في «النسب» (متى ١/١ - ١٧ ولو ٣/٢٣ - ٣٨)، وأصله الإلهي في «حلم يوسف» (متى ١/١٨ - ٣٥) وفي «البشارة» (لو

coptic-books.blogspot.com

١/٢٦ - ٣٨)، وفي «العماد» (مر ١/٩ - ١١) و«التجلّي» (مر ٩/٢ - ٨)(١). فالبنوّة الإلهية التي هي الأولى مطلقًا - يقول الفلاسفة «منطقيًا» - أتت تعابيرها بعد التعابير عن القيامة التي هي الأولى «تاريخيًا»، بمعنى أن الرسل عبّروا أولاً عن مجد القيامة، ثم عن الميلاد ولا سيّما عن أصل يسوع الإلهي.

يسوع المسيح صعد لأنه نزل: وعبّر بولس عن حقيقة أصل يسوع المسيح الإلهي بتعابيره الشخصية، فلم يتطرّق إلى ميلاد يسوع ولا إلى حياته على الأرض، بل إلى إرسال الله إيّاه (غل ٤/٤ وروم ٨/٣). وعبّر في نشيدين خاصةً عن هذه الحقيقة(٢)، ففي قولسي يقول لنا على يسوع المسيح أنه «صورة الله غير المرئي» (١/١٥) و«هو البدء» (١٨) و«كان قبل كل شيء» (١٧).

وفي نشيد فيلبي يقول «إنه في صورة الله» (٢/٦)، معبّرًا هكذا عن أصله الإلهي، خاتمًا نشيده بأنه «هو الرب» (١١). وبين الألف (٦) والياء (١١)، هناك «الافراغ» («أفرغ ذاته»: ٧) في التجسّد («متّخذًا صورة العبد...»: ٧) وفي الصلب والموت («أطاع حتى الموت على الصليب»: ٨)، حتى «رفعه الله ووهب له الاسم...» (٩ +).

ويعبّر بولس عن الحقيقة عينها بتعبير آخر وهو الصعود/ النزول (التجسّد): «ما المراد بقوله «صعد»، سوى أنه نزل إلى أسافل الأرض؟ فذاك الذي نزل هو نفسه الذي صعد إلى فوق السماوات كلها

---

(١) الجدير بالذكر أن كل الألقاب الواردة في هذه النصوص - «ابن العلي»، «ابن الله»، «المسيح الرب» (الملائكة للرعاة)، «ابني الحبيب»... هي بمثابة قراءة لميلاد يسوع في ضوء قيامته المجيدة. فوضع الرسل على لسان الملائكة مسبقًا ما اكتشفوه هم بعد قيامته من ألقاب ومن بنوّة إلهية.

(٢) من الثابت تفسيريًا أن نشيدي فيلبي وقولسي، وكذلك نشيد أفسس، ليست لبولس، بل كانت معروفة آنذاك، فأوردها بولس في رسائله.

coptic-books.blogspot.com

ليملأ كل شيء» (اف ٤/ ٩ ـ ١٠). فقد اختبر بولس القيامة والصعود أولاً، وانطلاقًا منهما تساءل عن أصل يسوع المسيح، فأيقن أنه نزل أولاً، أي تجسّد، ليستطيع أن يصعد[٣]. فانطلق بولس إذًا من الياء (الذي اختبره) ليعلن الألِف.

يسوع المسيح الكلمة والابن: وعبّر يوحنا عن حقيقة يسوع المسيح الإلهية بطريقته الخاصة، ولا سيّما بلفظتين: «الابن» و«الكلمة». فإنجيله كله يدور حول هويّة يسوع «الابن»، ابن الآب، وقد استهلّ إنجيله بحديثه عن «الكلمة».

ويعبّر عنها بطريقتَين أخريَين: «أنا هو» (Ego eimi). والمعروف أن هذه العبارة هي التي أوحى بها الله عن ذاته لموسى (خر ٣/ ١٤، ٢٨/٨)، فاستخدمها يسوع أكثر من مرة (يو ٨/ ٢٨ و٥٨ و١٣/ ١٩ و٦/ ٢٠ و١٨/ ٥ ـ ٨...). فلم يقل يسوع فقط: «أنا خبز الحياة»، «أنا نور العالم»، «أنا الراعي الصالح»، «أنا الطريق والحق والحياة»، «أنا القيامة»...، بل قال أيضًا «أنا هو»، مشيرًا إلى أصله الإلهي. وإن إنجيل يوحنا يردّ على السؤال: «من أنت؟»، «من أين أنت؟»، «إلى أين أنت تذهب؟»... وهي أسئلة تخص هويّته الإلهية.

وعبّر أيضًا يوحنا عن حقيقة يسوع الإلهية بأنه «من الله» و«إلى الله»: خرج منه فيعود إليه (١٣/ ٣ و١٦/ ٢٨ و١٧/ ٥...). فسرّ إنجيله هو الخروج من الآب للعودة إليه، وقد خرج منه إذ أرسله الآب إلى العالم عن محبة ولخلاصه (٤/ ٣٤ و٥/ ٢٣ ـ ٢٤ و٣٠ و٣٧ و٦/ ٣٨ ـ ٣٩ و٤٤...). إن عودة يسوع إلى الآب برفعه على الصليب وإلى يمين الآب ـ وهذا ما اختبره التلاميذ ـ تعلن وتُظهر أصل

(٣) ويقول يوحنا ما يشبه ذلك: «لم يصعد أحد إلى السماء إلاّ الذي من السماء نزل» (٦/ ١٣). إنجيل يوحنا يردّ على السؤال: «من أنت؟»، «من أين أنت؟»، «إلى أين أنت تذهب؟» وهي أسئلة تخص هويّته الإلهية.

coptic-books.blogspot.com

يسوع بأنه أتى من الآب. وفي صلاته الأخيرة قبل آلامه، الصلاة الكهنوتية (١٧)، كشف يسوع عن شركته مع الآب (١٠) وحبه له (٢٤) وحياته فيه (٢١).

هذه هي أهم التعابير التي عبّر بها الرسل عن قطب «الآخر» عند يسوع المسيح بعد قيامته وصعوده، عندما أرادوا التعمّق في سرّه، واكتشفوه بعد قيامته وصعوده.

من ياء المسيح إلى ألف البشرية الجديدة = «الغير»

واستمر الرسل في محاولة تفهّم سر المسيح، فتساءلوا عن علاقته بالخليقة. إذا كان منذ البدء، فله إذًا دور في الخلق، ولا سيّما في خلق الإنسان. هذا هو قطب علاقة يسوع المسيح المجيد بـ«الغير»، أي بالبشرية. وثمّة تعابير مختلفة استعانوا بها للدلالة على ذلك.

وسيط الخلاص هو وسيط الخلق: كما أن الرسل انطلقوا من حدث قيامة المسيح ليؤكّدوا أنه ابن الله، أي من يائه إلى ألفه، فكذلك انطلقوا من البُعد الخلاصي ليؤكّدوا دور المسيح في الخلق. وبالأخص، إذا كان دوره الخلاصي يشمل البشرية بأجمعها، فلأن له دورًا في الخلق، دورًا شموليًا.

ولقد استخدموا العهد القديم، ولا سيّما تيار «الحكمة» (سيراخ، الأمثال، الحكمة) الذي ورد فيه أن «حكمة الله» كانت قبل كل شيء، قبل إنشاء العالم، مع الله، وسيطًا بينه وبين الخلق.

وربط بولس بين الخلاص والخلق أكثر من مرة: «هناك إله واحد وهو الآب، فيه كل شيء وإليه نحن راجعون، ورب واحد وهو يسوع المسيح، به كان كل شيء وبه نحن قائمون» (١ قور ٨/٦).

وكذلك، في نشيد قولسي، يتحدث عنه كـ«باكورة الأموات» (البُعد الخلاصي) و«باكورة الخلائق»، «صورة الله غير المرئي»، به قوام كل

coptic-books.blogspot.com

شيء»، «فيه يحلّ كل كمال الألوهية حلولاً جسديًا». والنشيد كله يُظهر جليًا أن المخلّص هو بالفعل الخالق. وكذلك ورد في الرسالة إلى العبرانيّين أنه «شعاع مجد الله وصورة جوهره»، وقد «أنشأ العالمين» (١/٢ - ٣).

ويأتي يوحنا بالفكرة نفسها بلغته، فالكلمة «به كان كل شيء، وبدونه ما كان شيء ممَّا كان، وفيه كانت الحياة... به كان العالم» (يو ١/٣ و١٠). وهو «رأس خليقة الله» (رؤ ٣/١٤).

بل الخلق كله ليس «به» فحسب، بل «له» أيضًا: «كل شيء خُلق به وله» (قول ١/١٦). وسنرى أن الخليقة بأسرها «يجمعها - يدمجها» في شخصه المجيد (اف ١/١٠).

الاختيار فيه والتبنّي به: وفي نشيد أفسس، يدور التسبيحان الأوّلان حول دور يسوع المسيح في الخلق[٤]: «(الآب) باركنا في المسيح كل بركة روحية في السموات، ذلك بأنه اختارنا قبل إنشاء العالم» (١/٣ - ٤)[٥]. فاختيار الله للبشر «قدّيسين بلا عيب في المحبة» قد تمّ «في المسيح». وكذلك: «قدّر لنا أن يتبنّانا بيسوع المسيح على ما ارتضته مشيئته» (١/٥). فالتبنّي يتحقّق به. وهكذا ليس للمسيح دور في الخلق والاختيار والخلاص فحسب، بل في العلاقة الخاصة التي تربط الله بخلائقه، في قصد الله الأزلي.

آدم الجديد: إن آدم الأول هو، بحسب تعبير بولس، «صورة للآتي بعده» (روم ٥/١٤)، أي ليسوع المسيح، آدم الثاني، آدم الجديد. وآدم الثاني تاريخيًا هو فعلاً ومنطقيًا الأول في قصد الله. فقصد الله كان أن يكون يسوع المسيح «بكرًا لأخوة عديدين»، فيكون البشر

---

(٤) قبل الخطيئة. وأمّا التسبيحات الأربعة الأخرى فبعد الخطيئة. وكون بولس يستخدم اسم «يسوع المسيح»، «الكلمة» مثلاً أو «الابن الأزلي» جعل بعض اللاهوتيّين يقرّون بأنه لو لم يخطأ الإنسان لتجسّد المسيح مع ذلك.

(٥) وللإنسان الحرية في أن يقبل اختيار الله هذا أو يرفضه.

coptic-books.blogspot.com

بـأجمعهم «على مثـال صـورة ابنـه» (روم ٨/٢٩). آدم الأول سبّب الموت، وأمّا آدم الثـاني فأتى بـالحياة (١ قـور ١٥/٢١ - ٢٢، ٤٥ - ٤٨). الأول وقع في المعصية، وأمّا الثاني فقبل الطاعة (روم ٥/١٩). فليسوع المسيح علاقة خاصة بالبشر، علاقة وثيقة جدًا، إذ عليهم أن يكونوا على صورته. وإذا تمّ لهم الخلاص به، فلا يتحقّق ذلك إلاّ لأنه «بكر الخلائق»، «قبل إنشاء العالم» وقد اشترك في الخلق مع الآب.

الكلمة صار بشرًا: وعبّر يوحنا عن هذه الحقيقة بلاهـوته التنـازلي حيث قـال: «الكلمـة صـار بشرًا» (١/١٤). فـإن «ذات» «الآخر»، أي هويّة الله الكلمة، أصبحت «الغير»، أي إنسانًـا. ان «الآخر» أصبح «الغير»، الله دخل التاريخ. وان «الآخر» اقترب من «الغـير»، الله أتى إلى خاصتـه. وبالتـالي دخلت الصيرورة («صـار») والتاريخ في الله، لأن الله دخل التاريخ[٦]. والإنسان اقترب من الله، لأن الله اقترب منه، ولم يتمّ ذلك إلاّ لأن الذي أصبح إنسانًا هو الله نفسه، خالق الكون كله والإنسان خاصة.

هكذا نكون قد أوضحنا علاقة يسوع المسيح القائم من الموت بـ«الغير». فعلينا الآن أن نصوّب إلى القطب الثـالث منه، ألا وهـو قطب «الذات».

من ألف المسيح إلى ياء البشرية = «الذات»

إن «ذات» يسوع المسيح القائم من الموت والصـاعد إلى يمـين الآب لم تعد في الأرض. ومع ذلك لا تزال في الأرض، لأن يسوع المسيح حاضر مع البشر: «ها إني معكم طوال الأيام إلى انقضاء الدهر» (متى ٢٨/٢٠). فـالـذي كـان منـذ البـدء والـذي خلّص البشر («الأمس»)، لا يزال حيًّا بين البشر («اليوم») إلى نهايـة العالم («إلى

(٦) نتذكّر أننا قلنا ان فكرة الله «غير - المتغيّر» فكرة غير مسيحية. فالله «صار» إنسانًا.

coptic-books.blogspot.com

الأبد»)، هو ذاته من الألف إلى الياء. فقد انتقل الرسل من فهمهم سرّ المسيح في بدايته («الألف») إلى فهم سرّه في نهايته («الياء»)، فنهايته البشرية، إذ أصبحت الكنيسة جسده، أي «ذاته». وفي ذلك قمة «الافراغ» و«إنكار الذات»، حيث أصبحت ذاته هي البشرية، وحيث فقد ذاته في غيره، أي في البشرية.

المجيء الثاني

ويجدر بنا هنا أن نتذكّر أن المسيحيين الأوَّلين كانوا ينتظرون مجيء يسوع المسيح الثاني في كل لحظة. والرسالتان إلى تسالونيقي والرسالتان إلى قورنتس تعبّر خير تعبير عن هذا الانتظار. وكانوا يتوقعون أن يكون مجيئه الثاني (نهايته) بمثابة نهاية البشرية، حيث سيُخطف معه البشر إلى أحضان الآب. إلاّ أنهم أيقنوا تدريجيًا أن مجيئه الثاني هذا لا يأتي في لحظة واحدة، وشيكة الحدوث، بل هو عملية مجيء قد بدأت منذ أن صعد إلى السموات فأرسل روحه القدوس ليجعله هذا الروح حاضرًا للبشرية[7]. فميّزوا بالتالي نهاية يسوع المسيح بموته وقيامته وصعوده عن نهاية البشرية، في حين أنهم لم يميّزوها في بادئ الأمر. فالبشرية تسير نحو نهايتها ويسوع المسيح ذاته حاضر لها في هذه المسيرة، بل إنّه مسيرتها ومصيرها، لأن البشرية ـ المتمثّلة بالكنيسة ـ أصبحت جسده، عروسه، ذاته، أصبحت الكنيسة امتدادًا له ولتجسّده وخلاصه بالنسبة إلى البشر.

وما نهاية البشرية إلاّ المجيء الثاني، حيث يصبح يسوع المسيح «كل شيء في كل شيء» (اف ١/٢٣)، أي «يخضع له كل شيء» (١ قور ١٥/٢٤ +)، أي «يجمع ـ يدمج» كل شيء ما في السموات وفي

(٧) راجع في هذا الصدد في سلسلة «الإيمان والحياة» رقم ٥، الجزء الثالث من كتاب «المجتمع في ميزان الكنيسة»، الذي يوضّح تغيير فهم المجيء الثاني من مجيء «لحظي وشيك» إلى «عملية» مجيء، للإنسان دوره الفعال فيها، خاصةً بالمحبة.

coptic-books.blogspot.com

الأرض (اف ١/ ١٠). وعلينا أن نستفيض في التعابير التي عبّر بها الرسل عن هذه الحقيقة.

على صورة الابن: إن نهاية البشرية أن تشبه يسوع المسيح، أن يصبح الجميع مطابقين له، ليكون هو «الأخ البكر لإخوة عديدين» (روم ٨/ ٢٩). فقد خلق الله الإنسان على صورته ومثاله، وكشف العهد الجديد أن الصورة الحقيقية هي صورة يسوع المسيح نفسه في البشر. خلق الله البشر ليكونوا على صورة ابنه الأزلي. فالابن الذي كان وسيط الخلق، كان نموذجًا ومثالاً لهذا الخلق. وأما البشر، فقد شوّهوا هذه الصورة بخطيئتهم. فلمّا تجسّد الابن وخلّصهم من سلطان الخطيئة والموت، أعاد إليهم هذه الصورة الأصلية، فأصبح هكذا «الأخ البكر» حقًّا، وأصبحوا يشبهونه مرّة أخرى. أصبح مصير البشرية مصير يسوع المسيح: البنوّة الإلهية.

وليكون هذا «الأخ البكر»، عاش متضامنًا معهم كل التضامن، في ولادته وتجاربه وآلامه وموته. هذا ما كان قد عبّر عنه مجمع خلقيدونيا بقوله «إنسانًا حقًّا». فلو لم يتضامن معهم تضامنًا كاملاً، لما كان بوسعهم أن يصبحوا هم «صورة» له، ويصبح هو «أخًا بكرًا» لهم.

تحقيق الكتب: وثمّة تعبير آخر يشير إلى العلاقة الوثيقة القائمة بين يسوع المسيح والبشر من زاوية الكتب. فيقال إنه حقق الكتب، وهو بنفسه فسّر لتلاميذه الكتب وفتح أذهانهم لفهمها بعد قيامته. فيجوز القول أيضًا إنّه عاش في شخصه تاريخ شعب إسرائيل، ولخّص في حياته مواقف الشعب المختار.

وتجربة آدم في الفردوس قد عاشها في البرّية عندما جرّبه الشيطان مثلما جرّبت الحيّة آدم وحواء، كما أنه عاش في البرّية ما اختبره الشعب الإسرائيلي في البرّية من علاقة خاصة بالله ومن تجربة مستمرّة تهدف إلى تفضيل الشيطان على الله. بل عاش المنفى في مصر فالعودة إلى أرض

coptic-books.blogspot.com

فلسطين، كما عاشها الشعب العبراني. وأطعم الجموع في البرّية، كما أطعم الله شعبه في البرّية. وأعطى البشرية الشريعة الجديدة، كما أعطى الله شعبه وصاياه عن يد موسى.

وقد بذل ذاته حتى الموت على الصليب كذبيحة وككاهن، كما ذهب إسحق حاملاً خشب الذبيحة. وحقّق نبوءات «عبد يهوه» الذي سيق إلى الذبح ليفدي الجموع. وعاش مصير الأنبياء الذين اضطهدهم وقتلهم الشعب والرؤساء.

ولكنه قام فأصبح حيًا إلى الأبد، وأصبح وسيطًا بين الله والبشر. فكما أن الملائكة كانوا يصعدون وينزلون السلّم في حلم يعقوب، كذلك أصبح هو «الوسيط» الذي يجمع البشر بالله. أصبح حقًا «عمانوئيل»، الله مع البشر.

هكذا يجوز القول إنه لخّص في حياته تاريخ البشرية وبالأخص تاريخ الشعب المختار. فليس هو مفتاح الكتب ومعناها وتحقيقها فحسب، بل إنه تضامن أيضًا، بطريقة مركّزة، مكثّفة، تضامنًا حقيقيًا وواقعيًا وكاملاً. ولا يكفي القول، على مثال مجمع خلقيدونيا، إنه إنسان حقًا، إنسان كامل، بل يجب إظهار كيفية تضامنه مع البشر، كما أظهرناه بإيجاز هنا. فخلقيدونيا «أنطولوجي» اللغة، أمّا حديثنا هنا فهو «تاريخي».

الكنيسة جسد المسيح: إن تضامنه مع البشرية يذهب إلى أنه يريد أن يجمعها في جسده المجيد. وأولى خطوات هذا الجمع هو تأسيس كنيسته التي هي جسده وعروسه، أي امتداده وحضوره على الأرض لجميع البشر. وحين صعد إلى الآب، ترك للبشر كنيسته لتكمّله فيما بينهم، حتى إنها تصبح ذاته، مكمّلة رسالته، وذلك بفضل الروح القدس الذي كان فيه فأصبح فيهم.

coptic-books.blogspot.com

ويقـول في رسله: «من سمـع إليكم سمـع إليَّ...» (لـو ١٠/١٦)، وفي الأطفال: «من قبل هذا الطفل إكرامًا لاسمي، فقد قبلني أنا» (لو ٩/٤٨)، وفي الفقراء: «كل ما فعلتموه بواحد من إخوتي هؤلاء الصغار، فلي قد فعلتموه» (متى ٢٥/٤٠)... هكذا اعتبر يسوع المسيح أنَّه لا يزال حيًا وحاضرًا في البشر ولا سيّما في كنيسته، وإن كان البشر لا يعرفونه: «في وسطكم من لا تعرفونه» (يو ١/٢٦) ١ - «متى رأيناك جائعًا...؟» (متى ٢٥/٣٧). فلأنـه ممجّد عن يمـين الآب، بوسعه أن يحضر في كل إنسان، لا في كنيسته فقط وبصفة خاصة في الأسرار، وبنوع خاص في الافخارستيا. أصبحت حقًا «ذات» يسوع كنيسته؛ جسده الحي، أو، بتعبير آخر، لجسده المجيد وجهان: وجه في السماء وهو المجيد، ووجه على الأرض وهو المجاهد.

حَمَل نهاية الأزمنة: إن يسوع المسيح، الحاضر مـع البشر وهم إلى انقضاء الدهر، هو الذي يضفي على تاريخ البشريـة معناه ويمنحه قيمته. ولقد رمز يوحنا إلى ذلك، عندما صوّر الحمل الذي يفضّ الخـاتم السابـع (رؤ ٨)، وصوّر السمـوات الجديـدة والأرض الجديدة التي هو صانعها (رؤ ٢١) وصوّر عـروس الحمل التي زيّنهـا لـذاته (رؤ ١٩/٦ +). فهـو حقًا «ملك الملوك ورب الأربـاب» (رؤ ١٧/٤ و١٧)، أي سيّـد تاريـخ البشرية، وهـو «الألف والياء» (رؤ ١٣/٣٣...)، أي بداية ونهاية تاريخ البشرية ومسيرتها.

بهـذا المعنى، كما أنـه متضامن تمـامًا مـع الآب والروح، فـإنه متضامن تماماً مع البشر وتاريخهم، مصيرهم ومسيرتهم.

«الجمع - الدمـج»: نلخّص كل مـا سبق في الكلمة التي يستخدمها نشيد أفسس، عندما يصرّح لنا بـأن سر «مشيئة» الآب، والتدبير الذي ارتضى قضاءه، هو أن «يجمع - يدمج في المسيح كل شيء ممّا في السموات وفي الأرض» (١/١٠). فإن هدف الله المطلق وقصده

coptic-books.blogspot.com

الأول والأخير ومشيئته الأزلية هي أن «يجمع ـ يدمج» يسوع المسيح الكون كله.

ولقد حاول يسوع المسيح في أيام حياته على الأرض أن يفعل ذلك. فلقد خاطب أورشليم قائلاً لها: «كم مرة أردت أن أجمع أبناءك...» (لو ١٣/٣٤). وشبّه نفسه بالراعي الصالح الذي يجمع رعيته (يو ١٠)، ودعا لوحدة تلاميذه (يو ١٧)، وسبقهم إلى الجليل بعد قيامته (متى ٢٨/٧)، ووعدهم بأنه يتوسط كل الذين يجتمعون باسمه (متى ١٨/٢٠)... وفي جمعه إيّاهم، يقودهم نحو الآب، إذ إنّه «الطريق» إليه (يو ١٤/٦). ويتحقّق ذلك كله بعد قيامته وصعوده إلى الآب حيث يجذب الجميع إليه (يو ١٢/٣٢).

وللتعبير عن ذلك كله، يستخدم نشيد أفسس (١/١٠) اللفظة اليونانية anakèphalaiôsasthai، التي تعني: أرجع وجمع وترأس، لخّص وركّز واختصر، كان المبدأ والرأس ورأس المال والعنوان والمركز والمجموع. إن هذه اللفظة غنية وعميقة جدًا، ولذلك يصعب علينا أن نعرّبها بدقّة، لذلك رأينا أن نترجمها بـ«جمع ـ دمج» (بحسب تعبير إيريناوس: Récapitulation). فيسوع المسيح المجيد لا يجمع البشر فحسب، بل إنّه يدمجهم أيضًا في شخصه وفي جسمه المجيد وهو في أحضان الآب[٨]. إن جسده المجيد يتضمّن البشرية لتكون عن يمين الآب. فالمسيح في مجده بجسده المجيد يحوي كل آلام البشرية وآمالها، أفراحها وأتراحها.... وهي حاضرة بفضله داخل الثالوث.

هذا هو قصد الآب الأزلي. فيسوع المسيح يُخضع لنفسه جميع البشر ليُخضعهم بدوره للآب (فل ٣/٢١ و١ قور ١٥/٢٤ ـ ٢٦)، فهكذا «يكون الله كل شيء في كل شيء» (١ قور ١٥/٢٨). فيسوع

(٨) يعبّر بولس عن هذا الاتّحاد بين المسيح والمؤمنين بكلمة «في» (en): «المسيح يحيا فيَّ». وأمّا يوحنا ففضّل على ذلك، كلمة «ثبت فيَّ»/ «أثبتُ فيه».

coptic-books.blogspot.com

المسيح هو الوسيط حقًا بين الله والبشر، بين «الآخر» و«الغير»، والبشر فيه وهو فيهم.

فالكلمة الأخيرة لكل «مسيحانية» هي أن «يجمع - يدمج» يسوع المسيح البشر. فإنه يجمعهم كلهم معًا ويدمجهم فيه ليكونوا فيـه وفي الآب وليكون هو والآب فيهم، بفعل الروح القدس.

coptic-books.blogspot.com

الخلاصة:
تقليد المسيحانية
بين القديم والحديث

في نهاية مطافنا في المسيحانية، يجدر بنا أن نلقي نظرة شاملة على المسيحانية القديمة والحديثة، ذاكرين بادئ ذي بدء أن التقليد في المسيحانية يشمل كلتا المسيحانيتين، وأن لا أولوية مطلقة لواحدة على الأخرى. كنيسة كل جيل تتسلّم وتسلّم وديعة الإيمان، فكنيسة اليوم تتسلّم مختلف المسيحانيات الماضية وتسلّم مسيحانيتها الخاصة بأسلوبها ومنهجها، بفلسفتها وحضارتها، بعقليتها واهتماماتها... تسلّمها إلى كنيسة القرون القادمة، واضعة بصمتها الخاصة المميّزة والمعبّرة عن القرن العشرين، أو بالأحرى النصف الثاني منه.

ولا يخيَّل إلينا أن مسيحانية اليوم أفضل من غيرها أو أكثر كمالاً من غيرها، فقد رأينا مرارًا أن على كل لاهوت أن يعبّر عن جيله بلغة جيله. والكنيسة في حاجة إلى تعددية المسيحانيات زمنيًا، كما أنها في حاجة إليها مكانيًا أيضًا، أي في هذه الكنيسة وتلك، في الكنيسة

coptic-books.blogspot.com

الشرقية والغربية معًا، في كنيسة أمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية، في كنيسة البلاد الشيوعية والبلاد الحرة... كل ذلك يكوّن تقليد الكنيسة، تقليد اللاهوت، تقليد المسيحانية.

وكي يتسنّى لنا المقارنة بين المسيحانية القديمة والحديثة، بوسعنا أن نميّز بين مستويين متكاملين، مستوى ثيولوجي يختص بشخص يسوع المسيح، ومستوى أنثروبولوجي يختص بإنسان القرن العشرين. أما الأوّل فهو خاص بمسيحانيتنا الشرقية، ولا سيّما القبطية، وأمّا الثاني فبالمسيحانية الغربية، ولا سيّما المعاصرة. وكي نطعّم لاهوتنا الشرقي بالجديد، سندقّق النظر على المستوى الأنثروبولوجي، لا لأنه أفضل من غيره، بل لأنه يستطيع أن يكمّل المستوى الثيولوجي الذي نفضّله في تراثنا الشرقي، وأن يخاطب إنسان القرن العشرين، وإن كان شرقيًا. ولو كان حديثنا موجّهًا إلى مجتمع غربي، لكنّا دقّقنا النظر على المستوى الثيولوجي، تكملةً للصعيد الأنثروبولوجي.

المستوى الثيولوجي: بين نقطة انطلاق المسيحانية ونقطة وصولها

لقد ذكرنا مرارًا أن المسيحانية القديمة «تنازلية»، أو «من فوق»، أي أنها تنطلق من كون يسوع الناصري هو المسيح، الكلمة، ابن الله. فمفهومها اللاهوتي الأساسي والمُعطى الأول هما: التجسّد:

«في البدء كان الكلمة
والكلمة كان لدى الله
والكلمة هو الله...
به كان كل شيء...
فيه كانت الحياة...

coptic-books.blogspot.com

والكلمة صار بشرًا
فسكن بيننا» (يو ١/١ - ١٤).

«أحب الله العالم حتى جاد بابنه الوحيد» (يو ٣/١٦)، «عظيم هو سر التقوى: الله ظهر في الجسد» (ا طيم ٣/١٦).

فالإيمان - في «المسيحانية التنازلية» - ينطلق «من فوق»، من الله، لينزل «إلى تحت»، إلى البشر، فيسكن الله الكلمة بينهم. إن المنطلَق هو أن يسوع الناصري من جوهر الله الآب، ويصل في نهاية مطافه إلى أنه من جوهر الإنسان، أي بشر مثلهم في كل شيء، ما عدا الخطيئة.

وأما المسيحانية الحديثة فإنها «تصاعدية»، أو «من تحت»، أي أنها تنطلق من هذا الإنسان المسمّى يسوع، المحدود زمنيًا ومكانيًا، ابن يوسف وابن مريم، الناصري. ويتدرّج المسار إلى أنه ابن الله: «كان هذا الإنسان ابن الله حقًا» (مر ١٥/٤٠). فنقطة الوصول هي أنه لا إنسان فحسب، بل الله أيضًا.

غير أن هذه المسيرة - وهي مسيرة الأناجيل الازائية وأعمال الرسل - تستدعي شيئًا من التحليل. فلنحلّلها في العهد الجديد.

في الأناجيل الازائية: إن الأناجيل الإزائية تكشف عن علاقة مميّزة بين يسوع الناصري والله الآب. فمنذ بدايتها والصبي يسوع يؤكّد أنه ينبغي له أن يكون لأبيه (لو ٢/٥٠)، متجرِّئًا أن يسمّي الله أباه: «أبًا» (بلغتنا: «بابا»). ومنذ بداية رسالته ويسوع المعلّم يبشّر بملكوت أبيه، ملكوت السموات، معتبرًا أن طعامه هو أن يحقّق مشيئة الآب ويتمّم عمله (يو ٤/٣٤)، وكذلك شرابه وهو «عطشان» أن ينفّذ هذه الإرادة (يو ١٦/٢٨). حتى في بستان الزيتون، اختبر مشيئة الآب ومشيئته الشخصية في صراع معها. وحتى وهو معلّق على الصليب، اختبر أن الله أباه قد خذله (مر ١٥/٣٥). غير أنه حقّق

coptic-books.blogspot.com

كاملاً إرادة الآب، إذ صرخ من على الصليب: «تمّ كل شيء» (يو ١٩/ ٣٠)، أي أتمّ يسوع كل ما أراده الآب لخلاص العالم. فأسلم، في النهاية، روحه بين يديه (لو ٢٣/ ٤٦).

غير أن حياة يسوع، ولا سيّما أقواله وأعماله، إنما هي تدل على أنها أقوال وأعمال إنسان، بل أكثر من إنسان. وإذا كان مرقس يستهل إنجيله بقوله: «بدء بشارة يسوع المسيح، ابن الله» (مر ١/ ١)، فلا يعني ذلك أن إنجيله تنازلي، بل هو تصاعدي، بمعنى أن هذه البداية سؤال مطروح على القارئ باستمرار لمعرفة من هو يسوع وما هي هويته. فيتابع مرقس السؤال نفسه فيما يطرحه يسوع على تلاميذه: «من أنا، في قولكم أنتم» (مر ٨/ ٢٩). وكانت في حياة يسوع عدة مشاهد ـ كما رأينا ـ تكشف عن هويّته الإلهية، منها العماد والتجلّي، أي عن علاقته المميّزة مع الآب والروح القدس.

كل ذلك، إنّما هو بمثابة مسيحانية تصاعدية تنطلق من ناسوت يسوع الناصري لتصل إلى لاهوته.

في أعمال الرسل: إذا كان يسوع قد صلب ومات، فلأنه ادّعى أنه ابن الآب، ابن الله. فلمّا مات وهو يؤكّد ذلك، ولمّا «أقامه الله» (رسل ٢/ ٢٤)، «وهب له الاسم الذي يفوق كل الأسماء» (فل ٢/ ٩ ـ ١١)، «جعله سيّدًا ومخلّصًا» (رسل ٥/ ٣١). فهذا يعني أن يسوع كان ابن الله حقًا، فلم يكن ادّعاؤه كذبًا، بل حقيقة، وإلاّ لَما أقامه الله من بين الأموات.

نرى من خلال ذلك أن حدث الموت/ القيامة في المسيحانية الحديثة التصاعدية هو الحدث الأساسي والمفهوم الجوهري، في حين أن التجسّد كان منطلق المسيحانية القديمة التنازلية.

وجدير بالذكر أن الإعلان الأوّل للكنيسة الناشئة عن يسوع

coptic-books.blogspot.com

المسيح إنَّما تركّز على موته/ قيامته كما رأينا ـ وفي حركة تصاعدية هي الأخرى: «يسوع هذا (= الإنسان كما ظهر للجموع) قد أقامه الله . . . فلمّا رفعه الله بيمينه، نال من الآب الروح القدس الموعود به فأفاضه» (رسل ٢/ ٣٢ ـ ٣٣). فنقطة الانطلاق إنّما هي يسوع الناصري الذي رأته الجموع وسمعته ولمسته (راجع مثلاً ١ يو/١ +)، ونقطة الوصول إنَّما هي يسوع الممجّد بالقيامة والصعود وإرسال الروح، وكلها تُظهر هويّته الإلهية التي كانت متسترة في أيام حياته على الأرض.

وخلاصة القول ان المستوى الثيولوجي إنَّما أظهر لنا في الازائيات وأعمال الرسل تجانسًا مع الاهتمام اللاهوتي في القرن العشرين الذي ينطلق من ناسوت يسوع ليصل إلى لاهوته، وكذلك من حدث موته/ قيامته، ليصل إلى تجسّده.

المستوى الانثروبولوجي: بين الشخص وتاريخه

لننتقل الآن إلى النظرة الانثروبولوجية ، أي الخاصة بالإنسان. ونودّ أن نلقي ضوءًا على مفهوم «الشخص» في المسيحانية القديمة والحديثة، وعلى أهمية «التاريخ» فيها.

الشخص: في المسيحانية القديمة، تبدو النظرة إلى الشخص نظرة موضوعية، فهي مرتبطة بالكائن (ousia) والطبيعة (phusis) والقناع (persona). وأمَّا في المسيحانية الحديثة، فهي متأثّرة بالفلسفة الحديثة، وهي نظرة ذاتية، مرتبطة بالكائن الذي يفكّر (الفيلسوف Descartes)، والذي يريد ويقرّر وينفّذ ويتحمّل المسؤولية ويتصرّف تصرّفًا أخلاقيًا ويحقّق حريّته في كل ذلك (Kant)، ويكوّن علاقات مع الآخرين («الغيريّة») فيحقّق هكذا ذاته (Hegel)، ويحيا في الزمان فيعي ذاته داخل الزمان (Heidegger) . . .

ليس هذا التغيير في المفاهيم الفلسفية بين المسيحانية القديمة

coptic-books.blogspot.com

والحديثة تغييرًا شكليًا، بل هو جوهري يجعل المفاهيم القديمة غير قادرة على التعبير عن عقلية العصر وحضارته واهتمامه. فلغة خلقيدونيا - وهي أكمل صيغة مسيحانية مع القسطنطينية ٢ و٣ وأقربها إلينا كما رأينا - إنّما هي لغة أنطولوجية، في حين أن لغة اليوم - وبالتالي مسيحانية اليوم - هي «أنثروبولوجية» و«وجودية» و«واقعية» و«تاريخية». . . ، تعكس اهتمام إنسان (أنثروبوس) القرن العشرين. فلا يمكن لمسيحانية النصف الثاني من القرن العشرين أن تتجاهل كل هذه الخلفية الفلسفية وتجترّ فلسفة القرون الأولى اجترارًا وتردّدها ترديدًا. فعلى النظرة إلى يسوع المسيح أن تأخذ بعين الاعتبار كل هذه المعطيات، فضلاً عن العلوم الإنسانية (علم النفس، علم الاجتماع، علم السياسة، التاريخ، علم الآثار، الجغرافيا. . .).

ومن ضمن اهتمامات النصف الثاني من القرن العشرين، أهمية التاريخ: الإنسان يصنع تاريخه. فإنسان القرن العشرين متأثّر دون ريب بكارل ماركس الذي يناشد بـ«تحويل العالم» عوضًا عن «التأمل في العالم». على المسيحانية أن تتحدث عن شخص يسوع المسيح من هذه الزاوية، كيف أنه «حوّل» مجتمعه الديني والاجتماعي والسياسي حتى إنّ بعض اللاهوتيّين - بشيء من المبالغة - رأوا فيه رجلاً ثوريًا ومجاهدًا مدافعًا عن الفقراء والمظلومين. . . وإذا تخلّينا عن النظرة المتطرّفة والمبالغ فيها، تحتّم علينا أن نتحدث في المسيحانية عن علاقة يسوع الناصري بمجتمعه على كل المستويات.

ومن هذا المنطلق نشأ ونما «لاهوت التحرير» مع رائده Gustavo Guttierez و«اللاهوت السياسي» مع Jean-Baptiste Metz و«لاهوت العمل» و«روحانية حياة الناصرة»، أي الحياة اليومية مع Charles de Foucauld. كل ذلك من لاهوت روحانية، لكنه انعكاس لاهتمامات القرن العشرين، على المسيحانية الحديثة أن تأخذه بعين الاعتبار وبطريقة جدّية.

coptic-books.blogspot.com

وأما الخلفية اللاهوتية والفلسفية لكل هذه التيارات المعاصرة وغيرها، فهي أن الله قد منح الإنسان مع الحرية القدرة على صنع تاريخه. وهذا هو معنى صرخة يسوع على الصليب: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» التي لم تجد ردًّا من طرف الآب (سوى أنه أقام ابنه)، بل جعلت الإنسان يتخبّط في مصيره وألمه وتاريخه، بل ويصنع مجتمعه ومصيره. وكذلك، فإن معنى يوم السبت، وهو يوم وجود المسيح في القبر، إنَّما هو «صمت الله» وعدم تدخّله في تاريخ البشرية، احترامًا منه للخليقة التي خلقها وللحرية التي أوجدها في الإنسان. غير أن الله، بإقامة يسوع المسيح من بين الأموات وإصعاده إلى يمينه، ردّ على صرخة يسوع، ولم يتركه يرى الفساد بسبب الموت، وبالتالي تدخّل في تاريخ البشرية، ولكن دون أن يسلب الإنسان حريته، فأصبح - وذلك منذ التجسّد واكتماله بالقيامة - شريكًا في تاريخ البشرية وطرفًا فيه، محترمًا حرية الإنسان. فإذا رأينا آنفًا أن يسوع المسيح هو «سيد التاريخ»، فالإنسان هو «صانع التاريخ». وإذا كان يسوع «الألف والياء»، «البداية والنهاية»، فالإنسان هو ما بين الطرفين. وإذا كان يسوع المسيح «بكر الخلائق»، «بكرًا لإخوة كثيرين»، فالإنسان هو أخو يسوع المسيح... كل هذه العناصر وغيرها عليها أن تظهر في المسيحانية، إذا أردنا أن نخاطب إنسان القرن العشرين في عقله ووجدانه وإرادته، بل وفي إيمانه.

* * *

هكذا علينا أن نُقرّ، في المسيحانية، بالناحيتين المتكاملتين، الثيولوجية والأنثروبولوجية، دون أن نضحّي بالوحدة لحساب الأخرى. ولأن يسوع المسيح هو الله وإنسان، فعلى الحديث عنه - «المسيحانية» - أن يتّسم بهذين المستويَين، أن يتحدث عن الله والإنسان معًا.

coptic-books.blogspot.com

فهرس المحتويات

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

الجزء الثالث: النظرة المسيحانيّة المعاصرة